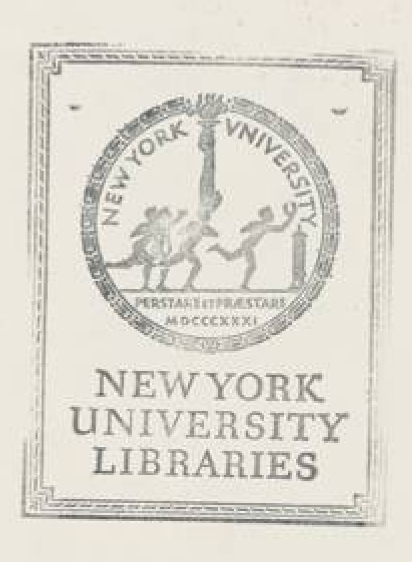
كرم ملحم كرم

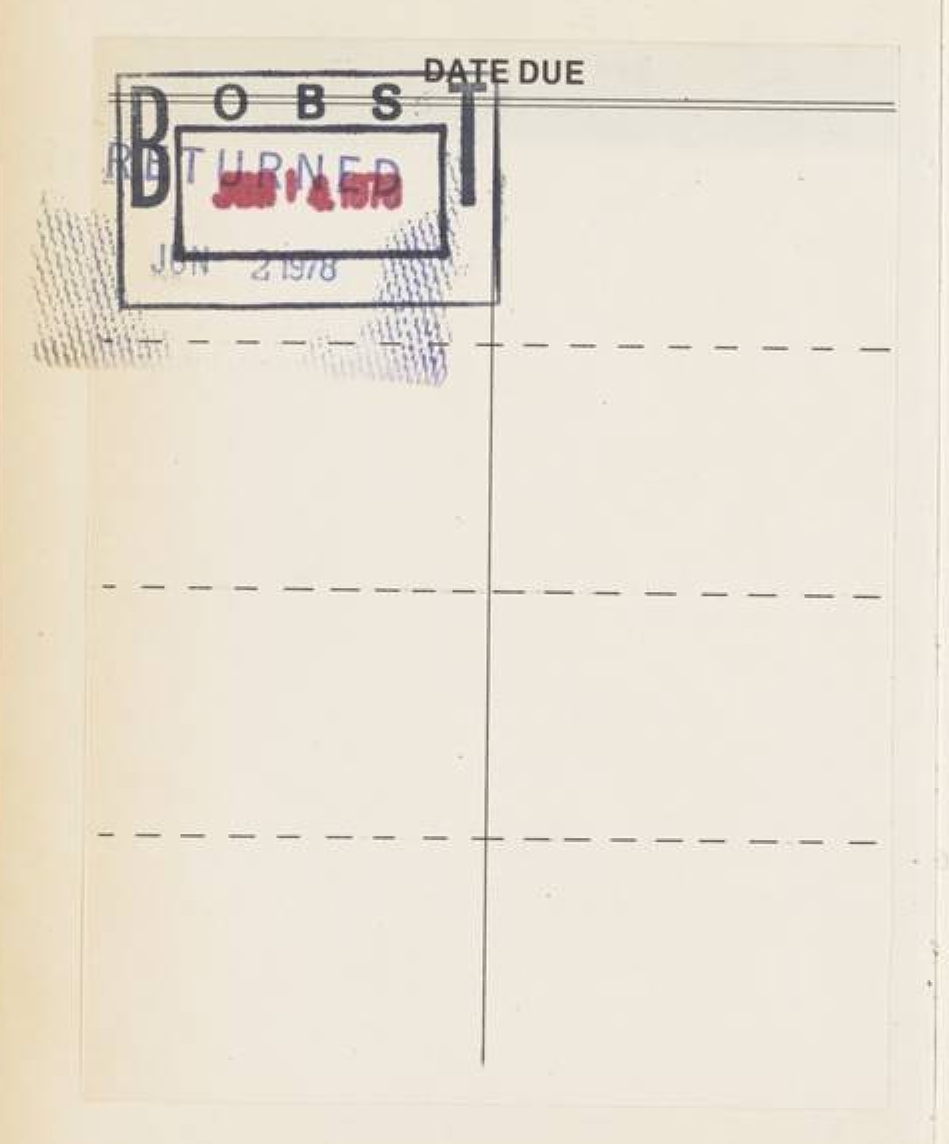
أطياف من لبنان

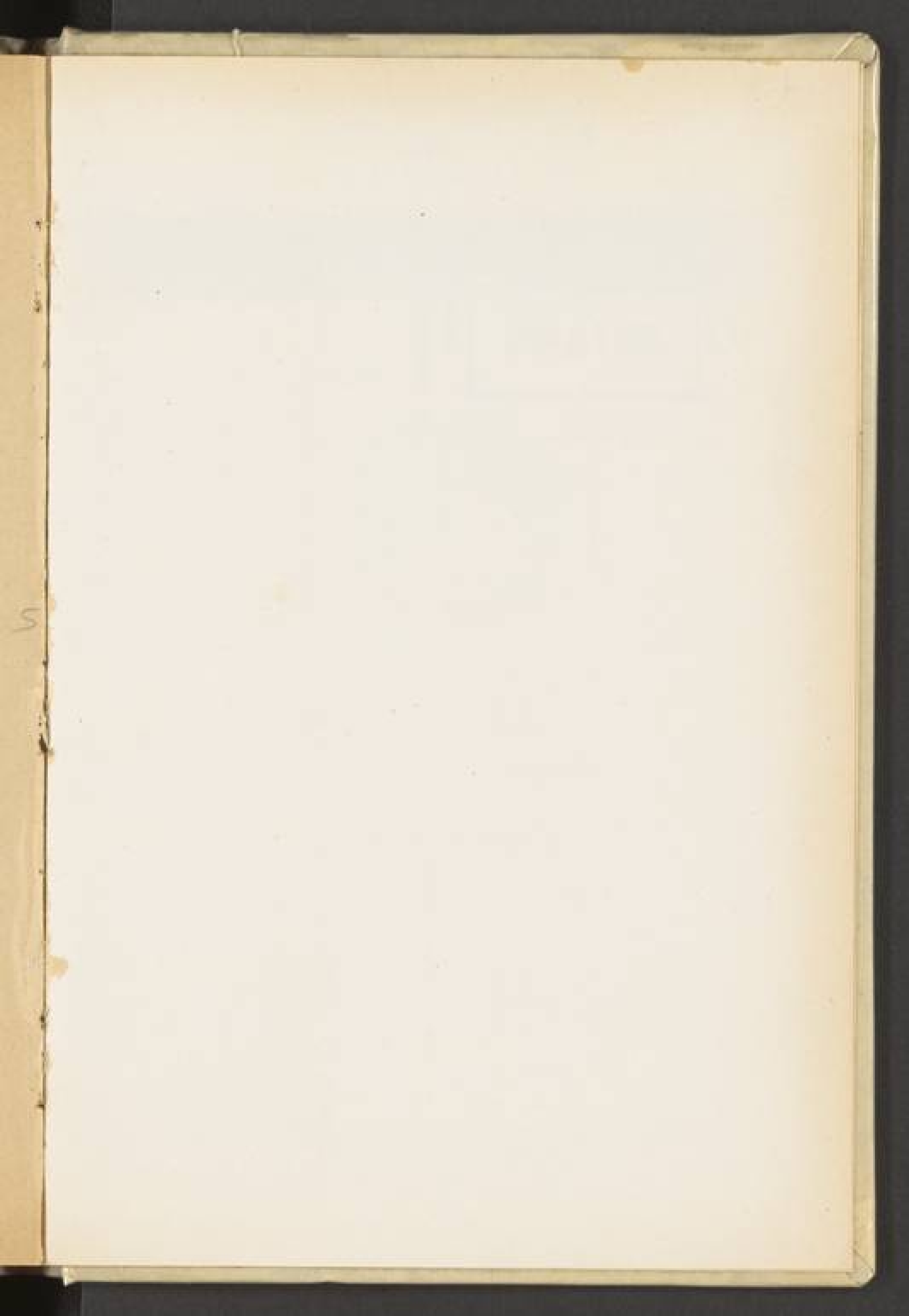
مكتبة صادر
بيروت


3 1142 00113 2698

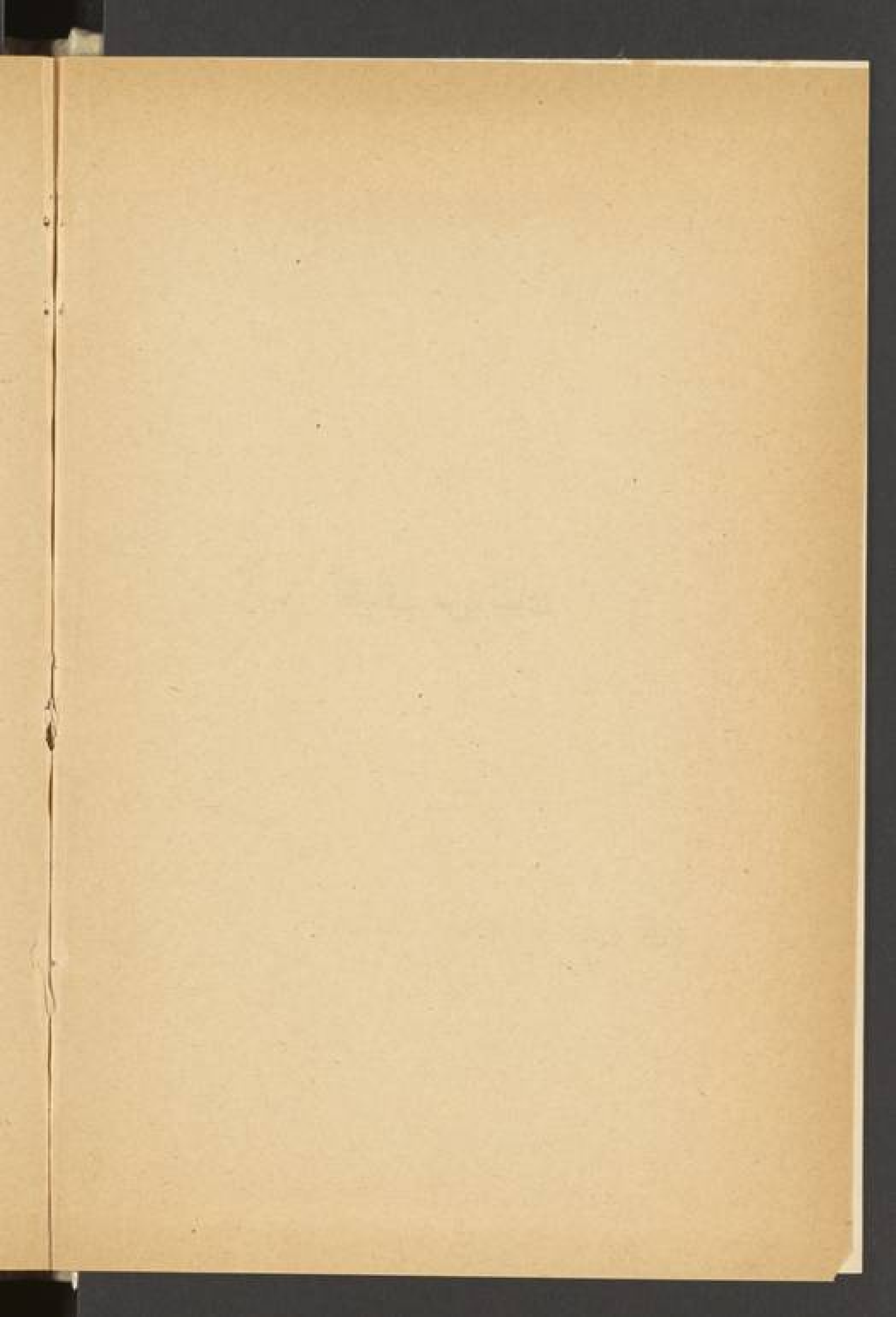



NEW YORK VNIVERSITY
PERSTARE ET PRÆSTARE
MDCCCXXXI
NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES


DATE DUE
BOBST
RETURNED
JUN 2 1978



أطياف من لبنان



Karam, Karam Milḥim
/Aṭyāf min Lubnān/ كرم ملحم كرم

أطياف من لبنان

مكتبة صادر
بيروت

١٩٥٢/١١١

الى ابنتيَّ سوْسَن ومها

سألتني، يا سوسن، عن كتاب أهدي اليك. فما وقعتُ على خير من هذه «الاطياف» العابقة بالطهر، والفداء، ازجيها الى روحك النضير. فهي من عندنا، من لبنان. ولقد خلعت عليها، من صفاء الطابع، ما لا يعدو الحق، وما لا يتنكر لخلقك الوديع، الابيّ

وشئتُ، ان تكون اختك مها، شريكتك في الهدية. فيتكافأ الفضل، وتتساوى المنحة. وما كانت مها الا عديلة لك في نبل المهزة، ونصاعة الاحدوثة. وحسبي، ان تردان، بهذه الريحانة الندية، هامتان نقيتان، تتشامخان في العفة، وتتحنيان في المنّة. ويطيب للبنفسجة، وهي اخت الزنبقة، ان تجمعهما طاقة واحدة، وان توحّد بينهما رفاقة الطريق

ان في «اطياف من لبنان» فوح شذا، ورونق حفاظ. وما اصبو الى ما يرجح هاتين الخلتين، الزكيّتين، في ترصيع ايامكما البيض

بيروت في سنة ١٩٥٢ كرم ملحم كرم

في هذا الكتاب

ست اقاصيص :

١ – النهد المكذوب

٢ – شريعة الغاب

٣ – عيد الميلاد

٤ – عرس في قرية

٥ – ذلفاء ، اخت الصقور !

٦ – جهاز العروس

الزهد المكذوب

١

الجوع في كل مكان . في الجبل والسهل والوادي. والخوف من الموت يرتسم في كل وجه . في وجه الفقير والغني والجندي الشاكي السلاح والقائد والزعيم. فالهول نشر، في سنة ١٩١٦، على سوريا ولبنان ، بساطه الفاحم،حتى بات الرغيف يشترى بالكرامة، واضحت الروح بهوان التراب

وتدلت على الاعواد خير فئة من السوريين واللبنانيين، بامر من القائد العثماني جمال باشا. وما تجرأ ذو نخوة على رفع الصوت. وان يكن ثمة من شاقه ان يهمس بنقمته، في اذن اصدق اخوانه، خشي ان يلقى في من أسرّ اليه بالنفرة جاسوساً ، فينتهي الى المشنقة، ترجيه الى رحمة الله

واحترس الحدين من الحدين . وجثم الجزع بكل صدر . وامسى القوم بين ويلين يسعيان للنهش . ويل الجوع وويل التنكيل بالابرياء. فيكفي ان يقال، في اي كان، انه خائن للدولة العثمانية، حتى يجرّه الجند إما الى المنفى ، وإما الى السجن، وإما الى الاعواد

وتوارى عن العيان عدد جمّ من ذوي الشأن، وقد اوجسوا

شراً مما نزل برفاقهم من فتكة . ففزعوا الى البراري يقتعدون الكهوف . وتسلقوا القمم يتغلغلون في الفجوات . فاذا اتفق لهم من يلتفت اليهم، شكروا ، والا تنكروا لمن حولهم، وقنعوا من دنياهم بالوحشة ، ريثما يفرجها الله. وليس من حال يدوم

واعالي بسكنتا الوعرة، الصلبة ، وقد توّجها جبل صنين بعمامته البيضاء ، شهدت حفلاً من هؤلاء المشرّدين ، الفارين من الموت . فنفروا اليها يلوذون بحماها ، ولن يجدوا مكاناً ارحم منها يقيهم الحدثان . فالاقدام لا تتوقل في سوى النادر اليها . وقد يجول فيها الرعاة . ولكن غير هؤلاء لا يرتادها الا من طابت له المغـــامرة ، بل المجازفة . فيتعرّف في الشوامخ الابكار الى روعة المعجزات . ولقد ضاعت فيها معالم الطرق وما تزال على حالتها من الخشونة . فتدل على الازل بنواتئها ومغاورها، بقطوبها وجبروتها، بوقارها ومنعتها، وهي العابثة بالدهر والانسان

ومع ان بسكنتا تقتعـد الروائس ، وتستقر بالشاهق من الذرى ، فهي من صنين في السفح. وليس لها ان تعلو اليه ولن تقوى فيه على مكافحة الزمهرير. واذا ما ارتقت الى هضابه، بعض منازلها، فيضطر في الشتاء ساكنوها الى هجرها. والثلج يطمرها، وقد يدفنهم فيها

وما تمرد على الثلج والبرد غير مسعود العابد . فظل يقضي

الشتاء في منزله القائم في التلال العالية، متحدياً العواصف القارسة، المقتلعة الاشجار والصخور. فيرسخ في القبو، وهو الطابق الاسفل من منزله، ويصطلي بما يضرم في الموقد من نار. اما طعامه، فقد أعدّ له العدة بما ازدخر من مؤونة. فلديه اللبن المجفف، والدهن، والزيت، والبيض، والزيتون، والحبوب على متعدد انواعها. وما خلا القبو من الطحين. فيعجن مسعود ويخبز، واكداس الحطب وافرة لديه. ورفيقه في عزلته كلب ضخم، امين، يردّ عنه الطوارىء، ويدأب في مؤانسته بالحومان عليه

وفي سنة ١٩١٦، وقد طغى الجيش العثماني على لبنان واحتله، وقبض على الفئة المختارة من بنيه يذيقها من التنكيد ضروباً، ويحرم الاهلين اللقمة كي يموتوا جوعاً، لم يتبدل مكان مسعود العابد من الاكمة. فهو ابداً في منزله القائم بجوار صنين، يضحك في الصيف للشمس، ويبسم في الشتاء للثلج. ويعالن جميع ابناء بلدته ان القوي البنية من يثبت في مغالبة الزمهرير، وانه وقد ملك الجأش السليم، والجرأة، والصبر، يشكر لربه هذه الهبات الغاليات

ولمسعود، في جوار صنين، ارض واسعة، غرس فيها انصاب الخوخ والتفاح. وهي مورد رزقه. وما كانت تدر عليه بالبدل الزهيد. فيعيش منها على وفر، ويتقي الحاجة الغشوم. فلا ابتذال

ولا ضيم ، بل رفاهة ورغد . والرفاهة والرغد يكلفان بعض العناء . وحرص مسعود على هذه الثروة اهاب به الى حراستها، صيف شتاء . وما بنى فيها منزله للسكنى ، بل لجمع الثلج للصيف. كان يختزنه ويبيعه . امـا وقد ذاق عطاء الاشجار المثمرة ، ولا سيما التفاح، فاستغنى عن ازدخار الثلج، واصلح البناء بما اضحى به مبيتاً هانئ الوساد . فيأوي اليه واسرته في الصيف، ويستأثر به في الشتاء

ولمسعود العابد اربعة اولاد . صبيان وابنتان . اجتهد في ان يسخو عليهم بالعلم. وليس لهم ان يعيشوا كما يعيش ابوهم في مجاهدة الارض.فهو يشتهي ان يراهم في الفئة المرموقة،لا بين المغمورين ، ممن يقضون العمر الطويل،وليس من يحسّ بهم في قيد الحياة

والاولاد الاربعة جاوزوا العاشرة. وراجحة،البكر ،في الثامنة عشرة. ولقد حبت الى النضج، وازدانت بكريم الخصال. فلا تخرج عن رصانتها . وتجتهد في التوفر على خدمة المنزل لتدرأ عن أمها المشقة . ومما قال فيها مسعود العابد، مباهياً اخوانه في بسكنتا : لي ثروتان ، بستان التفاح وابنتي راجحة. بهما وحدهما أتقي العسر !

وكم كان يطرب وهو يبصر ابنته تتسلق روضته في صنين . فيبسم لها كأن جميع اثقال دنياه تدحرجت عنه . وفي احدى ليالي الخريف، وقد رقدت راجحة في صومعة ابيها ، في مشارف

البلدة ، سمعا انيناً يتصاعد اليهما . هو أنين حادّ كأن من يطلقه جريح ، ثخين الكلوم . فارهفت راجحة اذنيها وخاطبت اباها بقولها : أتسمع ؟ ... من يفيض بهذه الأنّات ؟

والاب اصغى الى الانين المتعالي وعراه الدهش . اي مسكين غرّر به حظه فرماه في تلك القمم يقاسي بردها ، وينوء بحشونتها ؟... قال الاب : ان من اقبل في مثل هذه الليلة الى صنين لمجنون . فالريح قارسة تخترق العظام . والسماء تنذر بالمطر وقد تلبدت بالغيوم السود !

على انه نهض الى سراجه واناره ، يبدد به العتمة الكثيفة الجلباب . ومشى الى مصدر الانين وكلبه وراءه ، وفأسه بيده يحاذر المباغتة . وصاح كأنه يستأنس بصوته : من يقلق صفاء الليل ؟... من المستغيث ؟

فتعاظم الانين يدل على نفسه . وشاء ان يكون واضحاً فخانته المقدرة ، وقد حال الارتجاف دون جلاء النبرة . فمشى اليه مسعود العابد وابصر شيخاً يرتدي عباءة وكوفية وعقالاً ، اشبه برعاة البـدو . ابيضّ شارباه ولحيته وانتابته الرعشة . وانتعل مداساً ضخماً . وحمل عصا غليظة من السنديان . ولاح له الضوء فرفع يدين مختلجتين لفرط العياء والقرّ ، مستغيثاً بالمنجد . فراع مظهره مسعوداً واستوضحه : ولكن من انت ؟... من انت ؟

فما استطاع بياناً ، كأن لسانه معقود . بلى ، رددت شفتاه كلمة استرحام واحدة فهمها مسعود العابد : انقذني ، انقذني !

فدنا منه والد راجحة يمسك بذراعه،ويعينه على النهوض، ويمنع كلبه المالىء الليل نباحاً من ايذاء المستنجد . ولكن من هو الرجل؟... أيكون من رعاة الغنم المقبلين من البقاع، وقد ضلّ طريقه ؟... هذا ما تراءى لمسعود. وزاد في التخمين فقال : ربما كان من ضحايا اللصوص، وقد سلبوه في هذا الليل ماله وطاردوه، فلجأ الى هذه الصرود !

وقاده الى الصومعة ونادى راجحة قائلاً لها : اضرمي النار. هذا ضالّ مسكين !

وجاء بكل ما عنده من اغطية ومعاطف وجلود غنم سليمة الصوف، يلقيها الى الضيف ليصونه من الانتفاض الآخذ به . واشتعلت النار تنفث دخانها ولهيبها . واطالت راجحة النظر الى المستغيث الشريد، وهالها ما تجلى لها فيه من متناقضات. فهو ابيض اللحية والشاربين، ولكنه اسود الحاجبين. وسلم جبينه من الغضون، واتقدت في عينه نار الشباب

وحانت منها نظرة الى مداسه، فلاحظها ان ساقه بيضاء، لا تدل على كونه اكتوى باشعة الشمس. وهذا البياض لا يشوبه الترهل، ولا الاصفرار، بل ينبىء بالاكتناز والحياة، مما ايقنت به راجحة

انها حيال من يحتجب عن بيئته لهوى في النفس . ثم هو يحترس من النطق، ومن تسديد النظر الى الفتاة والى ابيها ، كأنه يخشى افتضاح امره . وجاءه مسعود العابد بكأس من العرق قائلاً له: هل لك في جرعة تملك بها الدفء ؟... هذا دواء البرد عندنا !

فابتسم وامتدت يده الى الكأس . فكشف كمه عن ساعد صقيل ابيض ، يدل على كون الرجل من ابناء المدن، لا من سكان الفيافي ، وعلى كونه متنكراً . ورهبت راجحة هذا التنكر فيه، وحسبته جاسوساً جاء ينغص على ابيها صفاء عيشه. فماجت عيناها بالفزع، وعبست وقالت تستفهم : ولكن هل لنا ان نعلم من انت ؟... ما قادك الى هذه الاعالي ؟

قال وقد ملك روعه ، وانتعش بقرب النار فتوافر له البيان: حسن حظي !

وتنقلت باصرتاه منها الى ابيها. وزاد قائلاً : أنى لي ان اعرفكما، واتبين اريحيتكما، لو لم تمتد بي قدمي الى هذه الشوامخ اتيه فيها ؟... ألا يظهر لكما في هذه الطفرة حسن الحظ ؟

فراعتهما لهجته. انه ليخاطبهما باللهجة اللبنانية مع سعيه لمزجها بلهجة الصحراء . فقالت راجحة مبغوتة : ألا من تكون ؟... كل ما فيك يرمز الى كونك منا . فما جاء بك الينا ؟... تكلم ولا تخشَ . أجاسوس انت ؟

ونظرت الى ابيها نظرة تطفح بالحشية. فقال الشيخ ذوالعباءة المهلهلة،وقد تجلت لهرهبتها وفطنتها،وعيناها تنصبّان عليه،وتحاولان انتزاع سره من كبده: انا راعي غنم يا بنيّة . فاين لاح لك مني اني جاسوس ؟... وهل للجاسوس ان يرتاد هذه الاعالي ولا زاد له فيها ؟... لا اراه يتجشم المشاقّ الى قوم مسالمين،آمنين !

وضحك من هواجسها ضحكة زادتها ايماناً بكونه يخفي امره . قالت بنفرة وارتياب ،والهلع لا ينفك يمسك بلبها : ولكن كل ما فيك مستعار.من لحيتك ، الى شاربيك،الى عقالك، وعباءتك، ومداسك !

ومدّت يدها الى لحيته وشدّت بها فانتزعتها . فصاح ذو اللحية المسلولة : فضحتني ، سترك الله !

فصرخت به مرعوبة : أرأيت انك جاسوس ؟... ألا ما يدفعك الينا ؟... انصرف.انصرف.هل يبدو لك منا اننا على اتصال باعداء الدولة، ونحن هنا لمورد رزقنا ؟... ما يهيب بك الى التجني علينا ؟

وارتاع مسعود العابد.والجواسيس يومذاك يخيفون . وهتف بخشية : هل دعوتنا الى انقاذك كي تغدر بنا ؟ ... اين نبل النفس ؟... ألا اخرج من منزل يدنسه استقرارك به . لسنا من اعداء الدولة العثمانية كي توقع بنا الاذى !

فسخر بما يرشقانه به من تهم وقال: الى اي اوهام يذهب بكما خيالكما ؟... ما انا غير بائس مكدود . دهمني اللصوص لدى وصولي الى هذه الأعالي، فنجوت منهم متوغلاً في الصرود. ولقد بعت قطيعي في زحلة وجئت بسكنتنا اسأل الجزّارين فيها عن حاجتهم الى المواشي . وهل يكون راعي الغنم من الجواسيس؟

وضحك طويلاً ذو اللحية البيضاء المستعارة، والدفء بدد عنه الرعشة، والحمرة حبته القوة . ولكن راجحة عادت واستلّت شاربيه الابيضين ، فظهر تحتهما شاربان اسودان رفيقان. وزعقت وقد وضحت لها خدعته : أرأيت انك جاسوس ؟

وجلجل مسعود العابد بنفرة وغيظ : اخرج . اخرج . لا مقام لك عندنا . فمن ارشدك الينا ؟ ... هل قيل لك عنا ان منزلنا مباءة خائنين ؟... نحن لا نشتغل بالسياسة ولا نعرف ما هي . طاش سهمك في مجيئك الى هذا الوكر. انصرف عنا الساعة، الساعة . منظرك يقلق روحنا !

وخرجت كلمات مسعود العابد من حنجرته متقطعة ، وقد غصّ بها . فالخوف استحكم منه، والعهد عهد فزع . فالدولة العثمانية تحارب الحلفاء. ولقد اتهمت لبنان بالجنوح اليهم عنها، ونزعت الى استئصال بنيه. واطلقت اليهم الجواسيس يقتنصونهم طعاماً نجساً للاعواد والقبور. وهذه الجرأة في طرد المزعج لم يملكها مسعود العابد

الا وقد لمس في ابنته مستفيض النقمة والوجل، وسمع نباح كلبه المنقضّ على المستغيث يحاول تمزيقه، لولا رفق صاحب المبيت وخوفه من سوء المغبة. قالت راجحة: لو عرفناك ذلك المؤذي لابقيناك في انينك يهلكك الزمهرير. ومن الغدر ان تتسفل الى الاستعانة علينا، بشفقتنا عليك، فتسمي بنا ونحن على نقاوة دخلة!

وحدجته بعينين حاقدتين، مذعورتين. أتنقض المصائب على المبتعدين عنها من فجوات الغيم واحشاء الغيب؟... فما كان من الراعي الزائف الا ان قبض بيديه الاثنتين على عقاله ورفعه عن رأسه، فبدا شعره اسود كالحلكة. ودفع عنه الاغطية والمعاطف وخلع عنه عباءته، فظهر في ثوب فرنجي لا غبار عليه. واعلن بقوة: لا، لست جاسوساً، ولا انا من يسعى للغدر بكما. فاني لمن هؤلاء المضطهدين الفارين من الجواسيس. وما ارتديت هذه الاعالي، لسوى النجاة من المطاردة، الممعنة في اقتفاء اثري لقصف عودي. انا ممن كتب جمال باشا اسمهم في البيان الاسود، وقد اتهمني بالسعي لفصل لبنان عن السلطنة العثمانية، والمناداة به دولة مستقلة. لست سوى الطبيب ناضر عون، وقد رأيت وطني يهون فبذلت الوسع في الذود عنه. وما استمسك بالحياة طمعاً فيها، بل كي اتابع جهادي في سبيل امتي. ومرحباً بعد ذاك بالموت!

فما زال الرعب مسيطراً على مسعود العابد وابنته راجحة ، وهما يسمعان هذا الايضاح . فالجاسوس يخيف،والفارّ من وجه السلطة يخيف . فما وهب لهما النزيل علاوة من طمأنينة . ونظرا اليه،وقد كشف عن جبينه،والشدة تعروهما . بماذا يخاطبانه ؟... انه لخطر عليهما في كل حال . وشعر الطبيب بما هما فيه من ذعر فقال: على اني لن اطيل اقامتي بينكما ، بل سأستمرّ في الرحيل، وموعدي فجر غد . فلست ارجو الا ان ترفقا بي الليلة، وتدفعا عني رعونة الجوّ البارد ، المطير !

فتأملته راجحة واعجبها شبابه . فهو ممن طالت قاماتهم ، وضمرت اجسادهم ، ولطفت مظاهرهم . والمورق العود يأنس بالمورق العود . قالت ابنة مسعود العابد وفي فتوّتها ما لا يتنكر للروعة المستطابة : هل من درى بانك لجأت الى هذه الانحاء ؟

فاجاب بصوت جازم، لا تعروه لجلجة تبعث على ذرارة من شك : ما درى بي احد وقد تبطنت الليل . ولكني امانع في ان اكون عبئاً عليكما . حسبي ان انزل الليلة بضيافتكما، وسأودعكما في البكور !

وما الشمس ما يعدو هذه السؤلة . قال مسعود العابد : لن نضيق بك لليلتين، لا لليلة واحدة، مع كل ما يصيبنا من شر اذا ما درى رجال السلطة بانك ضيفنا . على ان تلتفت الى حالتنا

فلا تخزينا !

فاعلن بادب جمّ وبصدق طوية : وهل لي ان أخزي المحسنين اليّ ؟

وأخذ يتحدث عن هدفه في خدمة امته . وقال في لبنان انه ما امتزج، ولن يمتزج، بالسلطنة العثمانية، وما زال منذ قيامها مستقلاً عنها. والدولة العثمانية نفسها لم تمهد الى هذا الامتزاج، وقد جارت على اللبنانيين ، بل على العرب جميعاً . ولبنان ، وهو قطعة من الاقطار العربية، لن يصبر على الهوان. فلا بد أن يستعيد سيادته ويتولى امره ، كما كانت الحال في عهوده الغابرة. وابان الطبيب ناضر عون متحدثاً عن نفسه : ولا بأس عليّ ان اشقى في سبيل هذه الامنية ، على ان اراها تتحقق . واني لراضٍ، وقد شاهدتها وطيدة الركن ، ان يطلقني الله بسلام !

فاضرم فيهما شعلة الحماسة ، وقد تكلم كالهداة الابرار. فهو على ايمان بما يروي، وبما تحدوه عليه الصبوة. وليس من يلتفت الى امته اكثر منه الى نفسه من فئة المنبوذين الاشرار. وجنح مسعود العابد، وابنته، الى تأييد هذا المجاهد في رفع شأن قومه. واكبرت فيه راجحة الاخلاص، وضنت به على العناء. وسكتت مكتفية بان ترنو اليه باعجاب واجلال، وفي نفسها يتقد الجنوح الى النصرة الفادية. لن يكون ابوها مغبوناً وقد ظاهر وطنياً مؤمناً على بلواه

بيد انها اعتصمت بسكوتها، تتحامى اعلان ما ألقى هذا الطيف المفاجىء في ضميرها من عطف عليه، وتأييد له. فكأنه من اولياء الله وما ينطق بلغة البشر . وما في البشر ارباب نزاهة وانكار نفس . هو مشعل من مشاعل الابد لا تنطفىء له نار . والليل يمعن في تجسيم الاخيلة والهواجس والميول . فوقفت راجحة من الضيف موقف الخشوع . واعدّت له حجرة خاصة يضطجع في سريرها النظيم. وحبت الى فراشها، على مقربة من مضجع ابيها، وما زالت تفكر في هذا العابث براحته فداء وطنه. ولم تنم سريعاً. بل استولى عليها أرقٌ نزع بها الى استعادة ما اذاع الشبح الطارىء في مسمعها . وعادت تكبر فيه الاخلاص والاقدام . وساءلت نفسها لماذا لا تكون وفية مثله لقومها ووطنها، فتسعى للحؤول دون تشريد الطبيب الزكيّ الروح، بان تمهد له الى الاختباء في مأوى ابيها، والنجاة من مطارديه. أليس عليها ان تكون ذات ولاء لامتها ، فتحرص على صون الامناء للوطن من الغواشي ؟

وشاقها ان تقاسم الطبيب المجاهد سعيه، فخاطبت اباها بقولها: ألا يزال مستيقظاً ابي ؟

ومسعود العابـد ما برح على سهاد. وما انفك يردد في ذهنه اقوال الطبيب ناضرعون، كابنته نفسها . وخطر له ان يتحدث الى راجحة عن هذا اللاجىء اليهما، ويستشيرها في الحدب عليه،

وفي ابوائه . الا انه خشي ان تكون استسلمت الى الرقاد. اما وهي ما تزال على يقظة فسرّه أرقها، واجاب: ماذا تريد ابنتي؟

قالت وفي نفسها ما يهيب بها الى النجوى: اريد ان اقف على رأيك في ما سمعت !

– في ما سمعت ممن ؟... من الطبيب ؟

– منه بعينه . فما قولك فيه ؟... أنطلقه ام نبقيه ؟

فجرض بريقه . هذا هو المعضل . أيطلق المستغيث برحمته ويعرّضه للاذى ، ام يبقيه ويتعرّض لاذاه ؟... وارتبك . على ان الرحمة تغلبت عليه. وما سها عنه ان ثمة اقراراً بجميل المنافحين عن حق الوطن. فقال: عندي ان نبقيه،وليس لرجال الامن ان يدروا بنا . فاننا لفي ارض قفر لا تسلكها قدم . وسندعوه الى استبقاء زيّه،فيحسبه الجميع من الرعاة . واذا اضطررنا ان نأتيه بقطيع يجوب به الجبل والوادي،فسنفعل امعاناً في التخفي . اني لاضنّ به ان يذهب رخيصاً، بعدما تبينت مبلغ اخلاصه للبنان !

فطربت راجحة وهي تستمع الى ابيها،وقالت : نعمَ الرأي . فان للمخلصين حقاً على الامة ليس لها ان تجحده . قليل هم امثال ناضر عون . وعلينا ان نصون بقايا هذا القليل بعد كل ما ذاق من ابادة ، وقد امتلأت بشطره الاوفر القبور !

فاشرق في مسعود العابد الرضى عن هذه الابنة الحساسة،المتقدة

الحمية، وقال : ساعمل بما ترضين عنه يا راجحة. ناصر عون سيبقى بيننا كأنه منا . ولا بأس ان يصيبنا ما يصيبه. فتحيي دماؤنا تربة وطننا . هي حياة وتنقضي، على اني اؤثرها مخضبة بنبل الولاء !

قالت راجحة، وقد راقتها حمية ابيها : ولكننا سنجتهد في ان نكون حكماء . فلا نبيح لاي كان ان يلمّ بامرنا . وكل ما لنا ان نبلغ الطبيب ناصر عون ان يدعي الخرس . فاذا ما سئل عن امره اشار الى كونه ابكم . وعلينا، اذا ما تحدثنا عنه، ان نقول فيه انه من البدو ، وان ابناء قومه ضاقوا به، ففزع الينا !

فقال ابوها يعجب منها بباكر النضج : وهو الصواب . لكن لنا في نصرة وطننا بعض المأثرة . ارى ان نرقد الآن، وان ننهض الى ضيفنا قبيل بزوغ الفجر ، فنثنيه عن براح مقامنا !

وناما على مسرة . سيكون لهما يد في الحرص على ذوي الجهاد الامين. واعتزما ان يسبقا الطبيب ناصر عون في اليقظة ، ليعالناه استمساكهما به. ولكن غلب عليهما النوم الطويل، فما استفاقا الا وقد حان الشروق . ووثبا معاً الى حجرة الضيف حانقين على انفسهما، وقد تأخرا عن الموعد. واذا بالضيف قد توارى. فصاحت راجحة بابيها : إلحق به . إلحق به . فقد تدركه !

ودعت الكلب الى اقتفاء اثر الراحل. فوثب الكلب الفطين يقتحم المسالك والمخارم . وظهر من وثوبه ان الطبيب ناصر عون

لم ينحدر الى بسكنتنا ، بل شقّ طريقه الى الهضاب ، يحتجب بين الصخور . واسترشد اليه الكلب . فابصره مسعود العابد يلبد باعماق كهف بعيد المدى ، فصاح به : ايها الراعي ، ايها الراعي ، ارجع الينا . نسيت عندنا جرابك !

فوقف الطبيب ناضر عون على حيرة ورهبة . هل وشى به مسعود العابد واقبل الجند للقبض عليه ؟... وانتظر حكم القدر لا يحاول الفرار بعد طول كفاح . هذه هي المرحلة الحاسمة ، وليس له ان يتحدى المكتوب عليه . ولكن مسعوداً دنا اليه يقول بهمس : الى اين ؟ ... فسحنا لك في منزلنا . فانت ابداً ضيفنا ، ونحن واياك على الدهر . لا علينا ونحن نشاطرك نضالك عن وطننا !

فراعته الحفاوة والاريحية . وقال يعتذر : اخاف ان اكون خطراً عليكما . فشكراً لرحابة صدركما . لست ارتضي لنفسي ان ارمي احداً بدائي ، حتى عدّوي . ساذكر لكما هذا الصنيع ما اسعف الزمن في البقاء !

فشدد مسعود العابد في القول : ارجع الينا . نحن على ابواب الشتاء ولن يدهم احد وكرنا . وسنرى ما يدعونا اليه الصيف من تدبير !

فظل الشريد الطريد يمانع في الاجابة . قال مسعود : ابنتي من رأيي في بقائك في ضيافتنا . ولقد اجمعنا على ان نشتري لك

قطيعاً ترعاه ، وتتقي به الظنون !

فتأثر وهو يلمس العاطفة السخية في ذينك القرويين. واغرورقت عيناه ارتياحاً، وقال : غمرتماني بالجميل. انى لي ان اكافئكما ؟... أذكرا اننا في أيام حرب وجوع، وانني مضطهد، فلا يشوقني ان اكون ويلاً عليكما !

فاستحلفه مسعود العابد بالله ان يعود . فاضطر الى الامتثال على استحياء . اي نبل يثوي باحناء هذين الكريمين ؟

٢

الخرفان ترعى في القمة، والراعي الشيخ يسوقها بعصاه. ويقف احياناً فيستريح . ويتناول من وسطه مزمار القصب فيطلق منه بعض الالحان . على ان الحانه دلت على كونه ليس بارعاً في النفخ في المزمار . فما ينِي يتمرّن . ويعمد الى الغناء فيجود باناشيد «ابو الذلف»، و«الميجنة» و«العتابى». ووضح منه انه في صوته اصدق منه في التزمير

ويعتلي الروابي. ويتدحرج في المنحدرات. ويغور في اعماق الاودية متثاقل الخطو . وتشجيه القيلولة فيرتمي تحت شجرة من الجوز، او السنديان، ويسبح في احلامه. ويدركه النعاس فيسترسل الى ساعات هنيئة من خلو البال، وقد نعم بالهواء الطلق ، وبالفضاء

الفسيح ، وببُلَهنية الامان

وفي المساء ، عندما يعود بالقطيع الى ينبوع الماء الصافي ، البارد المجسّ ، وقد اطلقه صنين من ذوب ثلوجه ، يكبّ على السلسال القراح ويعبّ منه بما يملأ فمه، وهو يحس بانه يُسقى ماء البقاء. ويقبل بالخراف الى الصيرة، ويجد مسعوداً وراجحة بانتظاره، يبسمان له ويسألانه عن مبلغ رضاه عن نهاره. فيردّ لهما الابتسامة ويقول : اراني ارسخ في العافية. على ان الجمود ليس من طبعي، وقد كدت اختنق به . فمتى يكون الخلاص ؟

وتتجه عيناه الى البحر ويقول : انتما لم تبصرا ما لاح لعيني. شاهدت في هذا الصباح سبع سفن حربية اقتربت من الشاطىء. ولا ريب انها من سفن الحلفاء، وقد جاءت للانقاذ . وكدت اصفق لها واصيح : «نجونا . اليوم احتلال وغداً استقلال ! ». غير انها لم تلبث ان ابتعدت بما اوجع روحي . لا خلاص بسوى نزول هؤلاء الاصدقاء ارضنا. ولكننا لا نريده مكثاً ابدياً، بل موقوتاً، ريثما تنتظم به شؤوننا. والا اذا طال بقاؤهم عندنا فالمودة تنقلب الى بغضاء، والمعونة تبيت استعماراً. من هالك الى مالك. مع ان لبنان للبنانيين ، ولن نعجز عن قيادة السفينة بدهاء !

ونطق فيه علمه وصدق مخبره .هذا هو الطبيب ناضر عون لا راعي الغنم الصاعد القمم والهابط السفوح. وما انفكت راجحة تتحمس

له، وتجلس اليه فاتحة اذنيها لروائعه. وما فتىء يحدثها عن الروح الوطني، وعن ضرورة اغاثه في النفوس . قال : في لبنان طغمة لا تزال تدرج في الذل يا راجحة، وقد نشأت والسوط يلسع ظهورها. وامثال هؤلاء علينا باستئصالهم، وهم اشبه بالسوس في جسم الامة. لنلتفت الى الشبيبة ولننفحها بدم طهور، فتدرك انها سيدة نفسها !

فهتفت بخشوع : ما اسمى هذه التعاليم . ألا زدني منها !

قال يغرف مما اختزن من دراية وولاء : لن يمسي لبنان دولة وطيدة الا وقد ايقن انه حرّ، وازدرى المحال. ولن يزدري المحال الا وهو يؤمن بنفسه، ويوقن انه ذو همة تناوىء كل قاهر. وما يقتل الامم سوى اعتقادها انها عاجزة، ومقصّرة في مضمار التحرر من نير الاسترقاق. فما ورثنا هذه الارض لنبيحها للطغاة ونجري فيها عبيداً، وهي مجبولة بدم الآباء والاجداد . فلم يمت الاسلاف في جهادهم للحرية كي يعيش اخلافهم أذلاء، مكدودين !

فما برحت تطمع في المزيد من هذه الغوالي . فالطبيب ناضر عون لا يلقي الكلام الجزاف. ونزعت الى مرافقته في جولاته. فتتوقل واياه الى الاعالي لتستمع الى حكمته . ونهدت الى الغوص على اسراره . فاين نشأ؟... وما هي منازعه ؟... وهل يكون خليّ القلب ؟

ولكنها خشيت اباها. فلن يبيح لها مسعود العابد هذه الطلاقة، والراعي في عنفوان الشباب، وكل ما فيه يغري به. فاكتفت بان ترافقه الى العين، وبان تجالسه على مصطبة المنزل، داعية اياه الى التحدث عما تنطوي عليه نفسه من منى. وما كان يزجي اليها غير القول الصادق النبرة، الوضاء الدخلة، الرامي الى انشاء وطن، وقيام امة. وما ان يجري في هذا المبحث حتى يلوح منه لسامعيه انه سامٍ شأواً، وبزّهم روحاً. فهم يصغون فيه الى ملك علوي تلطف وصار انساناً

وافتتنت راجحة بهذا التفوّق الكامن في نفس الطبيب الراعي. واخذت تنظر اليه كسيد لا كاجير، كقائد لا كتابع. فما ان تبدو في حضرته حتى تتضاءل كأنها بين يدي المتسلط على بصيرتها. وانحبست على خدمته فأخذت تعدّ له الطعام اللذّ، مما لا تجهز منه حتى لها ولابيها، كأن ناصر عون ارفع طينة واسنى مقاماً

واذا ما خاطبها انحنت كأنها في معبد، وكأن روحاً سماوياً يبثها المنزلات. واحست بانها اضحت موثقة الروح بهذا الباذخ الشأن، الكريم الطوية، وبانها مضطرة الى اللحاق به انى اتجه. وكلما سارت الى العين، لترقبه في اوبته، حملت اليه اشهى الفاكهة. فيلقي بين يديها طاقة من أزهار الجبل تعب طول نهاره في جمعها وتعجب الرعاة من زميلهم الشيخ الغريب عن مراتع صنين،

الابكم كأنه الصخر، وليس يجلو لهم امره، المهذب كأنه من تلاميذ الجامعات، الوئيد الخطو والجليل النظرة كأنه من الانبياء. فأي ديار قذفتهم به، وكيف اهتدى الى مسعود العابد؟... وما هذا الشوق إليه في قلب راجحة، وما عرفوا الفتاة من سوى ذوات الرصانة والعفة ؟

وخيل اليهم في البدء ان صلاتها به لا تعدو الشفقة. ولكن هذا المضي في اللقاء عند العين، ومبادلة طاقات الزهر، وحفنات الفاكهة، نفرت بهم الى الظن الاثيم. أتكون راجحة العابد على شغف بالراعي الشيخ المجهول ؟

ولكنـه لبس بالشيخ، وهو يتسلق الروائس بهمة المكتنز العصب، المجدول الساق، ويرشق الشاة التائهة بحجر لا تطلقه سوى يمين العامر الشباب. واستطلع بعضهم مسعوداً امر هذا الراعي العجيب الميسم. فاعلن والد راجحة بافترار التمويه: هذا طريد الصحراء. نبذه قومه فهرع اليّ يستجير بي، ويسترفدني، فما خيّبته. انه ليجهل عاداتنا وألفاظنا ويؤثر العزلة. دعوه في وحدته ولا عليكم منه !

فما شفى نهمتهم. فاعتزموا الوقوف بانفسهم على لباب اللغز، بان يحاولوا في الراعي الشيخ امراً لا يقف بهم عن كشف طويته. فسيفاجئونه في قيلولته ويتثبتون في امره، وقد تجلى لهم فيه سر

مكنون . ففي حوانيه خفايا يجشهم الفضول على جلائها . ولحقوا به في تسياره دون ان يفسحوا له في الاشتباه بما أقرّوا . فابصرهم حوله، الا انه ما شكّ فيهم، وكان يمرّ بهم عفواً مكتفياً بتحيتهم. واذا وجهوا اليه سؤالاً تصامّ عنهم، ومضى في الابتسام كأنه لم يفهم

وما رقد في ذلك النهار تحت سنديانة ضخمة الجذع، وسكن الى الاغفاءة، حتى التفوا عليه ونزعوا منه، بخفة، عقاله وكوفيته. فاذا به اسود الشعر . وهزّوا لحيته وشاربيه فتساقط شعرها بين ايديهم. وظهرت في الراعي دلائل الفتوّة. فنظر بعضهم الى بعض مدهوشين . ماذا يلوح لهم ؟

وتحرك الراعي الشيخ فركنوا الى الفرار، وقد رسخ في ضمائرهم انهم وقعوا على سر جلل . فمن هو هذا المتنكر بثياب الرعاة، المتظاهر بالشيخوخة ، اللاجىء الى مسعود العابد يحتمي به ؟... أيكون من هؤلاء الجواسيس، النافرين من السفن الحربية الى البر، للوقوف على اخبار الجيش العثماني، وعلى مدى اختمار الثورة في رؤوس اللبنانيين ؟

وتكاثر يومذاك هؤلاء الجواسيس، تقذف بهم بوارج الحلفاء الى الشواطىء، فيرتادونها على طمأنينة. ويتسربون في البلاد يجوبونها، ويتسقطون انباءها، ثم ينزحون عنها بامان. ولم يكن من شكّ

في انهم يتعرضون للمتالف في المغامرة ، الا ان المجازفة طابت لهم، وقد سلموا من نكالها، وهم الموقنون ان الدولة العثمانية لا تجيد الحرص على نفسها، وصون تخومها . عدا انهم في بلد لا يسعى بهم وهو الكاره للعثمانيين. واذا ما اصطادهم ذو يقظة، ملأوا جيبه مالاً، فتعمى عنهم عينه. وليس ثمة من لا يصبو الى الدينار بقلبه وعقله، ويؤثره على امانته لرجال استانبول

واستفاق الطبيب ناضر عون من رقدته، ووضح له ما حلّ به فهالته الفضيحة . انكشف امره . وجالت عيناه في ما حوله فما ابصر احداً. وعراه الخوف . من اطلع على سره؟... هل له ان يبيت الليلة في صنين بامان ؟

وعجّل في لملمة نفسه. وعاد قبل الموعد بالخرفان الى الصيرة، وهو في بحران جموح، استدارت به عيناه وجمدتا، كأن الحياة خبت فيهما . وتاه خاطره فضاع عن وجهه، كأنه في بيداء ضلول ترصده فيها الهلكة . ولم تكن راجحة قد تهادت الى لقائه في العين، وما ازف ايابه. وراعها مرآه وهو يبدو لها، واقلقها اصفراره فدنت منه تقول بخشية : ماذا ، ماذا ؟

قال يتعتع في بيانه: من صعد الى المشارف ورفع عقالي عن رأسي ، وانتزع لحيتي ، أأنت ام ابوك ؟

فاجابت وقد كادت مقلتاها تثبان من وقبيهما هولاً : لا أنا

ولا ابي . فهل من نفذ الى خفاياك ؟... من الوقح ؟

فابان وهو يختلج رهبة : اقامتي بينكما اضحت خطرة علينا جميعاً : عليّ ان ارحل، والا وقعنا في شرّ ورطة !

فهتفت وفؤادها يميد ذعراً : ترحل الى اين؟... هذا مأواك وليس لك ان تبرحه !

– ولكنهم في اثري يا راجحة. لقد دروا بي. دعيني انصرف !

فبكت وقالت، وقد فاضت فيها ميولها اليه : أتنصرف عني وقد امتلكني لطفك ، وطيب مخبرك ؟

فرضيت بالخطر يساورها على ان يبقى الطبيب الشاب . هذا المجاهد الاروع ، الراضي بالمحن تنتابه في الذود عن كرامة بلده. ولم يكن يرقب النطاسي الباذل من نفسه هذه الصراحة تجبهه بها راجحة، مع يقينه ان حبها له بات امراً مقضياً. ولكن في الخفاء، بينها وبين نفسها. وما فتئت الشفتان تحاذران البوح بالمضمر. وجمد الطبيب ناضر عون حيال ما يسقط اليه. وومضت عيناه بالشغف المحرق وما استطاع نطقاً. لم يكن يرتاب بكون راجحة تهواه ، وحدبها عليه دله على حنينها . فالترحيب به في المنزل ، وشراء القطيع كي يرعاه، وحبس الطيبات عليه، ولقاؤه الى العين بالفاكهة، والجلوس اليه باستنامة الوله، والعمل برغبته، جنحت به كلها الى الايمان برسوخ جذور الهوى اليافع في قلب راجحة الحميّ

والطبيب احبها واتقى الافضاء اليها بانه علقها . وبوسعه ان يحبها دون ان يخدش فيها نصاعة المهجة، وما يزال بعيداً عن النساء، وقد صرفته السياسة حتى عن نفسه. اما الآن فقد هاج فيه الفتون. ولما خرج عن شدهه جمجمت شفتاه : أتحبينني يا راجحة كي تهبي نفسك للمكاره في سبيلي ؟... لا ارى هذه المغـامرة تضطرم في سوى مهج العاشقين . فالهائم ينكر روحه في انقاذ من اوثقه به الشغف الاثير !

فنبرت ومـا زالت تبكي : وماذا ترى مني ؟... ألا تدلك نظراتي وحركاتي على كوني اهواك ؟... اذا لم اجهر حتى الساعة بما في نفسي، فلقد اوضحت عيناي الجمّ من اشواقي. وانك للفطين، فلا تحتاج الى ما يعدو الومضة !

فزفر وقال : ما كنت اشتهي ان يأتلف قلبانا يا راجحة، وانا على ما تعلمين من الضعضعة . ولكن الحب لا يبالي المعاذير ولا المحاذير يا صديقتي . انا مثلك في الكلف والولوع !

وتعانقا عفواً كأن بعضهما مجذوب الى بعض. وطال العناق لا يخشيان فيه المفاجأة. وهتفت راجحة بالتياع، وقد انفصل الرأسان المتحدان : إبق . إبق !

فاجاب ولم يكن دونها التياعاً: أأبقى حتى على رهافة الخطر؟ فاعلنت بحدة تجتهد بها في صون قلبها من الالم، وحبها من

الذبول : ساخفيك في بطن الارض. ابي يعرف في صنين مغاور لا تسمو اليها عين . فتعال اليه وهو يدرأ عنا الجائحة !

واندفعت به الى ابيها . ومسعود العابد في بستان الخوخ والتفاح، ينقب الارض، ويرجو في الصيف المطلّ غلة وافرة الريع. وابصر ابنته والطبيب الراعي يتهاديان اليه فهشّ لهما . الا ان اساريرهما اللهاف خرجت به عن الطلاقة . فتولاه الجزع وصاح باضطراب مستوضحاً : ماذا تحملان اليّ من الدواهي ؟... اني لالمح في طلعتكما ما لا يجهر بالارتياح !

فنبرت راجحة : حلت بنا الفضيحة . هناك من استجلى خفايا الطبيب ناضر عون، فبات معروفاً بكونه هارباً من غضبة الدولة!

فتلعثم مسعود واستفهم برهبة : ماذا ؟... ماذا ؟

فاعلنت وهي تكاد تسقط الى الارض وهلة : استيقظ الطبيب ناضر من قيلولته، في القمة، ولحيته وشارباه وعقاله وكوفيته مطروحة بجانبه. هناك من اطلع على سره وسيسعى به . كيف السبيل الى اتقاء الضربة ؟

فوضح في الاب الهلع، وانتشر في وجهه الذهول الابله. اي سبيل تبحث عنها راجحة للنجاة وما يبدو له بارق واعد ؟... قال الطبيب ناضر عون، يخفف عن الوالد المرتاع، عبء النازلة : فكرت في الرحيل يا صديقي، فابته عليّ ابنتك . فماذا ترى ؟

فلم يكن مسعود يرى شيئاً سوى عنف الكارثة. قالت راجحة تخرج به عن سهوه وغصته: دعوته الى البقاء بيننا يا ابي، وعاهدته على التفاتك اليه. أفما لك ان تدرأ عنه الملمة بحسن تدبيرك؟

واشارت الى الاعالي وهي تقول: أليس لديك في هذه الشوامخ ملجأ آمن يستقر به؟

فاطرق مسعود، وكأنه فطن الى مأوى حصين فقال: إلحق بي يا ناضر. اعتقد اني اهتديت الى المشتهى!

٣

في مساء ذلك النهار، ماج القوم في بسكنتا الملتحفة بخمائلها الخضال، البادية للعين بساطاً اخضر لا تبلى له نضارة، كأنها مثوى الربيع الغرير. وتداولوا فيما بينهم امر جاسوس، من جواسيس الحلفاء، فزع الى حماهم. ولقد حدثهم عنه الرعاة قائلين: نحن ابصرناه باعيننا. كان راقداً تحت احدى اشجار السنديان، وملتفاً بعباءة. واخفت الكوفية رأسه يعصبها العقال. وجلّلت وجهه لحية بيضاء يعلوها شاربان ابيضان. وعهد اليه مسعود العابد في رعاية قطيعه. الا ان مظهر الرجل لم يكن يدل على كونه من الرعاة. وسألناه عن اسمه، وعن بلده، فما اجاب. وتحامانا لا يركن الى سوى مسعود العابد، وابنته راجحة. ولا بد للفتاة من

المسير في كل مساء الى لقائه في العين، حاملة اليه اشهى الفاكهة. وكان يجيئها باضاميم من ازهار الجبل تتناولها منه بفائق المسرة. ولما رغبنا الى مسعود جلاء حالة صاحبه، قال لنا فيه انه من ابناء الصحراء النازحين عن ربوعهم، وقد نبت بهم. وهو مما لم ينزل منا منازل الثقة، فانكرناه وعمدنا الى الفحص عن الراهن بانفسنا!

واوضح الرعاة ما اقدموا عليه من مفاجأة. واذا الراعي الشيخ يتكشف لهم عن شاب من ابناء الحضر. وتحرك فخافوا منه على انفسهم. وولوا الادبار وهبطوا البلدة يقصون عليها ما لاح لهم في مشارفها. وانهم لموقنون انهم حيال جاسوس من جواسيس الحلفاء، يكرم وفادته مسعود العابد، ويخفيه حرصاً عليه.

وراجت الاشاعات على مختلف وجوهها. وقال جميع من في ساحة البلدة: لو لم يكن مسعود يلقى الفائدة لرفض المجازفة. فلا شك في كونه يغرف من خزائن الحلفاء المال بالحفنات!

وقال عشاق المزاح: الخيّال الانكليزي يغري. فاذا هام به مسعود العابد، فلا عجب، وقد استهوى قبله الملوك!

وتحدثوا عن ثورة الشريف حسين، امير مكة، وملك الحجاز في ما بعد. ووقع اللغط في مسامع رجال الدرك، المتوفرين على حفظ الامن في بسكنتنا. ورجال الدرك، مع كونهم من اللبنانيين الاقحاح، فاقوا العثمانيين في تعصبهم للدولة العلية العثمانية. فما

دروا بان ثمة، في اعالي بسكنتا، جاسوساً من جواسيس الحلفاء، حتى ركبوا اليه عنجهيتهم وقد تدججوا بالسلاح، كأنهم سائرون الى مقاتلة جيش .

واعتزموا تطيير الاخبار الى قيادة الدرك في بعبدا، والى جميع المخافر، كي تقيم على حذر، طامعين في المكافأة. فالزلزال سيجتاح الارض، فليحترس البشر. وبلغوا منزل مسعود العابد، فدخلوه والشر يخندق في وجوههم، قائلين : اين الراعي الشيخ يا مسعود؟

فملك والد راجحة نفسه حيال الوجوه العابسة، والبندقيات المتوعدة ، والحراب المتدلية الى الافخاذ تعربد حتى في صمتها . على ان مسعوداً العابد رحب ، وهشّ، وبشّ. ودعا الحانقين ، المتطايرين اليه شرراً أكولاً، الى دخول المنزل، والجلوس في الصدر. سيطلعهم على الجليّ. ونادى ابنته يقول لها: اين اللفائف وفناجين القهوة لسادتنا الافندية يا راجحة ؟

وليس يجهل ما لهذا المظهر، من الاكرام، من اثر في تخفيف النقمة . فيتلاشى الغيظ ، وتسكن الظنة. ورأى رجال الدرك ألا يجيبوه الى الدعوة الخفية، وظلوا وقوفاً. فامسك بايديهم وساقهم الى المقاعد، طالباً اليهم الاستراحة. فمن الراهن انهم تعبوا وهم يتوقلون اليه. واخجلهم ايناسه فاطاعوا، واستقروا بالمقاعد. ولكن دون ان تجول في ملامحهم القاسية رعشة من بسمة. وشددوا في

معرفة الراعي الجاسوس. فقال مسعود العابد، دون ان يتراءى فيه نزرٌ من خداع : لعنة الله عليه ، لا ادري ما اصابه . بحثت عنه ولم اعرف له مقراً. عاد بالخرفان الى الحظيرة واحتجب. هل لكم ان ترشدوني الى مقره ؟... ليس من عادته ان يختفي!

فصرخوا به: لا تخدعنا . ان لم ترشدنا اليه دفعناك مكانه الى السجن. وربما الى الموت. ليس الرجل غير جاسوس من جواسيس الحلفاء، لجأ اليك فصنته !

فضحك مسعود العابد وقال : ذهب بكم الوهم بعيداً . أيخيل اليكم اني ابيح لاعداء الدولة، حرسها الله ، ان يتسللوا الى منزلي؟.. نحن نكرم في لبنان اثنين، لا ثالث لهما، الله ومولانا السلطان . بادشاهم جوق باشا !

وهتف باللغة التركية لرب الامر في استانبول ، محمد رشاد الخامس، بما معناه : «عاش مولانا طويلا ! » . ولكن الجنود لم يؤخذوا بالممالأة، فصاحوا به : لا تحاول مخادعتنا . انت فتحت ابواب منزلك لجاسوس من جواسيس الاعداء . فاين هو، والا كبلناك بالقيود، وسقناك الى الديوان العرفي في عاليه بتهمة الخيانة !

والديوان العرفي في عاليه لا يخيف مسعوداً العابد وحده، بل جميع من في لبنان، والداخل اليه مفقود. فما ارتفعت الاعواد، لصلب من رأت فيهم الدولة العثمانية زمرة من الخائنين ، بسوى

مشيئة هذا المجلس المستحلّ الموت، كأن الروح لديه عود ثقاب .
ولكن مسعوداً العابد تماسك حيال التهديد. وقال وهو يبتسم محواً للجهامة السائدة : أتدفعونني الى المجلس العرفي لأجل شريد، طريد، لا اعرف له اصلاً من فصل ؟ ... ألا خففوا عنكم . ليس الراعي الشيخ من سوى ابناء البادية . نشبت بينه وبين قومه عداوة، فهجر الصحراء وأوى الينا. فاقمناه يرعى خرافنا . وبحثنا عنه الليلة كي نحمل اليه عشاءه، فلم نبصره . ويدهشنا ان تسمعونا انه من جواسيس الحلفاء. وما للجواسيس ان يكونوا رعاة في هذه الشواهق الخالية من الانس !

فقال كبيرهم، وهو الرقيب شكيب افندي، وقد ابقى في وجهه داء الجدري بليغ الاثر، وانتصب شارباه كأنهما قرنان نطّاحان: لا تحاول تضليلنا . ليس لابن البادية ان يتنكر . ذاك الراعي المقيم لديك تظاهر بالشيخوخة وهو في غلواء الشباب !

فانكر ان يكون على بيّنة من هذا التخفي، وهتف : والله، هذا ما لم اتبينه فيه. كل ما عرفت عنه انه مسكين . من اولئك الفاحصين عن لقمتهم يكافحون بها الجوع. ولم اسمعه، مع طول اقامته عندي ، يتذمر. ولا تجلى لي انه من الاشرار . وجلّ ما استطعت الالمام به، من متعدد احاديثه، ان اخوانه طردوه، وان ثمة خلافاً بينه وبينهم نشب لأجل امرأة . واذا صدق ظني

فهو ممن تجنى عليهم الربع . حاول احد ارباب الجاه، في القبيلة، ان يسلبه زوجته ، فبطش به وركن الى الفرار !

فاعلن الرقيب ساخراً محتدماً : هذه اكذوبة تعللنا بها . اين الرجل ؟

فابان مسعود العابد ، وما زال مسيطراً على نهيته ، ورحابة صدره : لست اخفيه في قميصي، ولا في بيتي . وها هوذا البيت. فاهتدوا فيه الى ضالتكم. انفذوا الى اعماقه، واقلبوا كل ما فيه، رأساً على عقب ، فاذا بدا لكم الرجل فاقتلوني !

فشهر عليه الرقيب المجدور ، المنتصب الشاربين ، بندقيته يحاول ان يصرعه بها . وجندي واحد يهزّ في ذلك الحين بلدة على بكرة ابيها . فهتف به مسعود العابد يدعوه الى التأني : على رسلك . ليس لك ان تحكم عليّ حكمك القاطع، وانت لا تملك من الادلة ما يشهد عليّ باني خرقت حرمة الولاء لرب الدولة، مولانا السلطان، نصره الله !

فصرخ الرقيب بشدة وامتهان من لا تأخذه الاقوال السماح المستفيضة في شفتي مسعود العابد : اراك تعلمت المحاماة، وانت لم تخرج في علمك العالي عن حراثة الحقل ، وجمع الزبل . فتكرم بالسكوت واحذر ان تعترض ، والا حطمت رأسك ! وتأجج فيه الغضب كالملسوع. فاحمرّ وجهه. وظهرت اسنانه

السمر، العوج، توحي بتكشيرة الذئب. وبسكتنا تعرف من امر شكيب افندي كل دلال. فهو صاخب ابداً، كأنه في ازمة مستمرة من نزق. فلا يرضى، ولا يسكن، وليس لكبير حرمة لديه. وضحك منه القوم غير مهاودين. ولكن في سرهم. وما يخفى عليهم ان كلمة واحدة منه تسوقهم الى اعماق القبور. يكفي ان يقول فيهم انهم يكيدون للدولة العثمانية الجليلة، نصرتها السماء. فنظر اليه مسعود العابد نظرة المغلوب على امره، وقال: لا تظلمني يا شكيب افندي. انا من المخلصين لامنا الدولة العثمانية، كتب الله لها الظفر باعدائها الاوغاد!

فزمجر، كأنه راكب العرش: مرحباً اخلاص. ان هو الا كلمة تمضغها اشداقكم. كلكم بات في هذه الايام مخلصاً للدولة العثمانية، والسوط والسيف يعصفان بكم. ولكنكم عثمانيون بالقول، لا بالعمل. فمتى كان هذا الجبل يدين بدين العثمانيين؟

وصرف باسنانه، وندي جبينه، وتفتح منخراه. فتجرأ مسعود العابد على القول: يا ليلة الشؤم، يا شكيب افندي، ألست لبنانياً؟

فهتف به، وهو يغلي، وعلى شفتيه هالة من زبد: انا عثماني من بطن امي. وافاخر بكوني خادم مولانا السلطان. فلا تماحك بغلاظة في ما يبعد بنا عما جئنا لاجله. أما دعوتك الى سدّ فمك؟...

اسكت . أزعجت مسامعنا بالنعيق !

وضربه بعقب البندقية على أم رأسه . فسال الدم على الجبين والوجه، وما تحرك مسعود العابد، ولا صرخ صرخة الألم ، بل سدد الى الرقيب، المنقوش الوجه بالجدري الاكول، نظرة ناقمة . وقال بهدوء العاجز الموتور : أإلى هذا الحد وصل بنا حب بعضنا بعضاً يا شكيب افندي ؟

فجلجل الرقيب الغضبان : دعوتك الى السكوت، فاسكت، والا لقيت اختها !

على ان مسعوداً العابد، اذا سكت، فما سكتت راجحة . ولقد صاحت بالرقيب الشرس التيّاه : ما ذنبه كي تضربه بعقب البندقية وقد كدت تقتله ؟... هل قتل ، هل سرق ، هل عكر صفو الامن ؟... اين الرحمة في قلوبكم ؟... أهكذا توطدون النظام ؟

ونبح الكلب . غير ان راجحة فرضت عليه الجمود . وتأمل شكيب افندي ، راجحة العابد ، بعين ملأى بالسخر القارص . وقال بشراسته المطبوعة : لم يفعل شيئاً مما ذكرتِ . ولكنه فاقها جميعاً وقد خان الدولة . ونصيب الخائن الموت !

والتفت الى اثنين من جنوده قائلاً لهما بعنجهيته الفظة : اوثقاه . سندفعه الى بعبدا . ومنها يسلك طريقه الى المجلس العرفي في عاليه !

ولكن راجحة، لم تطق ان تبصر اباها مكبلاً بالحديد . فوقفت بينه وبين الجنديين وهي تصيح بقوّة : لن يلمسه احد باذى الا وقد تداعيت في الدفاع عنه . ليس للبريء ان يلقى الظلم . اذا كنتم ترتابون بالراعي الشيخ، فالحقوا به، وما يزال في جوار بسكنتا . مسعود العابد طاهر القلب والجبين !

وتجلت محاسنها وهي تذود عن ابيها بصادق العزم . والتفت اليها شكيب افندي ،البشع الصورة ، اللئيم الروح ، المنتصب كالعصا لفرط هزاله، وقد امتصه الحقد ، وايبسه الجفاء ، فشاقته روعتها وحماستها. ودنا منها يقول ببشاشة المشتهوي، مع كونه لا يبسم حتى لماتع البشرى : لا تحرجينا ، أبقاك الله . علينا ان نقوم بما يفرض صون الامن. والا فدلينا على الراعي المتخفي، اذا شئت انقاذ ابيك !

قالت وهي تلهث، وما زالت على عبوس: أيخيل اليك اننا نعرف مقره ولا نهديك الطريق ؟... لو علمنا انه من الجواسيس لسرنا به بانفسنا اليكم. فاي فائدة لنا من كتمان امره، وهو ليس قريباً لنا، ولا ممن يجودون علينا بمال ؟...لا ريب انه خدعنا، كما خدع الدولة، ان يكن من الجواسيس الانكاد !

وتكلمت بوفر من اقناع . ليس من مصلحة ابيها ان يرحب بجاسوس. ولن يخفى عليه ما يرقبه من ويل اذا فعل . ولكن

الرقيب المجدور ابى ان يقنع، فقال : هذا ما سوف يبسط ابوك في عاليه لرجال الديوان العرفي. ومن حقهم وحدهم ان ينعموا عليه بالبراءة ، او ان يدينوه !

فنبرت كأن الامر امرها : ابي لن يبرح هذا المكان لتهمة كاذبة !

ومنعت الجنديين من الاقتراب من مسعود العابد ابيها . فصرف شكيب افندي باسنانه ، وقد تطاير سخطاً، وزعق: ماذا ؟... أتعترضيننا ؟... وددت لو لم تكوني إمرأة !

ومشى اليها يقبض على ذراعها بعنف طاحن ، والغضبة تقطر من وجهه الكريه، المنقوش كالرحى. ودمدم عليها بقوله اللهبان، الملهوم: ليس لنا ان نحتمل دلالك . اذكري اننا من الجند، وان من حقنا ان نقبض عليك، وندفعك الى السجن، اذا مضيت في منعنا من القيام بمهمتنا . فاعقلي واحرصي على نفسك !

ومع فائر غيظه راقه الاستمتاع ببضاضتها، وابى ان يفلتها. ألا كم هي شهية ، هذه الروعاء النفور . وسعت للنجاة من قبضته الموجعة ، الجافية. فقال بصلف الاعتداد : لا تتعبي في الباطل . ليس لفيلق من الجند ان ينتزعك مني !

وعاد يأمر الجنديين بشدّ وثاق مسعود العابد. فاعولت راجحة. وسعت للانقضاض عليهما كي تمسك بهما عن تقييد ابيها . الا ان

الرقيب، الناعم بامساكها، ظل يشدّ بها اليه، كأنه الكلاّبة الشحيحة بفريستها. وهاج فيه الشوق، فتظاهر بالخوف من نجاتها منه، وطوّقها بيديه. وكم تعاظمت فيه النشوة وقد التصق صدره بصدر راجحة، واحسّ بنهدها الاعجر يبحث عن مكان ينفذ اليه في صدره، وما كان ليلتوي. فضاع الرقيب عن نفسه حيال الفتنة الطاغية، الرويّة، وجنح الى التملّي. بيد ان راجحة درت بما تحن اليه شهوته الاثيمة، فدفعته عنها بجميع قواها هاتفة به: نذل، نذل!

وتراءى له انها نخعته، واذلته حيال رجاله، فنهد الى الانتقام هاتفاً بمن معه: اوثقوا الاثنين معاً. ولننحدر بهما الى المخفر. وهناك سوف نرى!

وابتعد عن راجحة يتحامى الالتفات اليها، خجلاً واضطغاناً، وخيبته الصافعة تغلي في عروقه فتكويه. واطاع الجنود فضربوا الوثاق على الاب وابنته، ومسعود العابد يقول: مهلاً يا جماعة. انكم لتتجنون علينا. ليس لنا في هذه الصرود ان نحفل بالسياسة، وما نحن من اهلها. ريع شجرة من التفاح يساوي عندنا السياسة وأربابها، وكلنا يجهلها، وله عنها غنى. وان اكن في عرفكم مجرماً، فما ذنب ابنتي؟

فصرخ به شكيب افندي، وقد ضاق صدره بكل ما لقي من خذلان وصدام: اخرس، والا اذقتك حتفك!

وعاد يتوعده بعقب البندقية، ويهتف بالجنود : الى بسكنتا. اسرعوا !

وكان الليل قد انتشر ، الا ان الظلمة لم تدلهمّ . ومشى الرقيب المجدور في المؤخرة ، وعيناه على راجحة ، ويمناه في شاربيه المعقوفين تفتلهما . واندلع منه الهيام والغضب . فهو في صبوة الى هذه الحسناء الصلبة الشكيمة ، وفي حرد عليها ، وما عرف امرأة تملك حدتها القاطعة ، ولا نهدها الفجّ كأنه الحجر . وقد لاح لشكيب افندي كالاجّاصة قبل ان تنضج . واستفاقت في هذا المفتون بالحسن ، الخائب في الملتمس ، غريزة النهش الماتع . وايقن ان البغية لا تعصيه ، وله في الظفر بها متعدد الاساليب ، وكلها ناجع . فان تكن راجحة من الحديد ، فهو من الصلب . ولن تحتمل هذه اللبنة ، المتشامخة ، فلول المصادمة .

وبلغت القافلة المخفر ، وشكيب افندي لا يزال يفتل شاربيه ، ويعقفهما اشبه بالابطال الصناديد . ويقطب وجهه . كأن القدرة في طول الشاربين ، واستدارة اطرافهما ، والعبوس . وجلس في صدر المخفر ، كأنه عنترة بن شداد . ودعا الى استنطاق مسعود العابد باعصاب متوترة ، وبكلمات ناتئة ، جافية : اسمك ؟.. اسم امك ؟... عمرك ؟... حرفتك ؟

ولكن اولئك الواشين في بسكنتا بمسعود لم يلبثوا ان ندموا

على البادرة، ومالوا الى الاستشفاع له: عفوك عنه لاجلنا يا شكيب افندي ، اكراماً لنا . ليس للجواسيس ان يأووا الينا ولا لقمة لهم في هذه الربوع المقفرة . وماذا ترى في بسكنتنا غير خمائل ورياض وصرود جرد؟... فالبلدة غارقة في حدائقها وفي صخورها ، لا تفكر في سوى موارد رزقها. ومتى كان مسعود العابد يشتغل بالسياسة ، ويرحب بمحترفيها ، وهو فلاّح ابن فلاّح ، لا همّ له غير الفوز بجنى ربيح تهبه له الحقول ؟

ولكن الرقيب، الدميم الروح، مانع في السماح قائلا : دعوني اتوفر على انجاز مهمتي. فالامر افلت من يدي. واضحى حق النظر فيه من شأن الديوان العرفي. فلا تنقذوا مسعوداً العابد من قبضة العدالة لتطرحوني مكانه . واذا اغضيت عنه ، انطلق غداً منكم العشرات، ليسعوا بي لدى قائدي. ولست ممن يشتهون ان يثووا باعماق السجن، ولا ان يتدلوا على الاعواد !

والتفت بعين حمراء ، تذيع مأربه النهيم، الى راجحة، الواقفة في الزاوية ثائرة اللب ، مكدودة الضمير ، ترقب بجزع ما ستفضي اليه الحال. أتمثل واباها في عاليه، في الديوان العرفي ؟... ولكنه مثوى المنايا. وليس لمن يدخله ان يبرحه الى سوى المقصلة تستلّ منه خفقة الجنان. ففي منصاته، ذوو مخالب، وانياب مسنونة، للبضع والقضم . ورضيت راجحة لنفسها بالفناء لاجل من تهوى . اما

ابوها فاي اثم اجترح ؟... وتعبت بسكنتنا في الجنوح بالرقيب المجدور عن الاخذ بالجد، فلم تفلح. شكيب افندي ينتصر للنظام، ولمصلحة مولاه السلطان، عزّ نصره، ووطد عرشه. ونهك مسعوداً العابد بالاسئلة. وما زال مسعود ينكر كونه يعرف امر الراعي المتخفي. ومضى شكيب افندي يتهدد بالديوان العرفي، قائلاً : لا بأس عليك ان تنفي على مسمعي إلمامك بالحقائق. فاذا انا لم احسن انتزاعها منك، ففي الديوان العرفي من يملك الوسيلة الشافية من المواربة. وهناك السوط، والفلق، والحجرة السوداء الخانقة، والعطش ، والجوع !

واطلق ألفاظه بجائح الوعيد. ونوديت راجحة للكلام، فوقفت ازاء شكيب افندي وما تزال على سموها. فليس لها ان تهون ما دامت طاهرة العرض، مؤمنة بحق امتها بالحياة. وتكلم الرقيب، الغليظ الكبد، يسألها بخشونة عن اسمها وعمرها وحرفتها، وما تعلم من امر الراعي الفارّ. فنفت معرفتها به. قال شكيب افندي وقد كمن في عينيه الشر : كيف تجهلينه، وما برحت تسيرين في كل مساء الى لقائه على العين، وفي يدك اشهى الفاكهة ، فيحبو اليك وفي يمينه طاقة من الريحان ؟... فهل لمثلك ان تتبادل هذه اللطائف وراعي غنم؟... ولكنها هدايا جديرة بالعشاق، والعشاق الفتيان. اي انك كنت تعلمين ان الراعي ليس من الشيوخ، ولا

من الرعاة ، بل من الجواسيس السفلة ، الجاحدين ربهم وامتهم. الا ان خوفه منا قاده الى التخفي . فمن هو الرجل ؟

ورام سحقها، وهذا موعد الانتقام. فاجابت وفي بيانها جرأة، وفي وقفتها استعلاء : أليس للرحمة مجال الى القلوب في معتقدكم؟.. عرفت الرجل شيخاً بائساً ، فاشفقت عليه . وكيف ابيح له ان يكون راعي غنم، لو كنت اهواه ، وفي منزلنا في الاعالي متسع للايواء والاخفاء ؟

فقال بشدة، والجهامة تمعن في حفر الاخاديد في وجهه المشوّه: لا تسلكي التعاريج ،وليس لك ان تحجبي باصبعك جبل صنين الجبار. فالحقيقة ظاهرة مثله لكل عين . فما راعي الغنم ، غير جاسوس خائن . واذا كنت لا تشفقين على نفسك، فاشفقي على ابيك، ولا تعرّضيه للهلكة . فالديوان العرفي لا يملك نزراً من رأفة ، وفيه حطّابون لقطع الاعواد ، ونجّارون لصقلها ونصبها ، وجلادون لقصف الرقاب !

وقبض على معصمها بما يتأجج فيه من حنين، وما استطاع ان يخفت فيه نداء الصبابة ، وقد زاده الاخفاق رهافة . ولم تنزع راجحة الى الافلات من قبضته، وقد ادركت مبلغ اثره في تفريج الكربة . اجل ، عليها ان تشفق على ابيها . وفسحت للرقيب ، المشتاق، المجال الى بيان الطلبة . قالت : وانت ، هل تملك هذا

النزر من الرأفة ؟

فتجلى له، في عينيها، بارق من امل اختلجت له مهجته اغتباطاً. واعلن بشبه همس : الامر موقوف عليك !

وسدد اليها عينين من ضرم، جمعتا بين المسألة والانذار. فقالت راجحة: ان يكن لي، في اقرار الخلاص يد، فلا ممانعة عندي !

فاستنبأ مدهوشاً، كأنه لا يؤمن بما يعي: لا تمانعين في ماذا؟

– في كل ما تريدني عليه !

فتعاظم دهشه. واستفهم وهو لا يزال يرتاب بما يسمع، وليس لذاك الصدود القاطع ان يكون نفاخة تفقأها هينمة : أتذيعين صدقاً ؟... هل تكونين لي بملء مفاتنك ؟

فاجابت لا تحترس : بملء مفاتني، على مدى رغباتك جمعاء. وكل ما اطمع فيه، في مقابل هذه العطية، ان تنقذ ابي من السجن، وان توضح لرؤسائك انك لم تقع، عندنا، على ما يحفز الى الريبة. فالراعي من البدو. وما جاء بسكنتنا، متخفياً، لسوى النجاة من بطش اخوانه، وقد ارتكب فيهم نكراً !

فاعلن بمستطير الفرحة، وقد ماع كله، كأنه جراب ماء ثقبه مخرز : وهو ما سافعل. على ان تحرصي على عهدك !

فابانت بلا احجام، وقد مالت الى الفدية : كن واثقاً بي. وجلّ ما ادعوك الى الاخذ به، ان تفطن الى كوني عذراء !

فاوضح شكيب افندي، وهو يترنح طرباً وهياماً: وستظلين تلك العذراء . فلا عليك !

وابتسم لها . وفتل شاربيه انتفاخاً . بلغ المنشود ببضع كلمات تتكشف عن قسوة . وقال وهو يسيل بهجة : هاتي الآن قبلة . والآتي للآتي !

فتوردت وجنتاها خجلاً حتى كاد الدم ينبجس من عينيها ومنخريها وشفتيها . ولم يمتنع الرقيب ، الدميم ، المجدور ، من طبع فمه على مبسمها ، مع كل ما لاح له فيها من رعدة وهول . وقال ، وقد غلت فيه نشوته ، ويده تدغدغ النهد الاعجز : انت خابية من اصفى الخمرة . قطرة واحدة منها يسكر بها قبيل . ففي محياك طابع السماء . وفي نهديك قوة الاعتزاز ، كأن في صدرك عالماً من شموخ !

فعبست ، وودت لو تخسف بها الارض . ما حداها على احتمال هذه الطعنة ، في صميم طهارتها ، سوى ميلها الى انقاذ ابيها من خطر الديوان العرفي ، والى درء الويل عن الطبيب ناصر عون . فتنام قوات الامن عن مطاردته وتبيح له الطمأنينة . وهي اذا قبضت عليه دفعته تواً الى المشنقة

وتجلى لشكيب افندي ان امتداحه راجحة لم ينل اعجابها . فقال في نفسه : لا تزال حديثة العهد في الحرفة . وما ان تتعوّد حتى تتبدل . علينا ان ننتظر . اجتياز الطريق خطوة خطوة !

ووعد نفسه بها كلها . وخاطبها بقوله : ساخلي على الفور سبيل ابيك . على ان تذكري ما تعاهدنا عليه . والا عدنا الى الاحراج . فلا يزال لديّ واسع المدى للاتهام !

فتمتمت وعيناها في الارض : ستكون راضياً !

فكتب في المحضر : « اطلقنا مسعوداً العابد وابنته لكون ادلة التهمة غير موفورة ». وطوى الاوراق واخفاها في الدرج، لحين الحاجة. باتت راجحة له. وهي في عرفه تعادل السلطان، والعرش، والدولة العثمانية. فكل ذاك الاخلاص الفضفاض، لمولاه « البادشاه »، تبدد في لمحة، كدخان اللفافة . وما غاب عنه ان راجحة هانت عليه في جميع رغائبه. والتهمة الجائحة تكرهها على الاستسلام الاعمى. فلن تبيح للمشنقة ان تخطف انفاس ابيها، وبوسعها انقاذه من الموت ببعض البذل، وان تكن ستريق فيه ماء وجهها. قد تجازف بحياتها، وتؤثر التلاشي على الذل، ولكنها لن تخاطر بحياة والدها. فتعطي اغلى ما عندها، كيْ تستبقي من ازجاها الى النور

واقبل شكيب افندي على مسعود العابد يقول له بنبرة المزهوّ، الواهب الروح: لم يتضح لنا، حتى الساعة، مبلغ التهمة من الصواب، فاجمعنا على اخلاء سبيلك. على ان تجيئنا بكفيل يضمن مجيئك الينا كلما دعوناك. فسندقق في امرك حتى نتبين في الظنة وجه الواقع.

انصرف بسلام !

فتعجب والد راجحة من هذا الانتعاش ، بعد الذبول ، وقد كاد يمسي من ضيوف الآخرة . واستدارت عيناه . وشاع في اساريره وارف الحبور . أنجلى سبيله بعدما حسب نفسه يترجح على الاعواد ؟... وهتف للبشرى : أرأيت يا شكيب افندي اني بريء ؟... خرب الله بيت من وشى بي . الله ينصر السلطان ، وما كنا له غير موالين اوفياء !

فضحك شكيب افندي . مسكين هو السلطان ان يكن يعتمد على دعاء مسعود العابد ، وعلى وفاء الرقيب شكيب افندي نفسه . فلا ريب ان الاضمحلال نصيبه . وجهل والد راجحة الحافز الراهن الى استمتاعه بالحرية . فعليه ان يشكر لابنته افتداءها اياه ، وقد اعطته من روحها ، وانفتها ، دون ان يدري . وسأل عن راجحة : وابنتي ؟... أتبرح السجن معي ؟

فاوضح الرقيب بابتسامة طفحى ، تنضح بخفيّ المعاني ، بما ندّ عن الاب الحيران : انتما معاً بامان يا صاحبي . على اني سارتاد مقركما حيناً بعد حين ، كي استجلي الحقيقة . فلا تروّعكما المباغتة !

فنثر مسعود العابد كلمات الترحيب بصوت عريض ، مستطيل ، قائلاً بدفقة من مسرة : اهلاً وسهلاً ومرحباً بشكيب افندي ! وقبض على ذراع ابنته هاتفاً بمديد الارتياح : الحمد لله على

ظهور براءتنا يا راجحة . والشكر لشكيب افندي، وقد آمن بكوننا من اصفياء القلوب !

وانحنى حبال رئيس الدرك في بسكنتا، حتى كاد يغور بين قدميه . وبرح وابنته المخفر . وشخص له انه خدع الرقيب . والرقيب ما يزال يبتسم ابتسامة الظفر . ويتراءى له انه احتال على مسعود وسلبه ابنتـه . واستشارت راجحة ضميرها في ما ابرمت من عقد . ونهدت الى نقضه . ولكن انى لها الخلاص مما رفعت على كتفيها من اعباء؟ ... ان لم تحقق ملتمس الرقيب، فستعاد فصول التهديد، وتقود الى التنكيل الصاعق

واستوضح الاب، وقد امسى وابنته في منزله في بسكنتا، بين امرأته وجميع اولاده : ولكن كيف عاد فايقن اننا لا نخفي جاسوساً يا راجحة ، أتعلمين ؟ ... لا ارى في كل ما وقع غير حلم عاطل من الانسجام. ماذا طرأ على ذلك الرأس الصلد، من ادلة الاقتناع، ما اهاب به الى تبديل رأيه فينا ؟ ... لقد لمست الموت بيدي . وشعرت بحبل الاعواد يشدّ على عنقي. فكدت اختنق !

فقلبت شفتيها تتجاهل الواقع . غير ان من انعم في محياها النظر لمس فيها ممضّ التفكير . فهي تتألم . قال ابوها : أيروقك ان نعود الليلة الى صنين ؟

فاجابت، وهي تفكر في الطبيب ناضر عون: سنعود. ولكن

ليس وحدنا . فماذا على اخي نديم لو كان رفيقنا ؟

فصاح الجميع : سنتسلق كلنا القمة . فمن المحال ان نبقيكما، في موحش الخلاء ، وحدكما !

فقالت راجحة تصدّهم عن المغامرة ، وليسوا باضطرار اليها : لا حاجة اليكم باجمعكم . نديم وحده يكفي !

ونديم في الخامسة عشرة . على ان الناظر اليه يحسبه في الثامنة عشرة، لطول قامته، وعرض صدره. وما طرّ شارباه، ولا ظهر فيه اثر من آثار الرجولة الباكرة. وهو على اكرام لابيه، وولاء لاخته، وعلى مفرط الشبه بها . فاعلن بحماسة الفتيان الاشداء : سأكون رفيقكما . لنتسلق فوراً الهضبة !

وتغلغلوا في احشاء الليل شاخصين الى المنزل المنفرد، العالق بين السفح والقمة ، كالحائر المقر . ورافقهم الكلب الامين يشق امامهم الطريق دليلاً صادقاً، وحامياً وفياً. ولاح القمر من وراء تلة كنقطة فوق حرف. فبدد عنهم، بطلعته الانوس، عبء الوحشة والظلمة. ورأت راجحة، ان تفضي الى ابيها، بما يدر فيها من شكيب افندي، الطامع في خصب المواهة. ولكن ليس هنا ، فيما يصعدون الرابية . بل هناك، في المنزل الاعزل، الساكن الحشاشة. وتبين ابوها، من صمتها، كونها غير مطمئنة. فإن كابوساً من رصاص يجثم بصدرها ، وليست تضحك، ولا تطيل الحديث. مع ان من عادتها

الافاضة، وهي في ساعات جذلها . فاستطلعها الخافر الى جفافها، قائلاً : ولكن ما بك ؟... يخيل الى من يراك انك لا تزالين في السجن ؟

فاجابت عالياً : ليس بي شيء !

وهمست في اذنه : اني لافكر في ناضر، وفي شكيب، وارجو ان نكون نجونا !

ودخلوا المنزل الغائر في الاعالي الرهيبة وراجحة تسأل نفسها : هل رجع الى حجرته ليرقد فيها ؟... ألا يخشى البقاء وحيداً في مغاور صنين ؟... هناك الذئب، والضبع، فكيف يقاومهما ؟

وقلقت شديداً على الطبيب ناضر عون، وما اهتدت له في المنزل الى اثر . فاستوضحت اباها : ماذا ترى حلّ به ؟... أنبقيه وحده في الكهوف ؟

فحار الاب في ما يجيب . قالت جازعة : ألا تهاجمه الوحوش؟

فتعاظمت في الاب الحيرة . أيتوقل، في الليل البهيم، الى مخبأ الطبيب، ويعود به الى حجرته وسريره ؟... ولكن شكيب افندي قد يكون لهم بالمرصاد . واطلع ابنته على مـــا في نفسه . قالت راجحة : لا عليك من رقيب الدرك في بسكنتا . اني لقابضة على زمامه . كل ما علينا ان ننقذ ناضراً من فتكات الضواري !

فايدها في المشتهى . ولم يجد محيداً عن التلبية، معلناً : صدقتِ !

وهمّ باقتحام صدر الجبل. فقالت راجحة : ساكون رفيقتك. وعليّ ان أسرّ اليك بما لاغنية عن إلمامك به !

فهتف بها: بل إبقي هنا. ما يحملك على مكابدة مشقات الوعورة، وعلى من نترك نديماً ؟

فاجاب نديم : ساكون رفيقكما !

فابدى الاب: ولكن البرد قارس، ولا قبل لك بـه . فانتظرنا هنا !

ورضي بان ترافقه راجحة، لفرط اصرارها على اللحاق به. ثم عاد ورضي بمسير ابنه بجانبه، وليس له في المنزل المنفرد من يؤنسه. وصعدوا الهضبة الصلداء في البحث عن الطبيب، والكلب يسبقهم اليها. قالت راجحة في الطريق، وقد تقدمت اخاها، تمشي وراء ابيهـا : أيروقك ان تقف على ما دفع قائد مخفر بسكنتا الى الافراج عنا ؟

فابدى بنبرة الفضول المشتاق : وكيف لا اريد ؟

قالت لا تتحامى الابانة الفجّة : طمعه في ابنتك. وقد اضطررت الى مجاهرته باني راضية به !

فانفتل اليها شاهراً قبضة يده، وفي نيته ان يسحقها بها. وزمجر وقد امسك بخناقها : ماذا يا فاجرة ؟

فافلتت منه بقوة، وقالت بحزم : تابع طريقك. ستعلم كل

شيء . ليس لك ان تجيش قبل وقوفك على الخفايا !

فصاح بنزق : لاخطفنّ روحك !

فدفعته امامها تميل به الى الصمت، وقالت: اسمع. لا تقاطعني الا وقد انتهيت مما اريد معالنتك به . وعدت الرقيب المجدور بان اكون له ، وابحت له تقبيلي . وهذه القبلة هي ما انقذنا من السجن، ومن الديوان العرفي في عاليه ، لا ايمان شكيب افندي ببراءتنا. كما انها انقذت ناصر عون من الهلاك. والرقيب سيقبل الينا، لا ليتبين صدقنا في ما صارحناه به، بل ليجلس اليّ، ويلهو بمحاسني. وسينال رغبته، ولا ينالها . فدعني اتدبر الامر . ولا تخاشنه وانت تبصره يتردد الينا. بل اجتهد في الترحيب به. وسيقع على ما يرضيك !

فما درى كيف يحتمل ما تدعوه الى الصبر على مضضه وعاره. وتجلت له الدوافع الى اخلاء سبيله، وسبيل ابنته. فاستفهم وهو على غليان : ولكن كيف تقوين على النجاة من شره؟... نفسي تحدثني بالفتك به، بل لاسفكن دمك ودمه. ولتكن عاليه . وليكن الديوان العرفي . فما احلى المشنقة في صون الكرامة !

وامتدت اليها يداه تبحثان عن خناقها. فتراجعت عنه هاتفة بغيظ : لا تسترسل الى غضبك الا وقد سمعت كل ما ارغب في اعلانه. حاسن قائد المخفر، وعليّ تأديبه. تظاهر في حضرته بانك

تجهل كل ما نشرت عليك، وعندي الدواء الشافي !

فساءل نفسه كيف يقوى على التجاهل ، والاثم يُقترف في منزله ، على سمعه وبصره ؟... ونبر بمستطيل الحنق : لست اطيق!

فقالت راجحة تدعوه الى الاتكال على فطنتها، والى التخفيف من سخطه : عليك ألا تضيق بما يقع، والفوز لنا !

وهمست في اذنه قولاً رشيداً، فيه جرأة، وفيه دهاء، حداه على السكوت، ولكن وهو يرتاب بنجاح الخطة. ان راجحة لتحاول امراً لا تكتب لها فيه السلامة وقد حفّ به الخطر. وجنح مسعود العابد الى شائك التفكير . فهو في موقف حرج لا يدري بـه أتصان حياته، أم يصان شرفه ؟... على انه ودّ ان يسلم الشرف، ولتذهب الحياة . وليس فيها، وقد تنتن ، غير ذل وعذاب يمرّ بهما العيش ، وتخزى العين ، ويرتبك الضمير

ومضةٌ من أنفة تعادل عمراً طويلاً ملطخاً بالسفال

٤

تمايل خيالٌ في الظلام ففّ له شعر رأس مسعود العـابد، وابنه نديم ، وابنته راجحة . وعلا نباح الكلب يمزق سكون الليل . وقبضت يد مسعود بعنف على فأسه، وخشي على ولديه . فمن يكون هذا المقلق المتربص ، أوحشاً ام انساناً ؟... أشكيب

افندي، ام ناضر عون ؟

ووثب في اثره الكلب يملأ بنباحه صنين الرابض في قلب الدهر . واقترب مسعود العابد بخطو وئيد ، محترس . واذا الكلب يسكن، ويقفز قفزات الابتهاج، ويعود الى مسعود وولديه يتبصبص . فهتفت راجحة : هذا هو الطبيب ناضر. استأنس به الكلب فرجع الينا مستبشراً خيراً !

ونادت باعلى صوتها : سيدي الطبيب !

فلم يكن من الشبح الا ان مشى اليهم قائلاً بجسرة : أأنتم هنا ؟... ألا معذرة من النبل الاثم . رأيت ان انحدر اليكم كي ارى ما انتهيتم اليه. فاني لفي قلق شديد عليكم، وما نالكم مني غير الاذى !

فقال مسعود العابد وهو يبسم بسمة المرح: اوشكنا ان نبلغ اعماق المهواة ، الا ان القدرة انتشلتنا . ساقنا رئيس الدرك في بسكنتا الى المخفر . وكاد يدفعنا الى الديوان العرفي في عاليه، لولا لطف الله !

وتذكر والد راجحة ما كلفه الافراج عنه، فزالت عن شفتيه البسمة، واوشك ان يطلق الشتيمة . فما في البشر غير آثمين . وتكلمت راجحة فقالت: ولا نزال تحت الخطر. ابى رئيس الدرك، شكيب افندي، اخلاء سبيلنا، الا وقد فرض علينا الشروط القاسية.

فسيفاجئنا في عزلتنا ساعة يشاء ليرصد احوالنا !

فعبس الطبيب ناضر عون، وسأل بغيظ: هل توعدكما بالتجسس عليكما ؟

قالت : نعم . وهو يتهمنا بكوننـا فسحنا الينا لجاسوس من جواسيس الحلفاء. فالرعاة ابلغوه انهم رأوا فيك جاسوساً!

فما درى كيف يعتذر . قال : عفوكما عني. ما كنت ارغب لكما في الازعاج. على اني سارحل عن ضنين. فالارض واسعة. ويوجع روحي ان اكون مصدر اذى !

فاعلنت راجحة بشدة : بل ستبقى . ليس ما يمنع ان نجيء اليك في كهفك ، فنعيش معاً !

فاكبر فيها جلال الفداء. انها لتبذل في الترفيه عنه ما يعدو وسعها . وزفر مسعود العابد وقال : أيروقكِ ان نجرّه الى المشنقة ؟

فاجابت : لسنا افضل منه . فلا بأس ان نشاطره مصيره . اذا سلم سلمنا جميعاً ، والا كنا في البلية سواء !

فقال ناضر عون، وقد ازداد اعجاباً بسمو شمائلها: هذا سخاء غير جدير به مثلي يا راجحة !

قالت : ان لم نكرم فيك رجل العلم، فاننا لنكرم فتى الوطن!

ورأى مسعود العابد ان يعودوا جميعاً الى المنزل، وليس

البقاء في الاعالي محمود العاقبة . فقال الطبيب : ولكني لن ارجع اليكم ، واقامتي بينكم تكلفكم الروح !

فقال الثلاثة معاً : انزع ثوب الرعاة ولا علينا منك. سنقول عنك انك نسيبنا !

فاذعن بعد لأي. وخلع عنه عمامته وعباءته ولحيته وشاربيه وطرحها في الانجاد ، تتقاذفها الرياح الى المهاوي. وسار على مقربة من راجحة يمسك بها كلما اوشكت ان تكبو ، بل كلما تراءى له انها ستكبو ، وقد استلذ ملامستها . وهي نفسها راقها ان تحتك به ، وان تستند اليه

ولدى وصولهم الى المنزل، دخلت راجحة الحجرة الموقوفة على الطبيب ناضر تصلح سريره. ولحق بها ناضر . فشعرت، وقد اتسعت لهما الخلوة ، ان بها حاجة الى الكلام.ستجهر على مسمع الطبيب بكل ما اتفق لها . قالت : لم أشأ ان اتبسط في حضرة والدي في الابانة. اما، ونحن على انفراد، فساوضح لك ما وقع.ما كاد الرعاة يلمّون بسرك،حتى هبطوا بسكنتا يذيعون فيها ما شاهدوا فيك. ودرى شكيب افندي فحشد جنوده. وتسلق الينا المشاوف. وسألنا عنك فانكرنا وجودك بيننا. فقبض على ابي. وما سمعنا نعترض على ظلمه، حتى انقضّ ببندقيته على رأس والدي ففدغه. فاغلظت له القول . فدعا الى شدّ وثاق مسعود العابد . فابيت

عليه ان يتمادى في طغيانه. فدنا مني وقبض على معصمي. وتعاظمت فحته فالتصق بي. فصحت به: «نذل، نذل!». فابتعد عني وهو يدعو الى شد وثاقي

« وقادنا الجند الى المخفر. وايقنت، هناك، ان الهلاك اضحى امراً راهناً. وخفت عليك. فمن لك وقد ضحى بنا الديوان العرفي؟... من يحمل اليك الزاد، ويبثك العزاء، ويأسو جراحك، ويقيك التلف؟... وخفت على ابي، وليس له ان يذهب شهيد المروءة. ولاح لي في شكيب افندي، رئيس المخفر، انه لا يزال يرنو اليّ بعينيه الهائمتين، وانه يرقب رضاي كي يفرج عنا. ولم ابخل عليه بهذا الرضى، لاجلك، ولاجل ابي. فعاد يقبض على معصمي، فما سعيت للافلات منه. ودعاني الى موافقته على شهوته وهو منقذي. فقلت: «لك كل ما تروم، على ان تنقذ ابي!». فطوّق خصري وقبلني قبلة من نار ما تفتأ تحرق شفتيّ. وكلما تذكرتها اوشك ان اتقيأ، ويحمرّ وجهي. على اني تماسكت في احتمال الضيم كي اضمن نجاتك، ونجاة والدي. واطلقنا شكيب افندي ننعم بالحرية، على ان يتردد الينا للبحث عنك. على حين لا يبتغي الا التلذذ بي. فاذا شئت ان اكابد هذا الذل، فلن امانع في احتماله كي تسلم!

فصاح وقد هاله مايأذن به: وهل بلغت نذالة المجرم هذا الأمد؟

قالت: لا تلمه، وهو اشبه بسادته. انهم لقومٌ يلهون،

ويستعينون بمصالح الدولة على توفير لهوهم . وكل ما عليك ان توضح لي موقفك منه . أترضى عن هذا الرجس ؟

فهدر : لاقتلنّه يا راجحة !

قالت : ولكن دمه يذهب بنا . فما النفع من قتله وسنعدم ارواحنا ؟

فانتابته الحيرة واستفهم : اذن ما العمل ، ما العمل ؟

— العمل ان تقيني اذاه !

— وكيف يتسع لي الى منع الأذى ؟

فاجابت،وما بدا لها الامر على صعوبة : بما يفرض الحب على الحبيب.ان حجتي في الذود عنك لتسمن، اذ ذاك،وترجح . فلا يندد بي اهلي وقد ازجيتهم الى المكاره لاجل من لا تربطهم به صلة !

فاتسعت عيناه ذهولاً . أتريد منه ان يتزوجها ؟ ... ليس يعاند في هذا الزواج وهو يحبها . ولكنه اذا فعل رمى الاسرة بنكد امضى.فلا ينجو منهم احد من نقمة السلطة.قال: وما يكون منا وقد تزوجنا يا راجحة ،ألا ترين اننا سنغيب في حفرة الابد ؟

قالت : لا خوف علينا.سنتسلق كهوف صنين ونعيش فيها . واخي يحمل الينا زادنا . واذا دهمنا الويل نزل بنا معاً . فليس اشهى من المساواة في رحبة المودة !

فهتف، وما كان له ان يردّ لها رجاوة بعد كل ما نعم به من هباتها : لن يكون الامر الا كما تشتهين . اين ابوك يعقد لي عليك؟

ونادى بملء صوته : ايها السيد مسعود !

فاسرع الاب يقول : ماذا ؟... ماذا ؟

قال الطبيب ناضر عون : سأتزوج الليلة راجحة . فلا بد ان نختم الترح بالفرح . اين رجل الدين يجمع بيننا ؟

وابى الانتظار حتى الصباح . فقال مسعود العابد، وما زال فدغه يكويه ، وقد نشط للرغبة : ومن لنا يحمله الينا في الظلمة ؟... بوسعنا ان نصبر حتى فجر غد !

فقال نديم : انا ادعو رجل الدين !

وانطلق الى بسكنتا ورفيقه الكلب اليقظان . وطرق باب رجل الدين قائلا : انهض يا سيدي . فالامر يدعو الى العجلة . في اعالي بسكنتا من يناديك !

فلبى رجل الله، وليس له ان يزري بالضرورة القاهرة . وعقد للطبيب ناضر عون على راجحة العابد. وفي الصباح، كانت راجحة تدعو اخاها نديماً ، وتنشر في مسمعه، باستعطاف، حديثاً ارتبك له نديم . غير انه ما لبث ان قال : لا عليكما . احتجبا بسلام!

فغادرت راجحة منزل الروائس لتسلك وزوجها الطبيب معارج القمة، يلوذان بكهف خفيّ، حريز . ويمرّ بهما نديم وهو

يسوق القطيع، ويودع باب الكهف زادهما . ويجالسهما احياناً.
ويسرد لهما ما عنده من حكايات البلدة ، ومن اقاصيص شكيب
افندي . وينحدر واياهما في الخفاء الى المنزل ، المتبطن الهضبة،
فيقضيان فيه الليل، وشطراً من النهار، ونديم عين لهما على المباغتة .

وما نسي الرقيب شكيب افندي ان له ، في أعالي بسكنتا ،
مورداً ماتعاً . راجحة العابد تحبس عليه ايامها . وتسلق اليها
الآكام . وابصر اباها. فحياه مسعود، ورحب به: البيت بيتك
يا صديقي الاوفى . وهل لنا ان ننسى زكيّ المعروف ؟

والقوم في لبنان يدرجون على سنّة الكرم . فالضيف رب
المنزل . وشكيب افندي ابتسم بهناءة . اقبل ينهل من الينبوع
العذب . وجلس وسأل عن راجحة . فقال مسعود : هي بين
يديك !

ونادى ابنته : راجحة ، شكيب افندي عندنا . فتعالي للسلام
عليه . هو بشوق اليك !

فدرجت اليه وقد تعطرت ، وتبرجت . وفاح منها الطيب
وهي تبدو، فزاد في الالتفات الى حلاوتها .ومدت يدها الى الرقيب
تصافحه : أهلاً وسهلاً يا شكيب افندي !

وانصرف مسعود العابد لاعداد النارجيلة، وشكيب افندي
من مدمنيها . وسنحت النهزة للرقيب، فاشار الى راجحة ان اقتربي

مني . فلم تمتنع . وقبلها شكيب افندي في شفتيها، فردت له قبلته . وطوّق خصرها فالتصقت به . ودغدغ نهدها . فانتفضت وابتسمت بغنج ، اكثر منها باستحياء . فضمها اليه الرقيب المجدور وقال : أما تدرين اني أحبك ؟

ونعم بساعة بمراع من المتعة لا تزال على بعض البراءة . فما فتىء يذكر ان راجحة عذراء . وأعدّ له مسعود العابد خواناً حافلاً بالعرق اللبناني الصافي ، وبالافاويه . فشرب واكل . وأجال عينيه في راجحة وهو على مفرط الحبور . ووعد بان يعود . وكلما بدا في المنزل الاعزل لقي ابنة مسعود العابد البكر تحتفي به ، وتهب له شفتيها وجيدها . وما انفك يعجب بنهدها المتبرّ ، بالاجّاصة الزاخرة باللحم والدم المتشنّجين ، الصلبين . على انه طمع في التمادي . فلا عليه وقد ارتوى ، ونقع الغلة . شبع من تقبيل الشفتين ، والوجنتين ، والشعر ، والجيد ، وملامسة الصدر ، وبات يصبو الى ما هو اشهى

وكانت سنة ١٩١٨ قد انتصفت . واقبل الصيف . وقطفت بسكنتا بواكير العنب والتين . وراق شكيب افندي ان يكسر جرة العسل ، والا فلن يطيب له العيش . وابدى رغبته على مسمع من راجحة . قال : اجتزنا معظم المراحل . ولم يبق علينا غير مرحلة واحدة . فما يمنع من بلوغها ؟

فابتسمت وعيناها في الارض . قال : هل من مانع ؟

فاوضحت امرها : أتنشى اني عذراء ؟

فلم يحفل بالعذر . كل ما ينهد اليه ان يستمتع باللذة . فأخذت تماطله وهو يلج في الشهوة . قالت : أما تعاهدنا على العفو عن العذراء؟

فجلجل بعنجهيته التالدة : ألا مرحباً عذراء . ان لم تعملي برغبتي فلا يزال للديوان العرفي بليغ الأثر !

قالت مسترحمة : اتقِّ الله في العذارى يا شكيب افندي !

فتأفف وقبض على جيدها، ولواها بين يديه . ومال على نهدها يجسّه بقبضته القاسية . ولكن هذا النهد تزحزح عن مكانه ، كأنه من طين موّار . فارتاع شكيب افندي حيال المفاجأة . وشقّ القميص . فما ابصر هناك نهداً ، بل كتلة من قطن ، يعلوها نسيج خشن يمسك بها ، لئلا تترهل فتمحى . فانتاب الحبل الرقيب الامين لجلالة مولاه السلطان . وانفجر بصيحة الضغن : ماذا ارى؟... ماذا ؟ ... ألا تكون راجحة بين يديّ ؟

فاجابت الفتاة : ولكني راجحة !

فتعمق شكيب افندي في الاستجلاء . واذا به يعلم انه ليس حيال راجحة ، بل حيال شقيقها نديم . عشيقته ذكر لا انثى . فجنّ جنونه . أتخدعه ابنة مسعود العابد حتى منتهى الزراية؟... وعلت قهقهة بباب الحجرة . فما كان من شكيب افندي الا ان

شهر مسدسه، ورام ان يقتل المخاتل الشامت . ولكن يداً، اقوى من يده، قبضت في لمحة خاطفة على ذراعه، وانتزعت منه مسدسه وهزته بعنف . وارتفع صوت صارخ، رهيب، ماحق، يقول : ولى عهد الظلم ايها السافل. واطلّت على بيروت قوات الانقاذ. رحم الله سادتك العثمانيين !

وكان المتكلم الطبيب ناضر عون . وقد بدت وراءه راجحة، ذات الدهاء العريض . هي ناسجة الاحبولة . وقد حفزت اليها اباها واخاها نديماً . ونديم شبيهها . ، فاجادا التمثيل .

والاحتلال وقع حقاً . وخفقت في بيروت الراية العربية . وتضعضع العثمانيون . فصعق شكيب افندي، وفتح فماً مشدوهاً . قطيعة والف قطيعة ! ... ضلله طويلاً النهد الكذوب !

•

شريعة الغاب

١

يوم اعتلى يوسف مسعود الجارو في صهوة جواده ، في ساحة الباروك ، البلدة الشاهقة العالقة بالسحاب كأنها الجوزاء ، واخذ يطلق الرصاص يمنة ويسرة ، من بندقيته الالمانية البعيدة المرمى ، الصادقة الهدف ، لم يسمع بمن حوله نأمة تثنيه عن مشاكسته ، وغطرسته . فالكلمة له ، وهو الشاكي السلاح ، المستفيض النزق

واشاح عنه بنو قومه يتذمرون من صخبه وعربدته ، قائلين فيه : مجنون . اضاعت الخمرة صوابه ، فاقلق الآمنين ، ونطق بالخنى العربيد !

وتحاموا مصادمته . فابتعدوا عنه لئلا يكرههم على التحدي . اما هو فلم يسكت ، وما انقطع عن اطلاق الرصاص ، وقد استطالت الشتائم في شفتيه تستهين بالجميع . فالجريء من نازله . والبطل من قهره . واجال عينيه في من حوله ، فاذا الساحة تقفر ممن يصونون حميتهم من الضيم . وما بقي ثمة غير الاطفال ، والنساء ، وبعض الحكماء والمستضعفين

وخلا الجو ليوسف مسعود فاستأسد . وما عفّ عن كلمة جارحة الا اسقط بها للارض ومن عليها ، وللفلك وما يحوي .

وظل العقلاء يتقون الشر ، ويحـاذرون اكراه السفيه على الصمت . وهم يعرفونـه شرارة في يابس الحطب . فما ان يغضب – وما اكثر ما يغضب ! – حتى يضرمها حامية، فتلذع ، وتحرق، وتتكدس بها الاحقاد والنقمات، مداميك على مداميك

وفي الباروك ، البـلدة الصلبة ، العالية المناف من لبنـان ، المنتصبة على منكب جبال الشوف كأنها التمثال الاشمّ ، قوم أباة لا يرهبون الشدة يكتوون بها ، ولا يحتجبون عن الوقيعـة وقد توهجت لهبتها. الا انهم يتفادون من ان يثيروها فيما بينهم . فيحمل الاخ على اخيـه . وتتفكك حلقات الالفة بين ابناء العشيرة . وهو في شرعة الاخاء حرام

وليس فيهم من يجهل دوح يوسف مسعود الجاروفي ، وفيه بوادر من هوس. فلا يصفو ، ولا يتئد . كأنه في فوهة بركان. فان لم يتدفق بالسباب في اليوم الواحـد مئة مرة ، وان لم يتحكك باثنين او بثلاثة من النـاس ، فيشتمهم ، ويخاصمهم ، ويباطحهم ، ويشهر عليهم مسدسه ، فالحيـاة لا تتكشف له عن وجهها الانيس

وهيهات ان يبدو في ساحة القرية بلا سلاح . فان لم تكن بندقيته الى كتفه ، فلا يخلو عن وسطـه الخنجر والمسدس . وهو على طول قامة ، وسعة ألواح ، ومناعة اعصاب . اسمر .

عابس الوجه . اسود الشاربين . في الخامسة والعشرين . يمشي وكأنه القضاء . اشتغل في بدء عهده دركياً . وقلّ في ابناء القرى في لبنان من لم تحدثه يوماً نفسه بان يكون من رجال الامن ، وله ثمة مورد مأمون يقيه مغالبة الارض ، واستحلاب الصخر . بيد ان لواء الدرك نبذ يوسف مسعود لفرط ما عانى من حدته ، وصلافته . فما يستقر بمكان الا والصراخ يعلو ، كأن القيامة قامت !

وتعوّد اخوانه في الباروك خشونته وأشره ، فاجتنبوه . على ان سكوتهم عنه زاده بطراً ، فتنمّر . وما بدا في ذلك اليوم ، الرفيق المجسّ ، في ساحة القرية صاخباً ، متطاير الرصاص ، لامر يدعو الى الجفوة والحنق ، بل طلباً للمناكدة . وللمستاء ان ينطح الصخرة ، ويوهنها ... اذا استطاع !

وهذه الصخرة لقيت من ينطحها في ذلك اليوم المشؤوم . فلم يطق نجم سرحان ، احد اشياخ الباروك ، الناعمين بالمشيب الوقور ، ان تسقط الشتائم في اذنيه دراكاً ، وهو يتحرّز منها ، وينفر من قائليها . فالتفت الى يوسف مسعود يعالنه بجفاف : اعتقد ان هذا السفه بلغ مداه ، يا يوسف ، وقد حان لك ان تنتهي منه . فالقرية ليست مجبرة على الاصغاء الى بذاءتك . فدعنا من قذعك الشنيع !

فحدج يوسف مسعود مخاطبه بعين قاسية ، يتطاير شررها . وغاظه ان يفجأه نجم سرحان بالصدمة، وهو آخر من يرقب منه ان يتصدى له . وصرف باسنانه حتى كاد يبريها . وما درى بما يردّ به على شيخ يجلّه ، ويتجنب الاساءة اليه . على ان نجم سرحان احرجه ، وفرض عليه الجواب . فقال بنفرة : احفظ لسانك ، يا شيخ نجم . لست ارضى ان ينبري لي من يعزّ عليّ ان اخاشنه . فهل تنسى أي كرامة لك عندي ؟

ولكن نجم سرحان ما اكتفى ، بل قال : ان يكن لي عندك بعض الكرامة ، فصن القرية من عضات لسانك ، ومن رصاصاتك . فما كانت الباروك لمثلك مشاعاً !

فعاد يوسف مسعود يطحن اسنانه . ما كان يميل الى النيل من الشيخ نجم ، وله في بيت الرجل من يصبو اليها ، ولا يلين لسواها . فالغادة الناشئة ، في تلك الظلال ، حبيبة الى من لم يكن يستطيع ان يحب احداً سوى نفسه ، كأن الجميع ليسوا ذوي مكانة لديه . قال وهو يجهد جهده في زحزحة نجم سرحان عن احراجه اياه : دعني لشهوتي ، يا شيخ نجم . فما عهدت اليك الباروك في الدفاع عنها !

وادار له ظهره ، لا يبتغي ان يجبه بنكر . غير أن نجماً ، وقد احس بكونه انتصر على يوسف مسعود ، مضى في التنديد

به قائلا بامتهان: يجرع الواحد منكم كأساً من الخمر، فيتراءى له انه عنتر عبس، وان الكون يضيق به. فينتفش،ويحتقر من حوله، مع كونه ريشة في جناح مهيض!

فسمع يوسف. وجميع من في الساحة سمعوا. وشعر الجاروفي بان الاحتمال بات يجاوز الوسع. فالتفت الى نجم سرحان بعينين اطبقهما الغضب بعض اطباقة، ونبر بغيظ: انك لتفرض عليّ ما لا ارتضي لنفسي، يا شيخ نجم. هلا دخلت منزلك، وكفيتني شرك؟

وجاشت فيه النقمة. بيد ان نجماً، وله في مجال الغارات وثبات، لم يكن ممن يلويهم التهديد في البلدة المنتصبة كالعلم، في الباذخ من لبنان الاشمّ، فصاح: لتمتد يدك على مداها، يا يوسف، ولا تقل نجم سرحان قد شاخ!

وهو بيان من امتدت به السن، ونامت به الهمة بعد مضاء، فابى ان يقرّ لنفسه، ولا لمن حوله بالتواء العزم، ووهن الساعد. وقد يصارح نفسه، على مضض، بما يعروه. اما ان يذيع عياءه، في من عرفوه على عزة، وصدق وكد، فهو ما يتحرّز من اعلانه. والشيخوخة تغالي، مع عنائها، في دحض العناء، كأنها تنكر نفسها. وكبح يوسف جماحه. وظل يتصوّن عن ايلام والد صفيّة، صفيّته ذات السنى الدفاق، والخلق الوضاء،

مجاهداً في الابتعاد عنه . ولكن هذه الوقاية زادت في جرأة الشيخ الغضبان . كأن عهد الفتوّة استيقظ فيه وغلى به دمه . فنفر الى صدر الساحة يقول بشموخ ، عابثاً بدعوة حبيب ابنته الى التروي : قضيت عهد شبابي في مصاولة ذوي البأس ، ولا يضيرني ، وانا في مشيبي ، ان أجبه كل ذي اعتداد ، يا يوسف !

فزفر الجاروفي ، وقد تراءى له ان نجم سرحان يجرّه عفواً الى المخاصمة . وهتف من كبد تتململ : هلا غربت عني ، واكرمت شعرك الابيض ، يا نجم ؟

فضرب نجم سرحان بمداسه الارض ، وصرخ بنزوة الاعتداد : ان تكن رجلاً غالبت هذا الابيض الرأس ، يا ابن الجاروفي !

فلم يبق من سبيل الى الاشاحة عن الصدام . نجم سرحان يريدها على مستفيض الغليان . وارتدّ اليه يوسف مسعود صائحاً به : أما ادركت انك دون الكفاح ؟ ... ارجع الى بيتك . هذا الجفاء فيك ينبو عن موضعه !

فقبض نجم على لجام الفرس ، زاعقاً بسخط : لا يخيل اليك أن عمك دونك . هذه هي الساحة . فترجل ، ان تكن ذلك السمين الضلع !

فلبى يوسف مسعود والحنق فيه يفور . وركض من في الساحة من ابناء القرية يصيحون : حذار ان تؤذيه ، يا يوسف .

فهو بمقام ابيك !

ولكن نجماً اراد لنفسه الاذى ، وقد امسك بخناق يوسف مسعود ، ولطمه . فكان جواب اللطمة رصاصة نزلت من نجم سرحان جبينه . فما نبس حتى بأنّة ، وقد سقط فوراً الى الارض ، يتشحّط بدمه . وعلا الصراخ من كل جانب : قتله ، قتله !

وتصاعدت ولولة النساء . وماجت القرية هولاً . وملأ بنوها ساحتها هاتفين : اقبضوا عليه . اقبضوا عليه !

ومن يقبض على يوسف مسعود الجاروفي ، وهو الممسك ببندقيته الالمانية الثاقبة الصخر ، والمعتزّ بقوته وجسارته كأنه الفهد ؟ ... فامتطى جواده الوثاب واحتجب في لمحة كالومضة . وبحثت عنه القرية فلم تجده . وجلّ ما عرفت عنه انه دفع جواده الى نبع الباروك . ومن النبع لكزه يشقّ به الاعالي الوعرة ، الحافلة بالصخور الدكن ، اضراس القمم الابكار

وظلت الولولة تنتفض برعب وحقد . وما تماسكت صفيّة ، وهي تثب الى ابيها الصريع ، عن نبش شعرها وحلجه ، صارخة بملء حنجرتها : هل قتلك يوسف مسعود ؟ ... ليت تحطمت يمينه ،قبل ان تسدد اليك الرصاص .بل ليت استقر بقلبه رصاصه ، فمات وسلمت . على اني سأثأر لك منه . فلن اخلع حدادي

عليك الا وقد سقيت الارض دم الاثيم !

وانفجرت بالندب والنواح كافرة بهواها . وحمل ابناء القرية الجثة الى مسكنها المشرف على الساحة ، وهم يعلنون بامتهان : على من تجرأ يوسف مسعود ؟ ... هل من الفخر له ان يصرع شيخاً يكاد يطويه الضريح ؟

وصبّوا عليه لعناتهم.ما يعيش في سوى النوازل، كأن الهدوء يشقيه. ولد في جحر الافاعي ، وعاش بفحيحها، وسيموت بسمها، وقد جاوز في فحشه الامد

واجمعوا على مطاردته. فاذا وهنت دونه قوات الامن، فلهم من عزماتهم ما يقوون به على قهره ، مهما بلغ من الصلابة . ورجال الامن ظهروا في الساحة والنبأ يسقط اليهم . ولكنهم بدوا فيها للتعزية بالقتيل ، وليس للقاتل اثر في البلدة المعتصمة بالاطواد

ووقفت صفيّة في جماعات المعزين والباكين ، وهي لا تزال منبوشة الشعر، تصيح مخاطبة الجثمان الهامد: ابي ، لست ابنتك ان لم اقتله بيدي. سفك دمك فلا ترضَ عني ان لم اسفك دمه. شرعتنا دمٌ بدم !

واصغى اليها باعجاب جميع من ضمهم المأتم . وما كانوا ليجهلوا ان يوسف مسعود الجاروفي على كاف بها . بل هم لم

يجهلوا انها تؤيد هـذا الكلف ، وتستلطف من وقعت منه . ووقوفها الآن ، عند جثمان ابيها ، منادية بالاخذ بالثأر ، جنح بهم الى اليقين ان اكرام الاب يرجح الافتتان بالحبيب . وما ندّ عنهم ان صفية تجهر بالقول المحكم الذمـة ، وما تعوّدت الكلام الجزاف . وانى يصبو فؤادهـا الى من بطش بابيها ، وطرحها وحيدة ، على وحشة ويتم ؟

وتأففت الباروك باجمعها من المشاكس المجرم يوسف مسعود ، وما يُركن اليه في صداقة ، ولا يرجى منه وفاء . ونشطت في الفحص عنه والقبض عليه كي تطرحه في قبضة العدل . فيقتصّ منه النظام ، وما ينفك يعبث بجلاله ، ويثلم منعته . وانطلق رهط الى الاعالي في نصرة رجال الامن على القاتل . ولكن يوسف مسعود ضاعت آثاره ، كأنه شرارة اتقدت ثم اضمحلت . وقال ابناء بلدته : لقد فزع الى جبل الباروك العالي الذرى . وقـد يكون توارى في غابة الارز !

وجبل الباروك ما يفتأ يحرص على بقـايا من اشجار لبنان البواسق ، الصلاب . فردّ عنها التلاشي ، واحتضنها بعطف الشحيح ، كأنه يأبى ان يكون ذلك الاجرد المحض . وهو منها كالاصلع ، الضنين ببضع شعرات في مفرقه ، لا تحجب صلعتـه ، ولكنها دليله على عهد الفتوّة الممراع

وفي شجرات الارز، النامية في جبل الباروك، متسع للاحتجاب. فهناك غابة ظليلة، متشابكة الاغصان، تبيح للاجئين اليها التواري فيها عن الانظار، وتجود عليهم بالامن الرفيه. فلا عليهم من صدعات الزمن اذا ما توافر لهم، وهم فيها، المأكل والمشرب. على ان يحذروا الشتاء الهدّار، وللثلوجه من جبل الباروك مرتفع هنيء، يطول فيه القرار. فيبيت الجبل المبسوط المدى، المنيف الهامة، جناحاً ابيض، كأنه رمز النصاعة والجلال

وما اخطأ من قال في يوسف مسعود انه لجأ الى غابة الارز في الباروك، بعد فتكه بنجم سرحان. فهي خير عاصم له من مباغتات رجال الدرك. وثمة من المخابىء، في الطود المترامي الاطراف، ما لم تطرقه قدم. فاذا ما عمد يوسف مسعود الى استظلالها، حمته من المنطلقين في اثره للقبض عليه

وليس يحتاج في عزلته الموحشة الى سوى الزاد. فان يقع عليه، فالسلامة مكتوبة له. وما لمطارديه ان ينالوا منه مأربة. وله ان ينقلب الى سهل البقاع حين يدهمه الشتاء. فيضيع في الفسحات المتمادية البساط، بل الممتدة بساطاً تلو بساط، كأنها تستهين بالانصرام

ويوسف مسعود الجاروفي ابن هاتيك الارجاء. فما تخفى عليه مكامنها. وتراءت له فيها الدعة وهو يهفو اليها، بعد

اقدامه على البطش بوالد صفية . ولكن الشعور بالامان لم ينقذه من الندم النهّاش . فعلى اي جريرة اقدم بقضائه علـــى نجم سرحان؟...أما كان عليه ان يصبر على دلال ابن خمس وستين، يحسب قولته منزلة ؟... ولن يعيّره بنو قومه الالتواء ، وهو يبدي الجلد حيال ما جبهه به الشيخ نجم من غضبة وشموخ . فلن يقال فيه، وقد سكت، انه انهزم. بل يقال انه انحنى لجلال المشيب، واكرم الشيخوخة المنحدرة الى بؤرة الفناء

وأحس ، فيما يدفع جواده الى صميم غابة الارز ، بانه خرج عن صعيد الهدى . فما كان لرصاصه ان ينفجر مع انقضاض نجم سرحان عليه باللطمة . ولكن هذه اللطمة طمست فيه النهية ، فضاع عن امره . وهل له ان ينـام عمن يلطمه ، وهو يجد في نفسه من الانفة ، ما لا يحتمل عبسة ؟... جميع من في الباروك وجوارها يهابونه . ومن لا يتهيّبه اتقـاه . فكيف يجيز لنجم سرحان ان يهينه بتلك الخشونة الخاطمة ؟... له ان يكون والد صفية ، وان يكون شيخاً في الخامسة والستين، وان يتقد بالحمية، فما لهذه المزايا كلها ان تطلق يده ، في اللطمة ، يخضب بها وجه يوسف مسعود ، المتطاير شرراً لطنين ذبابة يقلق مسمعه

وعذر يوسف نفسه وعتب عليها .نجم سرحان احرجه، واكرهه على اقتراف الاثم . فهو من هذه الناحية على خلو بال . على ان

ما يعذّبه ، كون الضحية والد من يهوى . فماذا تقول فيه صفية وقد ذهب بأبيها ، وأمال عزها ؟... أتظل على هيامها به ؟

وخشي ان تصدف عنه . بل ان هذا الصدوف واقع وليس عنه غناء . فما لفتاة ، مهما بلغ منها اسفاف الطبع ، ان ترضى عن قاتل ابيها ، والكره له يجري فيها على طفاح . وكيف تقبله زوجاً وهي تودّ لو تطويه انتقاماً ؟... وقطع منها يوسف مسعود كل امل . وداعاً عهد الهوى الذاوي !... سيعيش لنفسه . بل لنزقه . فيهدد ويقتل ، ويثير الرعب في الارواح ، ويتحدى رجال الأمن . فيهلك منهم من تسعفه فيه يمينه . ولهم أن يمحوه اذا تمكنوا منه . فالمغالبة تفرض الصراع

وما عقد يوسف مسعود الرجاء على الفوز ، وكلمة الختام القاطعة كلمة الجند. الا انه ازمع الدفاع عن نفسه. فلن يذهب بخساً . وأوجعه أن ينصرف عاجلاً عن دنياه ، وما كان فيها غير طيف شرود. على انه ممن يؤمنون بالقضاء والقدر، ويسترسل الى احكامهما . هذه هي ايامه وقد كتبت عليه منذ مولده. بل قبل ان يولد. فالكون، في عرفه ، قام على مساق متسلسل الصفحات، ومن المحال ان يخرج عن النظام المقدور

وطال تفكيره في صفيّة . وتاق الى الوقوف على رأيها فيه. فماذا ترى في ما بدر منه ؟... من الراهن انها تلعنه . ولكن

هل يطيعها قلبها في اطلاق اللعنة ؟... ان المظاهر لتتحتم عليها رشقه بالمثالب ، وهو قاتل ابيها ، فهل يؤيدها جنانها في نفث الدعوات عليه، وهو حبيبها ، فيتفق اصغراها على هدمه ؟

ومال الى الايمان بانتصارها له . ستغفر له زلته وقد اقدم عليها في ساعة من ساعات الطيش . ثم لن يغيب عنها ان اباها احرجه ، وجنح به عن الصبر . وليس له ان يحتمل اللطمة وهو في الباروك من ارباب البأس والحمية . ولم يمت فيه الامل . وما للرجاء انطفاء حتى في فحمة اليأس

واستقر تحت شجرة من الارز اشبه بالصرح في علوها ، وانبساط اغصانها . ولم يترجل ، بل ألقى اذناً الى الوادي ليسمع ما يحمل اليه الصدى . أتطارده قوات الامن ؟ ... وسقط اليه وقع خطوات . هم في اثره وقد اخذوا يعتلون اليه الروائس . ولكنه سيضللهم . لن يقووا عليه وهو ادرى منهم بخفايا المكان

واجمع على بلوغ القمة . سيتسلق في الموقل الوعر اسمى ذروة ، ويشرف منها على القوة المندفعة الى امساكه . فاذا ما رمته بالنار، قابلها باطلاقات من بندقيته لن يسلم مطاردوه من شرها. وصعد به الجواد المعارج العالية الصخور، الصعبة المرتقى، حتى ليكاد يزلق عنها لفرط انحدارها . وخدش سمع الجارو في ازيز

الرصاص . رآه الجند فصبّوا عليه نيرانهم . ودفع جواده الى ما وراء صخرة شاهقة ، هاتفاً ببندقيته : عالجيهم بما يهوون !

وشعر الجند بان اليد الممدة اليهم النار مجرّبة، لا تنبو عنها الحنكة . فالرصاص يكاد يصطادهم واحداً ، واحداً ، لولا ما لاذوا به من المتاريس. واضطروا الى التقهقر حيال براعة يوسف مسعود في الاصابة . فعليهم ان يدرأوا عنهم الخطر ، وقد جرح بعضهم رشاش الصخور المتفتتة برصاص القاتل الفارّ

وما فتىء يوسف مسعود يهتف بهم : للبطل فيكم ان يكشف عن جبينه !

وهم يعرفونه، يوم كان مثلهم في الدرك ، يجيد اطلاق النار. فلا تطيش له رصاصة. وتواروا يسترون هزيمتهم ببضع اطلاقات، لئلا يقول فيهم انهم هربوا منه . ولم يجهل انه دحرهم . فضحك وقال : ما هم غير جماعة من المرتزقة . وليس للمرتزقة ثبات في موقعة، وهم طلاب لقمة ، يخافون على امعائهم ان تندلق اذا ما خاضوا غمار المنايا !

وعاد الى جواده يعتليه ويزجيه الى سامق القمم . ولولا مضاء الجواد ، الصلب الحافر ، لتدحرج مراراً الى المهاوي المتعددة في الجبل الرحيب . وبلغ يوسف مسعود رأس الطود وايقن بالسلامة . فأضحى الشوف عن يمينه ، والبقاع عن يساره ، وهو

منهما كحامل الميزان. ولاحت له السماء قريبة منه وقد تطاولت اليها قبضته، كأنه يروم الاعتصام بها من مطارديه. ولكن انى يقع على المآكل ؟... ويبحث عن الرعاة، وهم على وفرة في جبل الباروك. واهتدى منهم الى من لا يتورع عن البذل في ارضاء الجاروفي. وليس فيهم من يجهله. قالوا: نحن طوع يديك!

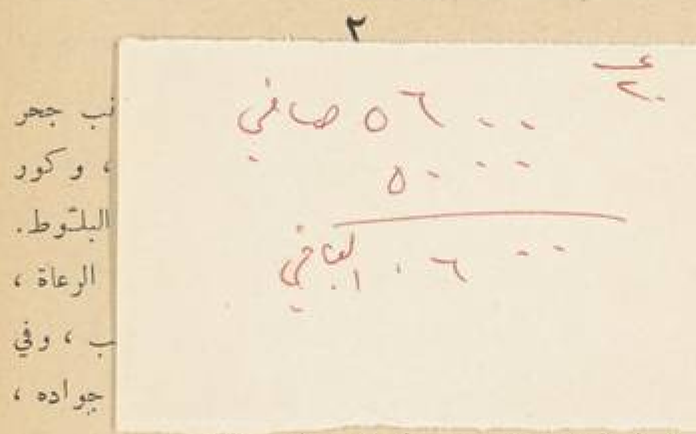
وما كذبوا في ما اعلنوا. فانهم ليعطونه منهم ما يشتهي، ويكتمون سره، ويرشدونه الى المخبأ الآمن، وكلهم على اعجاب بفتى الهمة والاقدام. ورأوا فيه سيدهم. وجلسوا اليه يصيخون الى احاديثه، ويكبرون جرأته، ويستخفون بمناوئيه، قائلين: كلنا بجانبك. لدينا السلاح والمال. فاذا شئت ان نكون من رجالك، فليس فينا من يتردد في ان يهب لك الروح، ونحن فداء امثالك الابطال!

ولهؤلاء الاشداء، حتى على هوس، فئة تنصرهم. وترى فيهم رمز القوة والشجاعة. وتميل الى تأييدهم في كل ما يجترئون عليه. وهم في عرفها عنوان البسالة. والبسالة صنم مرموق يسجد بين يديه حفل من الخاشعين. وارتاح الجاروفي الى ما وقع عليه في الرعاة من مواءمة. وما جاوز في ما التمس منهم ما يبيح لهم الوسع. فليحملوا اليه انباء بلدته الباروك، وليجيئوه بالطعام، وليستطلعوا له امر صفية. أتنقم شديداً عليه، ام

تكتفي بان تبكي اباها ، وقد غفرت لحبيبها ضلاله ، وكان في وقفته الآثمة على احراج ، اكرهه على الشذوذ ؟

والرعاة ما تنكبوا عن التلبية ، وهم يكبرون سطوته ، ويتغنون بمآثره . فرووا له ما شاهدوا في الباروك وما سمعوا . رجال الامن يرصدونه . وصفيّة تمضي في انتحابها . وابناء القرية يقولون فيه إنه مغوار ، وبعضهم لا يتحرجون عن الاعلان انه ... مجنون !

٢



ب جحر

، وكور

البلّوط .

الرعاة ،

ب ، وفي

جواده ،

ويجول في القمة ، وعيناه في المنحدرات والسفوح

وما خلع اسلحته ولا ثيابه . فينام والبندقية في كتفه ، والمسدس والخنجر في وسطه . وينهض وما يزال الخنجر والمسدس والبندقية في متناول يده . فهو ابداً على حذر .

منهما كحامل الميزان. ولاحت له السماء قريبة منه وقد تطاولت
اليها قبضته، كأنه يروم الاعتصام بها من مطارديه. ولكن انى
يقع على المأكل ؟... وبحث عن الرعاة، وهم على وفرة في جبل
الباروك . واهتدى منهم الى من لا يتورع عن البذل في ارضاء
الجاروفي . وليس فيهم من يجهله . قالوا : نحن طوع يديك !

وما كذبوا في ما اعلنوا . فانهم ليعطونه منهم ما يشتهي ،
ويكتمون سره، ويرشدونه الى المخبأ الآمن، وكلهم على اعجاب
بفتى الهمة والاقدام. ورأوا فيه سيدهم . وجلسوا اليه يصيخون
الى [illegible] :
كـ [illegible] من
ر [illegible] داء
ا [illegible]

[illegible] ى
فيـ [illegible] ون
علي [illegible] جد
بين يديه حفل من الخاشعين . وارتاح الجاروفي الى ما وقع عليه
في الرعاة من مواءمة . وما جاوز في ما التمس منهم ما يبيح
لهم الوسع . فليحملوا اليـه انباء بلدته الباروك ، وليجيئوه
بالطعام ، وليستطلعوا له امر صفية . أتنقم شديداً عليـه ، ام

تكتفي بان تبكي اباها ، وقد غفرت لحبيبها ضلاله ، وكان في وقفته الآثمة على احراج ، اكرهه على الشذوذ ؟

والرعاة ما تنكبوا عن التلبية ، وهم يكبرون سطوته ، ويتغنون بمآثره . فرووا له ما شاهدوا في الباروك وما سمعوا . رجال الامن يرصدونه . وصفيّة تمضي في انتحابها . وابناء القرية يقولون فيه إنه مغوار ، وبعضهم لا يتحرجون عن الاعلان انه ... مجنون !

٢

رقد يوسف مسعود في المغاور والكهوف ، بجانب جحر الافعى ، ووجار الذئب والثعلب ، وقرية النمل ، وكور الزنبور . وشرب لبن المعز ، واكل العصفور ، ومضغ البلّوط . ودخن اللفائف ، ورشف الخمرة ، وكان يجيئه بها الرعاة ، واستمتع باناشيد هؤلاء البارعين في نفخ مزمار القصب ، وفي الترنم باغاني المواليا والعتابى . وفي العصر يركب جواده ، ويجول في القمة ، وعيناه في المنحدرات والسفوح

وما خلع اسلحته ولا ثيابه . فينام والبندقية في كتفه ، والمسدس والخنجر في وسطه . وينهض وما يزال الخنجر والمسدس والبندقية في متناول يده . فهو ابداً على حذر .

وقال له الرعاة يوماً ان رجال الدرك قبضوا عليهم ، وهددوهم بالسجن ان لم يطلعوهم على اخباره ، ويرشدوهم اليه . فانكروا ان يكونوا ابصروه . فرماهم الجند بالشتائم الغلاظ ، وكادوا يثخنون فيهم ضرباً ، قائلين لهم بنقمة : ان لم تأتونا الليلة بالنبإ الجليّ ، منعنا عنكم المرعى ، وسقناكم الى معقل بيت الدين ، مكبلين بالقيود !

فقال يوسف مسعود ، وقد استشاط غضباً : أيكرهونكم على البوح باخباري ؟ ... ولكن ابلغوهم أني هنا بانتظارهم . فما بهم لا يكلفون انفسهم المجيء اليّ ؟

وسخر بهؤلاء المتوعدين من بعيد. فما يمسك بهم عن مصادمته في القمة ، والقبض عليه حياً او ميتاً ؟ ... انهم لابطال اذا فعلوا . قال الرعاة: وكلهم يتردد الى منزل نجم سرحان، ويتودد الى صفية ، ويعالنها بعزمه على جرّك اليها مخذولاً ، زريّاً !

فقهقه ضاحكاً ، وليس له الا ان يقهقه، وقال: ولكن ليأتوا ، ليأتوا . أأشخص اليهم في مخابئهم؟... متى كان الجبناء شجعاناً؟

على ان ما ساءه ، وقضى على قهقهته بالجمود ، جلوس الدركيين الى صفية ، وتوددهم اليها . أيخطر لاحدهم ان ينتزعها منه ؟ ... وازمع مخاطبتها في امره ، وما يزال منها على لاعج الكلف . فهلا صفحت عنه ، واباحت له العودة اليها ، فيعيش

واياها على مستطاب الانس ؟

ولكن من يحمل اليها رسالته ؟ ... لو ملك اليقين أنها تفسح له اليها ، لانحدر الى الباروك ، وانسلّ الى مأواها ملتمساً عفواً . بيد انه يخاف ، اذا ما اقدم على هذه القحة ، ان تستجير صفيّة منه . وقد يتكاثر عليه ابناء القرية ، فلا يفلت من ايديهم . واذا سلم منهم ، فلن ينجو الا وهو يخضب الارض بنجيع بعضهم ، وليس ينزع الى المضي في اختلاس الارواح

اذن من يكون رسوله الى الفتاة ؟ ... وتمثلها في عهد الرضى . قاوم الجميع رغبته في العقد له عليها ، فأخرست الجميع ، وما اجازت لهم الطعن عليه . فهو من تتوق اليه نفسها . وليس لمن تلتفت اليه ان تتناوله الالسن بغمز . قال ابوها : ولكن من اخترتِ ؟ ... هل وضح لك امر من تجنحين اليه ؟... ليس يحمل دغدغة . وما في لسانه كلمة طيبة الفوح . ولا ثروة لديه . ولا حرفة يتكسب بها . ولا مقام . فهل نبذت سائر طلابك كي تقفي نفسك على هذا الفلتان ؟

فاكتفت بان تجيب ناشطة في صبابتها : ما يشتهي سواه خاطري . قد يكون طائشاً ، اورعن ، الا اني ساروّضه ، واقيم منه ذا لين ومكانة . فالمرأة تذلل المحال ، ولا يضيق بها ان تحوّل الصحراء القاحلة الى روضة بمراع !

فنبر ابوها وما زال يمانع : ولكنك تشقين به !

– لن اشقى ، وسوف تراه سلس المقادة ، كريم الطبع !

واضطر نجم سرحان الى السكوت ، كأن لا رأي له في ابنته، مع اعتداده بكونه صاحب الكلمة القاطعة في بيته. فان لصفيّة عليه دالة يأبى ان يتحرر منها . وعرفها ذات فطنة ، واحتراس ، فاباح لها الامر . على ان لا يغرر بها خفقان قلبها ، فتضيع في التماس السراب

ولم يمنع يوسف مسعود من مخاطبة الفتاة ومجالستها . فقد تنفر منه حين تلمس عن كثب شذوذه . او انها قد تحدث فيه من التبديل ما لا يقوى عليه سوى ارباب المعجزات

وسكر يوسف بالخمرة المعتقة المتلألئة في خابية نجم سرحان. فهو منها في دعة وبهجة. وقال يسرد لصفية هيامه بها: ما عرفت اني على احساس بالهوى الا وقد رنوت اليك . وانكرت على نفسي، قبل ان اراك، نبضة الولوع ، كأني مقصوص من جذع يبيس . اما الآن ، فقد توهج قلبي بنشوة الهيام ، والفضل لما ازدنت به من مواهة، ورصانة، يجتذبان اليك حتى الخليّ الحرون!

فاعلنت وهي تبتسم: ولكني اريدك على التخلي عن عنجهيتك . فليس العهد عهد شراسة وغضب ، بل عهد لطافة ورفق !

فضحك عالياً وقال مداعباً : ماذا يبقى من يوسف مسعود

وهو ينزع منه نزقه ؟... أفلا تدرين ان خطري في هذه الغضبة السريعة، المشتعلة بها اعصابي ؟... فانا حينما ابدو مخوف، يرهب القوم جانبي ويتقونني . على حين أصبح كالجميع اذا سلخت مني طابعي، واضيع في الكومة. فما يخشاني احد، ولا يقام لي وزن. مع اني من هؤلاء الساعين للظهور ، لا للاحتجاب ، يا صفيّة . ولست اجيد غير التباهي بقوة ساعدي ، وما انا بذي وجاهة ، ولا بذي علم . فابقيني على علتي ، ولا تمحي مني لوناً اعيش به ، والا تجاهلني جميع من حولي ، وأزروا بي !

وسألها في الابقاء على خلقه ، وله في المناكرة لذة وصيت . فتعرف الباروك وضواحيها انه حاضر ابداً ، وليس بمن يطمسهم التناسي ، ويدبّ اليهم الخمول . وجنح بها الى موافقته على عنجهيته ، وما تطيب له الحياة ان لم يكن فظاً . على ان هذا الفظّ في الناس، حملٌ وديع في حضرة من يونقه بها اندى الحنين

وتبينت منه انه لا يفيض بالباطل . فما ان يجلس اليها حتى يعروه انقلاب خاطف . فينطلق من شفتيه الكلام النظيم . ولا تختلج في حنجرته شتيمة ، كأنه من اولئك الاعفّة ، الحراص على وضاءة اللسان، ونقاوة الدخلة . وما يكاد يبدو في الساحة، حتى يعود الى ما كان فيه من صلف ، وغطرسة ، وتنكيد

واضطرت صفية الى قبوله، على ما يشوبه من ضير، وليست

تقوى فيه على تقويم الاود. وبذلت له المودة بلا امساك . وما ضنت عليه بصفايا الولوع . فلقيت فيه وجهاً كريماً ، مع كل ما نمي اليها عنه من انحطاط خلق ، وقسوة روح . قال محرّضوها عليه ، وذوو القول الجارح على وفرة : ما وقعتِ على سوى المدَر ، وقد فاتك الدرّ. يوسف مسعود سيبدد مالك ، ويقصف عودك . أما ابصرت في الباروك غير هذا الاهوج ، الغضوب ؟

فهاجت ونبرت : اخترته لنفسي ، لا لكم . فاكرموا عاطفتي ، ولا ترضّوا قلبي . ان يكن لي ان اشقى بقرب من وقعت عليه ، فالتبعة على كبدي . واذا ادركت النعمة ، فكونوا شركائي في المسرة !

وما وقف يوسف مسعود منها موقف الجافّ اليد . فاهدى اليها الكرائم بسماح . وما لقي من ابيها نجم سرحان النفرة . فرحب به نجم متغاضياً عن هوسه . فما دامت صفية تستملحه ، فلماذا يصرفه ابوها عنها، والجدال في شهوات ذوي الصبابة عقيم ؟

وما يفتأ يوسف يذكر قولها له في احدى الامسيات ، وقد تهاديا معاً الى نبع الباروك ، تحت رعاية ابيها : حبي لك صافٍ كمياه هذا النبع ، وغزير كفيضانها ، الا انه ابعد منها مدى ، ولا نهاية له !

وهي كلمات حفرها في ذهنه وصدره . ولا ينفك يرددها في

بكل ساعة من ساعات يقظته . وما غفل عنها الا ولطمة نجم سرحان تنقضّ عليه فتخلع صوابه . وما كان نجم باضطرار الى المغالطة . ومن الخير له ان يملك يوسف مسعود المقام في بلدته . فلا يجرؤ احد على الوقوف دون القذيفة المتفجرة ابداً . ولكنها هنيهة من شؤم ، قادت الى مستحكم النكر

غير ان يوسف مسعود ينهد الى التماس المغفرة . فهو مجرم . وانه ليتوق الى التكفير عن اثمه بما تستطيب صفية . فماذا تقدر على غريمها من فداء ، كي ينعم بعفوها عنه ؟ ... وقصّ على الرعاة ما يضطرب فيه من ارتباك وجزع . وطلب اليهم ان يرشدوه الى سديد الخطو . وليس للمنكوب ، وهو الاعمى البصيرة ، ان يهتدي . قال : أنتم اصفى مني ذهناً وجناناً وما اكتويتم بالنازلة . وابنة نجم سرحان أحبها . فكيف امحو من روعها كوني قاتل ابيها ؟

وتعددت آراؤهم . وما اجمعوا على سوى ضرورة اطلاعها على ما يختلج فيه من ندم وشوق . قال واللوعة ممسكة بخناقه : ومن رسولي اليها ؟

فما ظهر فيهم من يحجم عن اداء المهمة . كلهم لها . قال يوسف مسعود وقد اصطفى يونس الاعرج : انت على حلاوة لسان يا يونس ، وعلى بشاشة وفطنة . وتثوي بالباروك نفسها ،

فانطلق الى صفيّة وابلغها امري . ولن ألقنك ما عليك ان تقول ، وانت على حسن بيان ، وصدق مخبر !

وتأوه يوسف مسعود الصلب الشكيمة ، الحديد اللسان . فهل له ان يشكو حالته الى اخوانه الرعاة ، وهم ادرى منه به؟... واشفقوا عليه من نفسه . فهو في لاعج الحرقة . وانطلق يونس الاعرج الى الباروك مطرقاً . انه ليحمل اثقالاً من تكاليف . فكيف يبدو ازاء صفية سرحان ، ويعالنها بما اهاب به يوسف مسعود الى مجاهرتها به ؟ ... أترتضي ان تأذن بالاسم الشائك الوقع ، المكروه ؟

وخشي يونس ان تدل عليه صفية فوات الامن ، وتصارحها بانه شاهد يوسف مسعود ، واقبل اليها في رسالة يؤديها عن الجاني . الا انه ، وقد وعد ، ساءه ألا يبرّ في الوعد . سيمثل في بيت نجم سرحان ، ويطلع صفية على رغبة الجاروفي ، قاتل ابيها . فاذا طردته من حضرتها ، وشكته الى رجال الدرك ، وامسكوه ، فحسبه انه انجز ما عليه

ورضي بان يجازف بايامه لاحقاق ما اوثق به نفسه من عهد . وما للحياة ، في عرفه ، شأن ان لم تكن خالصة من الكذب والجبن . ومشى الى صفية بخطوات حازمة ، لا ترهب . ولاح له رجال الدرك في ساحة القرية يحدقون اليه بعيون غضاب ،

كأنه من ذوي الشبهة، وهو يجاور في القمة يوسف مسعود. فما اكترث لهم. غير انه حاذر ان يبصروه يدخل منزل نجم سرحان. ولا بد ان يلمّوا بالحافز الى سعيه لمرأى الابنة المنغمسة في احزانها. فما اوفده اليها غير الجار وفي الوفاء

واحتال يونس الاعرج على دخول المأوى. فما ولجه الا والجنود يميلون عنه. وحيا صفيّة تحية المشارك في اللوعة. وجلس بقربها يقول: رحم الله اباك، تعوّدت أن أجيء مراراً اليه. فاقاسمه، في الليالي الحوالك، سهراته بجانب الموقد، واستمع له في حكاياته عن الزمن الخالي. دام لك من بعده طول البقاء!

وجاء اليها بثياب البراري. فالمداس على ضخامة، وقد زادت اثقاله المسامير الغارقة في النعل. اما لونه فلون الغبار، وما نعم يوماً بالمسح. وعلى البدن معطف من جلد الاكباش. وتحت المعطف صدرة سوداء، فسروال اسود وافر الرتوق. وعلى الرأس لبّادة استدار عليها الوسخ كالهالة. اما الوجه فمستطيل، تفشو فيه السمرة. والعينان زرقاوان. والشاربان طريان. وما خلت الباصرتان من لمعات الذكاء. وارتسمت على الشفتين موجتان من سخر. على ان الموقف لا يجيز المزاح. فاكتفى يونس بتدخين لفافة، وبحسو فنجان من القهوة. واراد

الكلام ، فارتج عليه

وماذا يقول لصفية الغائرة في حدادها، وقد انجلت عن محياها رعشة الانس ، كأنها تمثال الكآبة الراسخ القرار ، وجمدت في شفتيها الكلمات لتفسح الى الزفرات ، كأنها لا ترشح بسوى دخان حشاشتها اللهبى ، وطفحت عيناها بالدمع ، كأن للينابيع من المقل فوّار المعين ?... ماذا يقول لها، والمبحث وعر، وجثة ابيها ما تبرح تغوص في بلبل الدم ? ... وغار في لجة التفكير الاليم . انه ليخشى الخيبة . وطال سكوته . ولكن ليس لهذا السكوت ان يطول سرمداً. فما يستقر يونس الاعرج بمعبد. وصفية ساءلت نفسها عما يجيب به الى ارتياد منزلها ، وليس من عادته ان يجالسها . فهل بدا ازاءها ليحدثها عن يوسف مسعود ?

واندفع يونس يمجّ الدخان المالىء فمه ، فيحجب به سماء الحجرة . وبين الاقدام والاحجام ، المتصاولين في خاطره ، افاض بما في نفسه، وما نبا عن الجسارة. قال : شاهدت يوسف مسعود ، يا صفيّة . فهو تائه اللب ، شديد الندم ، يروي قصته وينوح . فهل من رحمة ? ... انه ليزحف اليك على يديه ورجليه . ويتمرغ في تراب عتبتك ، على ان تغفري له . اَاعلله ببريق من امل ?

فتنأت عيناها، كأنهما نصلتان نفرتا معاً من غمديهما للطعان.

ونبرت بصوت ناقم ، ذبّاح : أمجنون انت ، يا يونس ؟ ... هل نأى عنك الرشد ؟ ... ما هذا التجديف على الخلاّق ؟... أتدعوني الى عقّ ابي ؟ ... والله ، لولا حرمة نجم سرحان ، وفطرة اكرام الضيف ، لصرخت بك ان ارحل . فالمكان يتبرم بك . ولمنعتك حتى الابد من دوس هذه العتبة . كيف تريدني على العفو عن هادم منعتنا ، وكاسر رايتنا ، وماحي هنائنا؟... هلا خرست عن حديث النكد والعدوان ؟

– ولكني ابصرته على خبل ، لفرط الحسرة على ما اجترح !

– ان تكن ابصرته فلماذا لا تدل عليه رجال الامن ، أفلا تراهم في ساحة الباروك يبحثون عنه ؟ ... انك لتخون فرض المروءة وانت تلمّ بمقر القاتل ولا ترشد اليه ، بل انت تسيء الى شرعة الصدق والاخلاص . فما كان نجم سرحان لك عدواً كي تصون قاتله من العقاب . ألا اين هو المجرم ؟ ... هلا تكلمت ؟ ... ان لم تطلعني على مكمنه شكوتك الى رجال الامن بتهمة كتمان الحق . قل اين المقيت ، والا فاحذر انتقامي . قوات الدرك بالباب تترصد ، فان لم تتكلم دللتها عليك !

فلم يرهب التهديد وقال : لك ان تناديهم جميعاً للقبض عليّ ، فلن يظفروا مني بطائل . فاني اعرف مقر يوسف مسعود كما اعرف طريق بيتي ، غير اني لن ابوح بالسر . ولرجال

الدرك ان يجلدوني بسياطهم، وان يحطموا رأسي باعقاب بندقياتهم، فلن يقفوا مني على الخفايا . عاهدت الجارو في على الستر ، واني لساتر، حتى على انتثار دمي. ومن المحال ان افشي الخبر لسواك. ولكن بعدما توافقينني على المسير الى يوسف مسعود، ونصبح في قمة جبل الباروك !

فزعقت : اذن انت شريك اللص . انت قاتل مثله . يا باري. اي جنون قادك اليّ وحملك على التفوّه بالخنى ?... أما تكفيني رزيئتي بابي، حتى تقبل انت بهذه الغواشي، فيتضاعف بك الويل ?

ونهضت وفي نيتها ان تنادي رجال الدرك لامساكه ، واكراهه على الاقرار بما يعلن . بيد انها استطاعت ان تملك نفسها بقوة خارقة ، وقالت متوعدة : لا تدفعني الى ايذائك ، يا يونس. اني لانفر من الايذاء. فان تكن على ولاء لنا، فحدثني بجلاء عن مثوى اللص، ولن تدري قوة الامن بما قصصت عليّ!

فقال ، وما هانت فيه رباطة الجأش : سأرشدك الى يوسف مسعود اذا اطعتني في الشخوص اليه ، وعاهدتني على نفحه بالغفران . كنت ادعوه للمجيء اليك ، بيد اني اخشى عليه من فتكات الجند . فلن يستسلم اليهم كي يلقى عقاب السجن ، بل سيضطر الى مناوأتهم . وفي المناوأة تتساقط الضحايا . وما

استطيب مرأى الدم. اذكري أنه يهواك، وانك منه على متوقد الحنين !

فاخذت تبكي. وسكنت فيها الحدة. فما اصعب وقفتها على حيرة من امرها، وهي المترجحة بين قلبها وفرض الانتقام لناجلها. لقد احبت يوسف مسعود، ولكن انى تستبقي شغفها به بعد فتكه بابيها ؟ ... قالت والحقد فيها على طفوح، والحب يسعى لتليين نقمتها ثم ينثني : وهل لي ان اقيم على مودة من قضى على والدي، يا يونس ؟ ... اني لمن النذالة، على جمام، اذا عدت فرنوت الى المجرم بسوى عين المقت، وكلي رغبة في محوه. واذا سرت بي اليه فكأنك تدفعني الى الانتقام منه بيدي. أما تخشى عليه ؟ ... أما تخشى عليّ وانت تحدثني بالصفح عن قاتل ابي، وما يزال دم نجم سرحان طرياً، يخضب ساحة الباروك، ويلطخ باندلاقه ثيابنا، ويصبغ بينوعه ملامسنا؟...ألا ارحمني،اذا ابيت ان ترحم الشهيد الحميّ !

فأبان يونس، وقد تراءى له انه تمكن منها : لست اقرأ في عينيك الغلّ. فما تزالين على سلامة طوية، وعلى نزوع الى يوسف مسعود. واذا ما تمثلتِ الواقعة، تجلى لك ان اباك هو المعتدي. فما حمله على اللطمة يهوي بها على وجه الجاروفي؟... هل يجهل انه منه على فوهة بركان ؟ .. في الباروك فئة من

ذوي البأس تستهين بالعشرات من امثال يوسف مسعود ، على انها تتفادى من التحكك به في احتدام غيظه . وابوك خير من عرف في الشاب هذه الغلواء ، فما اهاب به الى لطمه ، وما جزاء اللطم ، في شرع يوسف ، غير القتل ؟ ... أما يبدو لك ان أباك بحث عن منيته بنفسه ؟

قالت تستنبط لابيها وجيه العذر : ابي ابن خمس وستين ، ويوسف مسعود في الخامسة والعشرين، فهل كان يضير الشباب، الصبر على المشيب ؟ ... يحسب الشيوخ انفسهم قادة وهداة ، وقد اختمروا بتجارب الزمن . وتهب لهم شيخوختهم المستعلية الدالة على رطاب العود، فتفيض افواههم بالعظة الزاجرة . وما على الشباب وقد احتمل ؟ ... ويوسف على صلة أيدة بنا . فما كان يمنعه من النظر الى ابي كأب له ؟ ... أما يبتغي العقد له عليّ ، أما يجدني على كلف به ، ألا يمني، وقد تزوجني ، ولداً آخر لنجم سرحان ، فكيف يبطش الولد بوالده لاجل لطمة ، ومن حق الاب ان يسددها الى بنيه حتى قسراً واعتسافاً ؟ ... لا ، ما انصف الجاروفي ، يا يونس . فدعني من التحدث عنه . وان تكن تطمع في اقرار العدالة ، فابلغ قوات الامن خبره، وخفف عن نجم سرحان في مدفنه . انه ليلهث تحت عبء الغدر!

ولكن يونس الاعرج ما دلف اليها ليسعى بمن اوفده الى

التشفع عندها فيه . قال : رحم الله اباك ، لست اراه يجنح الى التثقيل عليك بان يرفع على عاتقك حملاً تنوئين به . فهل ولدك لتقضي ايامك في القلق والجهد ؟ ... لو استطلعته رأيه ، في موقفك ، لدعاك الى الصفح والنسيان ، والرضى عن يوسف مسعود بعلاً مأمون العون ، يثمر به غدك ، ويدل فيك على نبل الضمير !

فتعجبت من نفسها كيف تصبر على هذه الدعوة الى الزواج. فهل لها ان تبيح ليونس الاعرج هذا التمادي في النيل من كرامتها وكرامة ابيها ؟ ... وهتفت مغتاظة، لا تطيق الاصغاء الى الفحش : اسكت ، يا يونس . انك لتشنع علينا وانت تطارحني الحديث الضلول. اذا شئت ان تبقى ، تحت سقف هذا البيت ، فلا تلسع اذني بالسباب والتجديف !

ونطقت بالكلمة الفصل. واضطر يونس الاعرج الى الصمت. فلم يبق لديه في الجراب ذخر ، وكل جهد في السعي للاستدراج ذهبت به المعاندة الصماء. وليس له ان يتمادى في الاقناع ، وفي التمادي ايلام نفس ، وتشويه ذكرى . صفية سرحان مستمسكة بالنقمة والحقد ، صوناً لترات الدم الطليل

٣

صفيّة تحبو الى العشرين . طويلة ، سمراء ، تلمع في وجهها القسيم عينان سوداوان ، يتطاير منهما وفرٌ من قوة ، واعتداد ، وصدق . ويتجلي في وقفتها استعلاء ، وفي مشيتها دلال . رأت فيها الباروك مثال الحشمة والحسن ، فما بخلت عليها بالاعجاب

وليس لصفية أمّ ، بل خالة . وهذه الخالة تستقر بالمنزل كالخزانة المهملة . فلا شأن لها ، ولا رأي ، والكلمة كلمة صفيّة . ولقد درج في هذا الصعيد نجم سرحان ، ولا محيد عما أقرّ

والاب كتب ، قبيل ان تطير انفاسه ، وصيته . وفي هذه الوصية خصّ ابنته بثروته جميعاً ، وما ابقى لخالتها سوى حق الاقامة والغذاء والكساء . وما تنكرت صفية لمشيئة ابيها ، فاباحت للخالة العيش على سعة ، لا تبخل عليها بالرفق والاكرام

وما ونيت الفتاة تفكر في مطلب يوسف مسعود منها . هل اعتراه الخبل فدفع اليها من يلتمس له ، وهو قاتل ابيها ، صفحها عنه في جنايته الفادحة ، واجابته الى هيامه بها ؟... ولكن ماذا تقول فيها القرية اذا فعلت ، بل ماذا يقول فيها ضميرها وهي تخرج عن محجة الوفاء ؟... لقد امحى من قلبها يوسف مسعود ، الحبيب الاثير ، وما استقر بوعيها غير يوسف المجرم ، الوغد . وعليها ان تنتقم منه تلبية لنداء زكيّ دم وترها به

وساءلت نفسها هل بقيت في قرارة جاشها خلجة من حنين الى القاتل ؟ ... ان قلبها ليؤيدها في دفقة الكره . فليس لها ان تعفو عمن حرمها وليّ نعمتها ، وكل ما فيها يستصرخ العدل ، ودرء الظلم . يوسف مسعود بات لها عدواً . والافئدة المثلومة الكرامة ، مهما هاجها الحنين ، لا تصفو لمن يطبعها بطابع الدم

ونادت بالقضاء على الاثيم . وما ندّ عنها قسمها وقد عاهدت على الفتك بغريمها . فما تزال شرعة دم بدم نافذة في هاتيك الانجاد والاغوار من لبنان . وهي شرعة الغاب الطاغية ، واحدى عطايا العصور الغابرة . على ان صفيّة تجنح اليها وترى فيها المنقذ من الضيم والعار . فلا يرد الغبن عن الروح المخلوعة قسراً سوى انخلاع روح المعتدي . عين بعين ، وسن بسن . ما تزال شرعة « حمورابي » عالية البنود

وصفيّة ستقتل بيدها يوسف مسعود. وليباركها نجم سرحان في ضريحه ، وقد دفعت عنه عبء الشماتة والذل . لن يذهب تافه القدر ، واليد الجانية ستسقط في مبلع المنون

وهزت برأسها وهي تستعيد في نفسها اقوال يونس الاعرج. كيف ملك القحة على مخاطبتها في الحرام ؟... وسرّها ان يمضي يوسف مسعود في حنينه اليها ، لا شوقاً منها الى مرآه،وارتياحاً الى هواه الدميم، بل ليقينها انه يتعذب وقد فتك بابيها ، واقام

منها على حرمان . وفي عذابه بعض العزاء لها ، والمجرم يتلوى ندماً وحنقاً ، وقد خسر الهناء والاطمئنان

ولم يغب عنها ان يونس الاعرج سينقل اليه كل ما سمع منها ، فيزيده نكداً وغماً . وترقبت ان يبدو يوسف ، في احدى العشايا ، في منزلها ، مقبلاً اليها في التماس الغفران . ولن يلقى غير الموت وستذيقه حتفه . فما بايعت نفسها باطلاً على سحقه ، انتصاراً لذكرى نجم سرحان ، الرازحة بالمضض والهم

ويونس الاعرج ، وقد توقل في الفجر الى قمة الجبل، تغفل الجند وهو يراهم يجرون في اثره ، ليعرفوا منه مقر يوسف مسعود. فحام،بدهاء الراعي الوافي الحذر، على الروابي والسفوح، وضللهم. فما ان يعتلي الهضبة ، حتى يهبط الوادي . وبلغ غابة الأرز ينفخ في مزمار القصب ، ويغني مواويل الاستعتاب، وينحني على الحجارة يلتقطها ، ويرمي بها قطيعه

وادهش رجال الامن بتعاريجه . فقال بعضهم لبعض : انه لواسع الحيلة . درى بكوننا نرصده ، فتلاعب بنا . لا بد ان يكون واسع الالمام بامر يوسف مسعود !

وانتصف النهار وما زال يونس يحوم على الارب، بين صاعد وهابط . واشتدت وطأة الشمس ، فتغدى رجال الدرك ، والتمسوا القيلولة ، وفي ظنهم ان يونس الاعرج في الوادي ،

فلن يضيعوا عنه. وكانوا خمسة. ونشطوا للمقيل المنيء في الجبل الخشن الوجه ، والرقيق الحشا . فما تفتحت عيونهم الا والعصر يجنح بالشمس الى المغيب . وبحثوا عن يونس الاعرج فلم يقفوا له على ظل . انساب في الوعر الى حيث لا تتطاول اليه العيون

واتهم بعضهم بعضاً بالغفلة . كلهم منها بريء . على حين تشملهم التبعة جميعاً . وخافوا وقعها ، فانطلقوا في المخارم يبحثون عمن انسلّ منهم فضاعوا عنه ، وكأنه غمامة صيف، ما انبثقت حتى انقشعت. ويونس الاعرج حبا الى يوسف مسعود في كهفه ، في عرض الجبل . وبلغ مدخل الكهف هاتفاً : ها انذا . لقد جئت !

والجاروفي يرقبه على نار . فابتهج وقد لاح له . وانعم النظر في وجه الراعي الحصيف . أيحمل اليه النبأ السارّ ؟... وهو مع يأسه من هذا النبأ ، لم يزل منه على بقية من أمل . فقد يندى الصخر ببعض الماء . على ان طلعة يونس الاعرج لم تكتب لعلالة الرجاء النمو والانتعاش . فارتسمت في شفتي العاشق المخذول بسمة صفراء . واستوضح بجمجمة تخشى أن تنجلي : ألا تكون موفقاً ، يا يونس ؟

فتردد الراعي في الجواب. الا انه اطال الى يوسف مسعود النظر الحزين ، وقال : ألا تدري الى اين اوفدتني؟ ... والله،

كل ما ملكت من دهـاء ، وجرأة ، وزلاقة لسان ، ما كان لينجع في هذه الراسخة في العناد . فليست تحتمل ان تسمع بك ، وانت قاتل ابيها ، وقد تلاشى في صدرها كل ما كانت تدخر لك من حنان !

فاستجلى بحنق المغبون ، المفؤود : اما استطعت ان تميل بها الى بعض الرأفة ؟

— ولا الى بعض التفاتة . وقد لمست فيها الدهش من نفسها ، وهي ترضى عن مكاشفتي اياها بمثل هـذا الحديث الحاطم ، ودم ابيها ، المسفوك بيدك ، لم يجفّ ، وما زال على غليان !

فاستقصى بالتياع : اذن ما هو موقفها مني ؟

فأجاب يونس الاعرج بما لاح له ، لا يلطّف من مرارة الخيبة : موقف الحقد والكره حتى الابد !

فنخع بقولته يوسف مسعود . واحس المشاغب الشرس بأنه اضحى في حقارة الدرن . جنى على قلبه بجنايته على من يحب . ولعن ساعة الخفة . ما عرف نفسه الا متسرعاً . لقد لدغ كبده في بطشه بنجم سرحان . تباً لنجم ، ما حمله على اعتراضه في وثبته؟ ...هل غاب عنه اي شظايا من ويل هو يوسف مسعود؟.. قال وهو يتأوه : ألا اقوى على مرآها ، يا يونس؟

فاشفق عليه يونس الاعرج فيما يسمع زفيره ، وقال : لك

ان تراها متى شئت. فأني لافودك اليها دون ان يدري بك الجند، ودون ان تعلم انك تلج منزلها. اما ما يكون منها حين تراك، فهو ما لست اقوى على تخمينه. ولكن هل لها ان ترحب بك وانت ناحر ابيها ؟... ما يكون رأيك فيها وقد رضيت عنك ؟

– وهل تناستني ، كأني الحلم ؟

– ما تناستك ، بل تذكرك ابداً . الا انها تذكرك بمقت، وبرغبة في الانتقام منك !

فضرب كفاً بكف وهتف : قتلتَني ، يا يونس !

فشعر يونس الاعرج بأنه جاوز في القول الصافع مدى التؤدة. قال : والله ، ما اريد لك سوى فضفاض النعمة . ولكني انقل اليك ما عالنتني به ، كي تتبين نظرتها اليك . وسأبدو لاجلك في حضرتها كلما انتدبتني لمحادثتها في امرك . ولا بأس بأن يطاردني الجند ، ومـا أشتهي الا ان اقيم منك على اكرام . فإن تلبية مثلك مقدورة عليّ !

فانتعش بعض الانتعاش ، وقد طاب له سماع القولة الليّنة بعد الحديث الهادم . قال بخنوع السائـل المكروب : أتعود اليها ، اذا التمست منك ان تجود عليّ بهذا الصنيع ؟

وافاض بالكلام الذليل . ومــا عرفه يونس الاعرج في استرخاء. فهتف يهب له القدرة على الاحتمال : ولكني أجاهد في

سبيلك امنع الاخطار . جرت قوة الدرك في اثري حتى غابة الارز ، كي تستجلي بي مكمنك ، وهي الموقنة اني على اتصال بك . غير اني دوّختها بما سلكت من تلافيف . فضاعت عني ، وما تزال تجدّ في الاهتداء اليّ ، ولن تدرك المأمول !

قال وما ينفك على ضراعة : اذن عدْ الى صفيّة في امري ، وابلغها اني زاحف الى سجني ، بل الى قبري ، اذا لم تشفق عليّ ، وتعجّل في تلبية ندائي.فانا اترجح بين الموت والحياة ، وهما معاً في شفتيها . فاذا ارادتني على البقاء ، فلتسرع لتضميد كلومي. والا فانا سائر الى حتفي ، فهل ترضى عن موتي ؟

فأعلن يونس الأعرج لا يتخلف عن بذل: سأقتحم كل صعب لابلاغها ما أنت فيه من ضنى !

فأبان يوسف مسعود : حدثها عن شقائي ، وعن ثورة الحب في قلبي . وصارحها باني عبد مشيئتها . فاذا شاقها ان استسلم الى رجال الامن ، فأنا بين أيديهم . ليقودوني الى ظلمات السجون. واذا دفعتني الى الرمس ، فما أشتهي إلاّ الثواء به ، كي أظفر بعطفها . وكل ما أطمع فيه ان تصفح عن زلتي !

وهاله أن يبدو بهذه المسكنة ، كالمستعطي . على ان نزوعه الى صفيّة قضى عليه بالاستمانة في استرحامها.قال يونس الأعرج : ليس لي ان انحدر قبل اسبوع الى الباروك . اما وأنت تستشفعني

الى ابنة نجم سرحان ، فسأعفو عاجلاً اليها . وموعدي بها بعد غد . وكنت أنطلق اليها الليلة ، غـير ان الدرك بالمرصاد . فسيرتابون بي وهم يبصرونني في غدو ورواح، بين القرية والقمة. أتحسبهم ينأون عن غابة الأرز؟... ما أراهم الآ مستقرين فيها!

ولكن يوسف ضاق عن انتظار يومين . فما يقف بيونس عن القفز فوراً الى الباروك ، وليس لرجال الامن ان يشكوا فيه ، والمصلحة تقدر عليه التنقل دراكاً بين المتن والسفح ؟... غير ان يونس ، وهو الأصوب رأياً ، وليس له في الأمر نفع ، دعا الى التريث . فالضرورة تقدر الانتظار كي تستشير صفية نفسها. فالتأجيل أفضل من العجلة في خطب مودة القلوب النافرة. ولا بد للزمن ان يلوي فيها ناتىء العنف. فتململ يوسف مسعود، الا انه تظاهر بالاقتناع ، وقال : صدقت . فلماذا المجاجة ؟

مع انه لو أستطاع ان يطير كالشرر الى صفية ، فيستميلها الى الرأفة به ، لانقضّ في لمحة خاطفة على الباروك . ولكن امره ليس ملك يمينه . فعليه ان يحتمل دلال من توجيه اليهم الحاجة. ثم قد يكون يونس الاعرج على رأي خبير . فلا ينطق بالباطل . واقتعد الجاروفي صخرة قريبة منه . ونظر الى الخلاء المنتشر حوله ، وزفر . ان المصائب لتقبل عفواً ، دون ان ترقبها الخواطر . وتبرم بالوحشة .فهو بشوق الى المجالس الحافلة

بالاخوان كي يموّه عنه ، والى رضى صفية ، كي يهنأ

وشخص له انه يختنق في عزلته . فالسجن اشهى من هذه الصخور العوابس ، وكلها اخرس . فلو نطقت لذهبت ببعض الملل. واوجعه ان يسفّ حتى يرتجي مساعدة احد الرعاة . فاين اعتزازه بنفسه في ساحة الباروك ، وعلى النبع ، يوم لم يكن لامثال يونس الاعرج ان يقتربوا منه ، ويتجاسروا عليه حتى بتحية ؟

وايقن ان طيشه جمح به. ليس له ان يلجأ ابداً الى الغضب والخشونة. فالهوس يكلف صاحبه المشقات الجسام، ويخدش أنفته

وقام الى جواده يلامس معرفته، ويعانقه . هذا هو الصديق الامين ، الاوحد . واعتلاه ودفعه في مسالك القمة ، على غير هدى من امره . فاذا ما كبا ، ورمى به الى الصخور ، فانه لينقذه من حياة لم يبق فيها غير العناء .

ويونس الاعرج انصرف عن المكان . وما يبتغي البقاء في المقام الجافي. وقال لنفسه، وهو ينأى في طلب العشب للقطيع: صاحب الحاجة ارعن. هذه هي حال يوسف مسعود . يجنح الى قضاء شؤونه في لحظة . وكنت أجيبه الى المطلب ، وما يضيرني ان اتدحرج الى الباروك . غير ان العودة السريعة الى صفيّة تزيد في صلابتها. وعلينا ان نهب لها بعض الوقت كي يسلس قيادها !

وما انكر على نفسه اخلاصه للجاروفي . على ان هذا الملتهب ندماً ، وخشية ، وصبابة ، ينزع فوراً الى اطفاء ما يستعر فيه من نار ، كي يسلم من نهش الحروق . وجهل ، وهو المكتوي بالضرم ، ان الشفاء العاجل محال . فعليه ان يرصد الاوان المواتم ، للنجاة من اللدعة الاكول

وعاد اليه يونس الاعرج ، في دهمة الليل ، يعلله بالامل . ففي التروي نيل الارب . ومال به الى اكراه نفسه على الجلد . ليكن واسع الصدر ، وليحتمل كابوس الثواني الحرار . ولكن اين يقضي الامد الفاصل بينه وبين جواب صفية ؟ ... أيقضيه في النوم ، والارق يعبث به ؟... أيطويه على متن جواده؟... والى اين ينتهي به المسير ؟ ... ثم ان قوات الجند تطوّقه من كل جانب، وليس فيها من يجهل ان الجاروفي قاتل . بل ليس فيها من يجهل الجاروفي ، وقد كان بالامس القريب من هذه القوات، يحمل البندقية، ويحرس ابواب المخافر والثكنات ، ويطارد اللصوص

وحار في موقفه. ما اطول الزمن على المقيم بالانتظار. ودعا يونس الاعرج الى شراء الشعير للجواد . وارتقى في البكور رأس الجبل يشرف منه على آكام لبنان وسهوله واوديته . فالخضرة في كل مكان ، كأن لبنان مرتع الانس والصبوة . فلا يتنفس

عن سوى اطمئنان، ولا يطمئن الا وقد جاش في خاطره القول المجنح ، فيكتب سطوراً من روعة خضلة ، تنطق بها الروائس والسفوح والاغوار. على ان الجاروفي لم يطرب للمنظر الجميل، ونفسه تنبو عن الطرب . فقفل الى الكهف . ونادى اليه الرعاة ، يحفزهم الى انشاد الاغاني الشائعة، وارهف لهم اذنيه. بيد ان الاغاني على حلاوتها ، ورخامة صوت منشديها ، لم تخرج به عن ألمه وبلباله الخانقين

ورنا الى يونس الاعرج يستحلفه بنظراته الكئيبة ، المستعطفة ، كي ينجده. وغاظ يونس ألا يجيب في الوشيك. فقال بحدة ، الا انها مجليبة بالولاء : سأثب بلا ابطاء اليها ، على ان التبعة عليك اذا دهمني الاخفاق !

فاجاب وقد انفجرت فيه اشواقه، واستطالت زفراته : عليّ كل درك ، يا يونس . فاسرع وانجز ما بدأت !

فجرى الراعي الامين في طريق القرية . لتنزل به الكوارث على فيض ، فلن يبالي شدتها . فان يكن رجال الامن يرقبون عودته ، للامساك به ، فليجرّوه الى بطون الدهاليز ، وليقضوا عليه . فلم تمت المروءة في الصدور . وعلى ذي الحمية ان يضحي بالعزيز ، كي يرد الكدر عمن يشويهم القلق والضيم

وتوسط غابة الارز، وهو يحسب قوات الامن ستفجأه ،

وتكتفه ، وترجيه الى الساحة بامتهان القاهر الشامت . بيد ان رجال الامن لم يظهروا في غابة ارز البـاروك ، تاج شوامخ الشوف ، والعنوان الابلج من عناوين لبنان العريق النجـار ، الفياض بالعزة والمنعة. فان غابة الارز في الباروك لأوسع مـدى من غابة ارز الشمال ، واوفى شجراً ، على ان الدعوة اليها ما لقيت انصاراً، ففاقتها غابة الشمال سمعة، وشأواً ، وقد أضحت مزاراً وشعاراً . وثوت غابة الباروك بوحشتها القاسية ، تكابد جفوة الاهمال . وتابع فيها يونس الاعرج خطوه ، وعينـاه في كل جانب . بيد انه بلغ الضيعة ولم يعترضه معترض ، كأن العيون غاروا في الصلصال

وادهشه ان لا يبصر حماة النظام حتى في ساحة القرية . هل ايقنوا بكلامهم عن يوسف مسعود ؟ ... وزرب قطيعـه في الصيرة ، وما عرّج على مبيته ، بل سار تواً الى صفية سرحان، وما تزال كلمات يوسف مسعود في مسمعه، وكلها ينوء بالاسترحام

واتسعت عينا صفية لمرآه. ما به يعود ولم يكد يرحل؟... ونبرت به مغضبة: أما تزال رسول يوسف مسعود ، يا يونس؟

فاجاب لا ينفي كون الجار وفي اطلقـه اليها : لا اراك على غبن ، وانا ذلك الرسول !

فقطبت ونبرت : ولماذا العودة ، وقد عرفت جوابي ؟ ...

ليس للصلّ ان يأوي اليّ . هلا ابلغته اني اشتهي قتله بيدي ؟

فابتسم ابتسامة مرّة، وعالنها بتؤدة المتمني، وغصة المكلوم: رويدك . يوسف مسعود اخطأ . وهو ينهد الى التوبة . فلا تسدّي عليه ابواب الرحمة . ومن لك سواه يعشقه فؤادك؟... فهل لك ان تنتخي من قلبك اياماً طيبات ، قضيتاها جنباً الى جنب ؟ ... واعود بك الى موقف ابيك قبل مقتله . نجم سرحان لعب بالنار ، وما كان له ان يخرق مناعة الشرف في الجاروفي . فلطمه في كبد الساحة . وهيّجه عليه !

فتفاقم فيها الحنق وصاحت : تريد ماذا ، يا يونس؟

– اريد أن تغفري له ، وأن تعديه بالبقاء على عهده ، حتى اذا ما أزفت الساعة ، نعمتما بالزواج !

– أتريد مني هذا كله ، فاصافح اليد المخضبة بدم ابي ؟

– ليس لنا ان نذكر ساعة الشر . فلا عليك وانت ترتقين الفتق . فهل تخلو الافئدة النبيلة من شمم السماح ؟

– وماذا يقول الناس ؟... وكيف أُخفت صيحة ضميري؟

– الناس يروقهم تحطيم قلبك . فكوني ادهى منهم وصونيه من الانتثار . وهل يخفى عليك امر الناس ، وما يفرحون في سوى رزيئتك ؟... هذه حالتهم ازاء الجميع . وما تطيق نفس نفساً اخرى . فكوني أمضى من هؤلاء الغيارى الكاذبين ، وما

يرومون غير الاذى تحت ستار النصح . والتفتي الى نعيمك !

— وهل يرضى ابي عني ؟

— ابوك احرج يوسف مسعود ، فوقعت الواقعة . وعليه دركها. ومهما بلغ منه العتوّ، فلن يرتضي ان يشوّه عليك رغدك!

فصرخت به وحنقها يفور: أتدري ما عليّ فيك، يا يونس؟... ما يجدر بك غير الخنق . هذا اللسان النضناض بين شدقيك عليّ باقتلاعه ، وانت تفيض ، ولا تحفل ، بهذه الحواصد . هل ماتت فيك الكرامة ، وخبا الحياء ؟

قال يرتضي لنفسه كل مهانة واذى : انتقمي مني ، وانظري اليّ كأني اوديت بابيك ، واصفحي عن يوسف مسعود !

فسددت اليه نظرة باترة ، وزعقت بحدة : أتشتهي ان اعفو عن المجرم ؟ ... أما يردعك الخجل عن اعلان هذا الفحش ؟

فتنهد وهتف : وددت لو شاهدته ، يا صفيّة . فتداعت عنه عنجهيته ، وبات في لين ناضج الثمر . فما تعلو له نبرة ، كأن صوته انطفأ . ولا يجيد غير الزفير . فهو يطلق ابداً اشجانه في شعلة انفاسه ، وما يقيم على سوى جمر . واخاطبه كي يسمع ، فيتيه عني . وانشد له المواليا ، وانفخ في القصب، و كأني حيال صخرة من هاتيك الصخور الجاثمة في الفجوات . فما يفكر في سواك . وما يصبو الى سوى مرآك ، كي يسمع من فمك

الغفران. وهو يعالنك بانه رهن مشيئتك. فاذا أمرته بالاستسلام الى الجند، وهب لهم نفسه. واذا فرضت عليه الانطواء في ضريح، فلا ينبو عن المفروض . لم يبق فيه خيال من يوسف مسعود ، وقد بات على جمود ونحول . فانك لتجهلينه ، وقد ابصرته ، ويهولك ما عراه من تبديل . وما يجهل انه يقدر عليك ما لا تطيقين، وهو يرتجي صفحك عنه . الا ان قلبه على متأجج الحنين اليك. فهلا صعدت قمة الباروك كي تجودي عليه بسعة حلمك؟

فتبرمت بالمحال. هل ضاع يونس الاعرج عن نفسه، فافاض بالهذيان ؟... قالت بدمدمة الموتور : انهض وانصرف، يا يونس . انهض وانصرف . انا اطردك من بيتي !

فلم يتحرك ، بل قال : لا تسحقي قلبين ، وفي رحابة العفو متسع لحلّ كل عصيّ !

فامسكت بذراعه تجرّه الى البـاب ، صارخة به بنفرة وامتهـان : اخرج ، اخرج . لست أدري كيف اجيز لك ، وتستجيز لنفسك ، الجهر بهذا القول القبيح !

قال يشدد عليها في الرضى بمطلبه : ليس يغيب عن خاطري ان حبك ليوسف مسعود لا يبرح فيك على بعض النماء. الا انك تخشين مطاعن القربة عليك، فتأبى انفتك ان تكوني لقاتل ابيك. اما انا فقد لقيت لك مخرجاً من ارتباكك. فما يمنع ان يتزوجك

الجاروفي ، وان ترحلا معاً عن لبنان . وفي اميركا مجال مديد للاحتجاب عن الانظار ؟

فظلت على صرختها الفياضة بالكره والغلّ : ادعوك الى الانصراف . أخرج . أخرج !

فارتدّ اليها يقول بنصح الامين : ما لنا ولتخرصات الناس ، يا صفيّة . سيري في طريق قلبك ، فتأمني الزلل !

فما زالت تصرخ به باحتدام : أخرج ، أخرج . لا حق لك بالبقاء لحظة في هذا الوكر !

لم يسمع ، بل قال يضرم فيها لهبة الحنو : ليس لك ان تتبعيه اباك . حسبنا ان نصاب باحدنا . فهل تتوقين الى خسارة اثنين معاً ؟

فظلت تصيح : انصرف . انت تهشم وجه الحق . فاليك عني!

ولكنه رسخ في وقفته ، وقال بصلابة وعناد : لن ارحل الا وقد سمعت منك انك لا تنكرين لطلبتي . والا فانا هنا حتى انقضاء الزمان !

فاحست بالحيرة تنتابها . وقالت وهي تسعى للخلاص من حرج الموقف : أترضى لي ، وانت ابن الباروك ، ان اكون لقاتل ابي ؟

– ارضى لك بان تجري في مسلك عاطفتك !

– حتى على عبثي بالمألوف ؟

فأعلن بغيظ : مصيبتنا في الحياة هـذا المألوف . فنحن لا نعيش كما نستطيب ، ولا نجهر بمـا نحس به ، مخافة ان نخرق سمتاً مرسوماً لنا . ولكن من رسم هذا السمت ؟... أليس بشراً مثلنا ؟... مـا يقرّه انسان ، لا يصعب على انسان آخر تعديله ، بل نقضه . تعالي معي الى يوسف مسعود ، ودعي عنك ترهات المتعنتين !

فأطرقت وكأنها اقتنعت بما يصارحها به. فالركون الى احكام الناس مضيعة لشهوة الضمير. قالت بعد فترة من صمت: وكيف السبيل الى يوسف دون أن يرانا أحد ؟

فأجاب وقد سرّه الفوز بالبغية : اتكلي عليّ وأنت الرابحة . فما علينا الا ان نتبطن اليه الليل ، فنسلم من كل عين مزراء !

فبكت وقالت : انك لتكرهني على الاساءة الى روح نجم سرحان ، يا يونس !

فهتف وفي نفسه اعتزاز، وقد اتسع له الى تليين الصلب: معاذ الله ان اتجرأ على هـذا الاثم. فما ادفعك الى سوى رحبة الهناء . ليس من الانصاف ، ان يشقى روحـان حبيبان ، كي يطرب الشامتون . متى تنشطين لصعود قمة الباروك؟

فاستفهمت بصوت متلجلج، خشيان: أيكون يوسف بالانتظار ؟

فتنهد وقال : ان روحه لترقب هذه اللحظة . فاذا لم ينعم بها قضى شهيد غرامه ، وانت بوفاء !

واودع لهجته كل ما يملك من قوة الاجتذاب . قالت صفيّة ورأسها في الارض : سأحييه ، يا يونس . صدقت . فليس من كرم الطبع ان نذهب باثنين معاً . نجم سرحان رجل شيخ ، ذاق من الايام حلوها ومرّها . اما يوسف مسعود فما يبرح في اوج الشباب . ومن حقه ان يعيش كي يسعد بعمره . ولأجل سعادته سأغالب كل عقبة . ساستخف باقاويل الناس ، وانا سيدة امري . فان لي قلباً احاذر ان يشقى . وهذا القلب يدعوني الى الترفيه عنه . وسافعل . فليس لي ان اكره من احب ، وقد أحرجه في الذود عن أنفته ابي . ولكن قل لي ، يا يونس ، هل من سبيل لنا الى اميركا ، ويوسف متهم بجريمة قتل ، والسجن يرقبه ؟

فابان الراعي وفي فؤاده يشيع جزيل الطرب : لن نعدم الاهتداء الى الطريق الآمن . ففي بيروت جماعة ممن أوتوا المقدرة ، فلا يضيق بهم ان يتلاعبوا بالاسماء . وخليل يمسي لديهم اسعد ، واسعد اميناً ، وامين منصوراً . وسنلجأ الى هؤلاء في ستر امرنا ، ونحن الموفقون !

فغمغمت بصوت حسير ، لا يزال التردد يشوبه : اذن امري

بين يديك. فلا تخيبني. انطلق الى يوسف. وابلغه اني سأكون في آخر هذا الاسبوع ... لديه!

فهاجه الفرح وصاح: أتفعلين؟

فاجابت بهدوء: ألا في مَ تتعب نفسك؟... ألا تجتهد في استمالتي الى رأيك؟... هذا الجهد اغر. فاذهب الى الجاروفي. وابلغه ان حبي له لا يبرح على عنفه. الا اني لن اركب البحار، الا وقد امسيت زوجته، على شرعة الله!

فهتف والمسرة الطفحى تغمره: كل ما ترجين سننجزه. شكراً لك. بددت عنا الظلمات. في صباح غد سأكون في رأس الجبل. وسينتعش قلب يوسف مسعود بنعمة الغفران والامان!

وكاد ينحني على يدها، فيقبلها اقراراً بجميلها. ففي مطاوي نفسها من النبل ما ادهشه، وقد رضيت بان تكون لقاتل ابيها، مستهينة بكل ما يخرق الناس من اضاليل لايذاء بعضهم بعضاً، وخنق بهجة الارواح. كأن لا يطمع الناس في سوى شقاء الناس. وما يقلق هذه الافئدة، المجبولة من لحم ودم، الا ان تبصر في من يلوحون لها الحبور والاطمئنان

٤

في اعلى قمة الباروك ، المشرفة على الدنيا ، كأنها منارة العالم، جلس يوسف مسعود يرقب عودة يونس الاعرج، ورحمة الله . فأبى ان يصدق ان صفيـة تمضي في كرهها له ، وهي من صارحه بخفقة الحب، ورسوخ الهيام. وسها في اطراقه . وتأوه. واشتد به العذاب . وعتب على نجم سرحان وقد رام التبـاهي بفتوّته ، وهو ابن ستين. فهدم نفسه، وفصل بين قلبين يعيشان للهوى الحلال

وما انكر الجاروفي انه يستعجل الزمن ، في دعوته صفية الى الصفح عنه. فليس لها ان تغفر، حتى على ميلها الى الغفران، والجريمة ما تزال حديثة العهد، والجثمان ما يبرح رطب الكفن. على ان الغرام اللجوج ما كان ليسكن . ولقد ملّ يوسف مسعود وحشة البراري ، وجنح الى الرحيل عن لبنان . ولكنه لن يرحل وحده ، بل ستكون صفية رفيقته الى المهجر ، وهناك موئل الرفاه

وليس الجاروفي بالرجل الفقير ، وفي جيبه ثلاثمئة دينار ذهباً، لا تفارقه . فيتمنطق بها وينام ، وهي مشدودة على وسطه . وقد يكون بعض سر بطره ، في هذا الذهب، المحشوّ في كيسه . وله في القرية منزل ، وحقل ، وكرم من الزيتون وافر الغلة .

على انه يكتفي بالدنانير الثلاثة لتدبير أمره . فما ان تعالته صفية برضاها عنه ، حتى يجوب واياها الكون على سعة مداه

ونام وهو يجلس على الصخر عرضة لاذى الوحش والحشرة . بل لم يكن النوم يطيعه، وما ان يغمض عينيه، في تهويمة عارضة، حتى يستيقظ ويتأوه . فهو في تعس كفور . وموعده ويونس الاعرج بلجة الصباح . فلا تكاد الشمس ، تنشر لواءها الزاهي، حتى يبدو يونس في القمة الشامخة . وما ارتاب يوسف مسعود بقدرة الراعي على الاستدراج . فان هذا السارح مع قطيعه ، في البراري، ليرتع في ذكاء فوّار ، لا يبزّه فيه حتى المتبحرون في العلم . فيحاور ، ويناقش، بفطنة لا يخبو لها وهج، وبحجة لا تنضب ، ولا يرثّ لها خيط . حتى لقد قال فيه أبناء الباروك : كسف راعينا جهابذة الفكر !

وتحدثوا عن أرباب الحظوظ . لو اتفق ليونس الأعرج ، من يدفعه الى معاهد العلم ، لكان في طليعة موكب الحصافة والسداد . وما ليوسف مسعود أن يهون بهذا الرسول الوافر الحجا . ولكن هل يتغلب على الحوائل ، وثمة الحرون العسير ؟

ولم يجد يوسف غير اللفائف يداوي بها صبره الواهي. فيذيبها الواحدة تلو الاخرى ، ويسائل نفسه عن عظمة الحب وبعيد شأوه. فهل لمن لجّ به الهوى، ان يذلّ، حتى ينسى قدره، وتخونه

صلابته ، ويمسي دجاجة في قفص ؟

ولاح الفجر ، فنهض يوسف مسعود عن الصخرة ، ومشى طويلاً في ناحية الباروك . أفلا يبدو يونس بمواشيه ؟... وكاد يبلغ غابة الأرز ، فاتقى الاقتراب منها لئلا يصطاده الجند . وما أقبل وحده في جولته وبندقيته تقتعد كتفه . وسدد العين الى المنحدرات الصلد ، أما من أثر للرعاة ؟

وشاهدهم يقبلون بعضهم تلو بعض . فهتف بهم : أين يونس ؟

قالوا : يونس في الضيعة ، وستطول به العودة الى المرعى!

ولكن يونس بدا بغتة كأنه حاضر أبداً . وصاح يحيي اخوانه ببشر خصيب : السلام على الجماعة !

فصاحوا جميعاً : مرحباً ، مرحباً !

فاستدلّ يوسف مسعود ، من هذه الطلاقة في يونس ، على كون الأمل بسط جناحيه . فالتوفيق لم يخن الراعي الملسان . وابتسم له وهتف به : ماذا تحمل في جرابك ، أقمحاً أم شعيراً ؟

فأذاع يتباهى بتفوّقه : ما نحصد غير القمح ، والله !

– هل لانت وأجابت ؟

– وهل لها ان تقسو ، وأنا طبيبها ؟

فوثب عليه الجاروفي يعانقه صائحاً بمستطير الجذل : وحق السماء ، أنت وحدك راعيها !

وألحّ في المعرفة . ماذا قالت صفية ، وعلى مَ عوّلت ؟...

فقال يونس يتلذذ بمرأى يوسف مسعود في ابتهاج : ما قالت الا الخير ، وما عوّلت على سواه !

– أتأتي اليّ ونفرّ معاً ؟

– ستأتي في آخر هذا الاسبوع، وتنطلق وإياك الى بيروت. على انها، لن تركب البحر الى المهجر، إلاّ وقد تزوجتها ، على سنّة الله !

فأعلن برهيف نبرة، وقد تعتعه مستطيل البشر: هذا كل ما أبتغي، يا صديقي. دام لك البقاء، كم خففت عني . أنت زينة كل من أجاد الكلام فينا . ما كنت أحسباني سأقع على من يحل العقدة . لا ريب انك سيد الموهوبين، وقد أفلحت . ما ذل الجاروفي في سوى هيامه بهذه الفاتنة . أُفّ للحب ، ما أمضاه، وما أدهاه . لكأنه المصيبة !

ونقد الراعي خمسة دنانير تتقد كواكب في حالك الجهمة . فتعالى يونس الأعرج عن مبيع المعروف بالمال ، قائلاً بحمية الانوف : ما رأيتني أسعى للكسب ، وأنا أجاهد في اكرام البطولة ، يا يوسف . إبق دنانيرك لنفسك ، فأنت بحاجة اليها ، وستعتلي البحار !

ورفض أن يجود عليها بنظرة . فحار يوسف مسعود في ما

يكافئه به . قال : ولكنك تخجلني من نفسي ، وأنت منقذي . وللمنقذ الحق بحسن الجزاء !

وتناول مسدسه من وسطه . وأهداه الى الراعي النبيل الخلق ، قائلاً : لا أحسبك تصرّ على الرفض . هذه هدية ، لا منحة . ولا بأس أن تحفظها تذكاراً مني ، وقد جمعت بيننا المودة !

فلم يستطع يونس الأعرج التنكب عن الرضى . قال وهو يبسم للمسدس الغالي البدل ، الحديث الطراز ، الساطع كأنه شعلة من ضياء : رضيت به منك لقتل عدوك . فأنا حارسك ، ورفيقك ، وخادمك !

ومشى وإياه الى الكهف ، وهما يتساقطان الحديث . ومال يوسف مسعود الى معرفة كل ما أفاضت به صفية . قال يونس : عانيت في ترويضها كل صعب . فشتمتني مراراً ، وطردتني مراراً ، وأنا أتجاهل كل ما تقذفني به من إهانة . وطدت النية على خدمتك ، واحتملت . وجنحت بها الى العبث بالاعراف ، والى السخر بالأقاويل . فالناس لا يشتهون هناء الناس ، بل ينهدون الى ايلامهم . ودعوتها الى هجران الباروك ، والنفرة الى أميركا الحافلة بالخلق ، وقليلٌ فيها من يعرف الآخر . فأطرقت . وتبينت من أطراقها ان الحب لم يمت فيها ، واني أقوى منها في المصاولة . وكان ما رجوت . فسلخت منها مكابرتها ، وأجابتني

الى ملتمسي . ستقبل في آخر الأسبوع !

– أتقبل الى هذه القمة ؟

– سترتاد هذه الأنحاء . وسأكون رفيقها الى كهفك . بل لا بأس عليك وأنت ترقبنا في غابة الأرز !

فعاد يوسف مسعود الى معانقة الراعي الجمّ الولاء ، قائلاً بطافح الشكران : أعدت إليّ الحياة ، يا صديقي !

وتبدّلت حالته وقد نأت عنه أشجانه . فهو سعيد بصفح من يهواها، ورضاها به زوجاً ، مع كل ما دهمها في مودته من رضوض . ونادى اليه الرعاة ليقاسموه فرحته بالغناء ، والرقص ، واطلاق الرصاص. وهو نفسه أخذ يرقص ويغني . ودعا بالخمرة . ليسكر جميع هؤلاء الرفاق ، واليوم عيد . وضاع عن نفسه لفرط البهجة . انه لمجنون . والفرح يذهب بالنهية كالترح . واشتاق آخر الاسبوع . وما انفك يجري في أثر يونس الأعرج مستطلعاً أمر صفية. ستأتي، وسيهبط واياها بيروت، ويتزوجان فيها . ومن بيروت تحملهما الباخرة الى أميركا ، ويستقران بالبرازيل . وليوسف هناك ابن عمته سليم ياغي ، فيقوده في الطريق السويّ . وهتف بيونس : طاب العيش، يا ابن الأعرج. ولكن ظلمك من سمّاك الأعرج ، وأنت المستقيم !

وغلب عليه الضحك . فهو في قهقهة انى اتجه . ووزع على

الرعاة لفائف التبغ . ونقدهم المال كي يحملوا من القرى اشهى المأكول . قال : اكثروا من شراء الدجاج والعصفور !

ولم يكن باضطرار الى الاكباش ، وله منها في القطعان ما يرجح الحاجة . فيؤدي بدلها ويذبحها ويطعم الرعيان . ولما تدهده يونس الاعرج الى الباروك ، كي يأتي منهـا ، تحت ستار الليل ، بصفية سرحان ، وقد اشرف الاسبوع على الانتهاء ، رافقه يوسف مسعود الى غابة الارز ، الوارفة الجلال ، وعالنه بقوله : انا هنا ارصدكما ، فابتعدا عن انظار الجند ، ولا تبطئا في موافـاتي . علينا ان نلتقي قبل طلوع الصباح !

ويونس وعـد خيراً . ودرج الى الباروك ، على مستفيض اليقين ، ان صفيّة سرحان ستبرّ في الذمة . ودخل مأواهـا فابصرها في حلة قشيبة ، كأنها على موعد . قال وهو يحييها ببسمة مشرقة : أتكونين على أهبة ؟

فاجابت بقولة جازمة تدحض كل لأي : ليس عليّ الا ان ألحق بك . فخذني اليه !

فراقه فيها شمم الوفاء . ما عاهدت على ختل . قال : علينا ان نصبر ريثما يجنّ الليل ، فندرج في ظله الى المرتقى الوعر !

وتعشى ورجع اليها في الفحمة يقول : أزف الموعد . لنرحل ! وتغلغلا في كبد الظلمة . وشقّا الفجوات ويونس يقول :

هو في غابة الارز يرقب وصولنا اليه . ولقد احبت موافقتك على شهوته ميت الامل. فدفع عنه الحرقة ، وأحس بانه يعيش!

فلم تجب . وبعد مسير طويل ، ادرك فيه التعب صفية ، لاحت لهما غابة الارز ، في الديجور ، شبحاً رهيباً ، حافل الصدر بالمكاره . الا انهما ، وقد تعوّدا في الجبل حياه الشدة ، لم يرهبا المنظر الباعث في العروق رعشة الفزع . وتبطنا بواسق الاشجار وهما ينتظران ان يبدو لهما يوسف مسعود. ولقد بدا وهو يرتجف . واراد الكلام فانعقد لسانه . وما تجاسر على مصافحة صفيّة . بل دنا منها ، على ضوء قدّاحة اشعل فتيلها يونس الاعرج ، ينحني بين يديها ، بل يجثو . فهو يسألها العفو عنه . قالت وقد اختلجت في فؤادها نزعة الحنين : سامحك الله ، يا يوسف . هل عزّ عليك أن تتماسك ؟... أنت تعرفه يستوي مثلك على العنف ، أفما كان عليك أن تحتمل ، وتكفينا ، وتكفي نفسك ، مؤونة التنكيد ؟

وزفرت كأن في صدرها مرجلاً يفور . وأوتي يوسف القدرة على النطق ، فقال : عفوكِ زاد في تجسيم احتقاري لنفسي . أنا خاطىء رجيم . الا ان السماح طبع فيك . فشكراً لك وقد ارتقيت دوني في مدارج السمو !

واضطرب جأشه. فهو على خشية من هذه الواهبة له الغفران.

قالت : حدثني يوسى بما رأيت فيه الصفح ضرورة . أبى نفسه يفكّ عنك، من العالم الآخر، ما أوثقت به ساعديك من قيود . أنت في حلّ من خطيئتك، على جسامتها ، فارتع في بحبوحة السكون !

فقبل يدها كالمجرم، المحكوم عليه بالموت، حبال من وهب له الحياة . وقال : ما عرفت ساعة اطمئنان منذ اجتراحي الوزر. ولولا رحمتك لكنت الآن في طريقي الى الهلكة تجرفني. فاغور في لجتها ضائع الامل ، معذب البال !

وقبل في حضرتها الارض . قالت : لن نبقى في لبنان . ولا احسبك تجهل ما اقدمت عليه لاجلك من خرق للمألوف . فالطعن عليّ سيملأ كل فم ، وليس لي ان ارضى عمن بطش بابي . الا ان حبي لك اقوى مني . فانت من ارباب الحظوظ !

فشعر بانه ذرارة في ذيل ثوبها . وازدرى نفسه . فما لقي من حلمها كسفه . وهل من نفوس تنتفض بمثل هذا السمو ، وما ينقد في سوى عروق الاولياء الاطهار ؟ ... قال يمهد لها الى النجاة من عضات الالسن : سنرحل على الفور الى بيروت . ونتزوج فيها . ومنها نجتاز البحار الى اميركا . فنحتجب عن كل عين !

وساعدها على ركوب جواده الى الكهف القائم في اعلى القمة.

ومشى بقربها كالخادم المنبوذ . ولم يتجرأ على الكلام حتى بلوغ الكهف . فكان يسير مطرقاً، ناعماً بفرحته، مستحيياً من زلته.

قالت صفية : لنأخذ قبيل الرحيل بعض الراحة لانفسنا !

ونهدت الى النوم . فهي في عياء ناهك . ويوسف مسعود اغفى اغفاءة الاطمئنان . لقي الكنز المفقود . على ان صفية تحفزت للاستواء وهي تسمع رفيقها في شخير . والتفتت اليه وتذكرت يمينها . ليس بجانبها حبيبها، بل قاتل ابيها . وجاشت في ضميرها شريعة الغاب، المسيطرة في هاتيك القمم على الارواح. رأس برأس وعنق بعنق . ولاحت لها بندقية يوسف مسعود بقربه . واستجلت موقفها . ما جاءت لتعفو ، بل لتنتقم . احتالت على يوسف بالعفو ، والرضى به زوجاً ، كي تأخذه بجريرته . ابوها لن يرضى عنها وهي تحنث في يمينها الوثقى

وتجاذبتها الخواطر المتضاربة . أتصفح ، أم تثأر ؟ ... أتنسى وتنكث ، ام تذكر وتفي ؟... وتمثلت اباها متجهم الاسارير ، معقود الناصية، يلعنها . تراءى لها مزمجراً ، يدعو عليها بالويل ، ويعيّرها الغدر ، صارخاً بها : هل حالفته على دمي ، يا عائبة ؟

فارتعدت . انها لغادرة بابيها ، وبالدم المختلج في شرايينها ، ان لم تبرّ في قسمها. وشعرت بانها مجبرة على الامتثال لصوت الضمير،

ولنداء الدم. عليها ان تنتقم لابيها المنكود، الغضبان. ومخافة ان يثنيها حبها عن انجاز شهوة الوفاء للابوّة المجهودة، مالت على يوسف مسعود الغافي على طمأنينة. وتناولت البندقية المضطجعة، اليقظى، بقربه. وسددتها فوراً الى صدر القاتل. لا تلتفت الى معارضة قلبها، ولا تصغي الى زجر هواها. وضغطت القادح. فانفجرت رصاصة. وانتفض جسد. وطارت روح، دون ان تعلو لها نأمة. قضى يوسف مسعود، فلتنتعش عظام نجم سرحان في مثواها!

وعادت صفية الى الباروك على متن جواد حبيبها المقيت، وبيمينها بندقيته، وهي تهزج اهزوجة النصر، كأن اباها بعث حياً، وتذيع في بني قومها: انتقمت لنجم سرحان المظلوم الطعين. فاوهمت يوسف مسعود اني اعود اليه، وتغفلته في مخباه، وقتلته برصاصه، اخذاً بثأر أبي، واحقاقاً لشرعة دم بدم. وهي شرعتنا. انطلقوا الى القمة فتقعوا على الجثمان الغائص في النجيع. استراح نجم سرحان، واسترحت. فلينم آمناً في مرقده البليل!

واطلقت اغاريد البهجة. شرعة الغاب ادركت تمامها. وامسكت صفية قلبها المرضوض عن الصراخ. ابوها يعلو حبها. وانى تهنأ ودم نجم سرحان ينتفض بالتظلم والنواح؟... وطفرت الى القبر على فيّاح الطرب، صارخة بملء فمها: ابي، ابي،

انتقمت لك من الجاني الاثيم . فاطرب . واخلع عنك القطوب. ابنتك ثأرت للدم الطليل !

فتاوجت في اذنيها اصداء بعيدة الرنين، الا انها عذبة الوقع. خيل اليها انها صيحات الرضى، تنطلق من حنجرة ابيها. نجم سرحان الناقم ، الغضوب ، دبت الى رفاته نشوة الارتيـاح . فهو لا يتنكر لاحكام شريعة الغاب السمحة، السكوب، وقد نشأ في ظلها، ودان بدينها ، وانتشى بعصيرها . والمعادلة سنّة الانصاف . فما كان « حمورابي »، وهو يقرّها في شعبه، وتأخذها عنه الأجيال والأحقاب ، الا هادياً بصيراً . إن صفيّة سرحان لمن الشهود العدول !

•

عيد الميلاد

١

احمد المسكوبي، يشتغل في بيروت ، معلم خضرة في سوق النورية ، القائمة بعفشها ، ونفشها ، على كتف سوق سرسق الطويلة، الضيقة . والسوقان تكتظان ابداً بالخلق . والسعيد من استطاع اجتيازهما سليماً من الصدمات . فلا بد لمن يسير فيهما ان يلقى ضربة سلّ ، أو لطمة كيس ، أو صدمة كتف . فيدفعه الزحام يمنة ويسرة . وتتقاذفه أمواج الناس ، في ذلك المدى المكدود ، الى حيث لا يريد الوصول . والا فعليه الاستظهار بقوة ساعده . فيجاهد في شقّ طريقه بمضاء . قاذفاً بصدره، وكتفيه ، من حوله من الحشد المرصوص

وانه ليشقى في سعيه، ويتأفف . ويزداد الشقاء عندما تمرّ في السوقين عجلة ذات دواليب. فتتطاير امامها الجماهير، ليقع بعضها على بعض ، في صخب وتذمر . ومع كل ما في اجتياز السوقين من تلاطم ، ومشقة ، فالقوم هناك امواج تلو امواج ، كأنهم اكوام من حصى في جوف غدير

وماذا في السوقين ؟... سوق سرسق اشبه بجراب الكردي، وقد حفلت بكل ما هبّ ودبّ من البضاعة الرخيصة ، او المعلنة

كونها رخيصة، وقد اضحت في كاوي الغلاء. ولكنها السمعة، وهي تخدع . فكل مـا تطلب المرأة من زينة ، ونسيج ، ولباس ، تقـع عليه في تلك الحوانيت الصغيرة كالاعشاش ، المتلاصقة كالشعر في الرأس الأقرع، المبسوطة الابواب لعدة حوانيت، كأنها اسواق في سوق . وكل ما يبتغي الرجل من كسوة لا يضلّ عنه في الممرّ الضيق الرحيب، وقد تفرعت منه سراديب وأوجار. فالسوق عامرة. والرخص، بل الظن ان هناك رخصاً، جلاّب. وتتفاقم الزحمة بالباعة الجوّالين. فانهم ليملأون العطفات بصناديقهم المفتوحة، الحاوية من الاصناف ما يكاد يخلو منه مستودع. ففيها، على صغر حجمها، ما لا يهتدي اليه المرء في سوق عريضة، حافلة بالجليل وبالضئيل. عدا الدلالين، وكل ما تنفث الدور، والأكواخ، من رثّ عتيق ، هناك مثواه

وسوق سرسق تجد في سوق النوريّة اختاً لها . فالزبن هم هم. طلّاب الرخيص . وسوق النوريّة مهد الخضرة في بيروت . لها ساحة كعش العقرب، وأزقة كارجل الاخطبوط. والباعة منتشرون فيها على الجانبين ، وفي وسطها ، وزواياها ، حتى ليصعب فيها الخطو، كأنها الفجوات الوعرة. وصيحاتهم تصمّ الآذان. فكل يغني على ليلاه. هنا بائع فجل ، وهناك بائع ملفوف، والى جانبهما بائع بصل وباذنجان . والأقدام تضرب الأقدام. والنساء يختلطن بالرجال.

والنتن يجلد بحدته الانوف. والويل لمن يرتدي الثوب الجديد، والوحل بحيرة في بحيرة، بل خضمّ لا يسلم فيه من الغرق ابرع الغوّاصين

واحمد المسكوبي يتولى المبيع بالجملة . فالفواكه والبقول ترد عليه من البساتين ، وهو يقوم بتصريفها . فيشتريها منه باعة المفرّق . واحمد شديد الرضى عن دهره . فيربح في نهاره ما يكفيه الانفاق براحة. وله خضرة بيته بلا بدل. وهي انفس ما في السوق. فيحمل الى امه وشقيقاته اندى الخيار ، وافخر المشمش، واصغر الكوسى، واشهى البطيخ. فالناضر والبانع له قبل الجميع

واستطاع ان يجمع من عمله بعض المال، وان يصلح شؤونه. كان يرتدي السراويل، فأضحى يرفل بالثوب الفرنجي. وكان يسير بطربوش ، فبات حاسراً ، مكشوف الرأس ، كما يفرض عليه الزيّ الأخير . وعمد الى رياش بيته فاصلحه، وما توانى في شراء الطريف . واغتبطت أمه فاطمة المسكوبي بنجاح وحيدها . وفكرت في ان تعقد له على ابنة حلال . أليس من حق هذا المكافح أن يهنأ بشبابه ، وبتعب يمينه ؟

وأحمد في الثامنة والعشرين . ورث عن أبيه أربع نساء . أم أحمد ، أمه ، وثلاث شقيقات دونه سناً . غير انه توفر على إعالتهنّ بهمة وإخلاص. فما تهاون في أن يخلع عليهن عطف الأب ، وولاء الشقيق . وجهلن ، وهوْ سندهن ، ان الزمن

جار عليهن بسلخ المعيل الأكبر منهن ، أبي أحمد المسكوبي .
فكل ما كان يجود به الأب على امرأته ، وبناته ، قام الابن بادائه بولاء العادل الأمين

وبحثت الأم والشقيقات عن فتاة تليق بركن البيت . فمن هي هذه المشرقة الحظ ، الجديرة بأحمد ؟... وتعبت الأم في اختيار أجمل فتاة لوحيدها . وعرضت بنات الحي ، وبنات الأنسباء. فلماذا لا تزف الى أحمد ابنة خاله نفيسة ؟... وحدثت بناتها عن ابنة أخيها . فلم تلمس فيهن ميلاً اليها . وفي جمالها ، في عرفهن ، عيوب. أليست كبيرة الأنف، ضخمة الساقين ؟... ثم هي ابنة ست وعشرين ، تكاد تكون في سن أحمد . ولسن يرضين لأخيهن ابنة ست وعشرين ، وقد تحرمه الأولاد . وأم أحمد تضطرب عندما يعرض لها في بال ان أحمد سيقيم من الأولاد في حرمان . فما أنفقت على تربيته ثمانياً وعشرين حجة كي يضن عليه الزمن بالأبناء ، بهجة الدنيا ، وزينة البيت

ولكن، إذا شكت نفيسة العقم — ومن يدري انها تشكوه وما تزال بكراً ؟ — فهل تعاني هذه العلة صبيحة ، ابنة اخت فاطمة ، الأم ؟... قالت أم أحمد تخاطب بناتها : وماذا تعبن على صبيحة، ابنة خالتكن، أيبدو لكن منها انها دون أخيكن؟... وضح لي منه أنه يميل اليها . فيصبو الى محادثتها، ويشتاق مرآها،

فما يمنع زواجه بها ؟

غير ان الشقيقات يتنكرن للنسيبات . ويطمعن لأخيهن في فتاة غريبة عنه . فالغريبة، في معتقدهن، لا تشمخ عليهن، شأن ذوات القربى . وما ترددن في أن يرمين صبيحة بالمثالب : هذه متعجرفة . تحسب نفسها في مقام الأشراف. فلا نرضى عن زفافها الى أحمد . وأبوها تاجر في سوق الطويلة . فما خُلقت لتكون امرأة معلم خضرة . نحن نسمعها ونعي ما تقول. فالأرض تضيق بالبطر والدعوى !

فصاحت الأم : ولكن صبيحة ابنة أختي . ولست أراها تنفر من ابن خالتها . أما رأيتن كيف تتلقاه بالبشر، وتفسح له بجانبها ، وتحادثه ضاحكة راضية ؟

فما ظهر منهن انهن يؤيدن هذا الزواج . صبيحة ترجحهن علماً ، ووسامة ، وغنى . وهن ينفرن ممن تتفوّق عليهنّ في الحسن والمقام . قالت الأم : ومن نختار لأحمد اذاً ؟... هذا فتى من حقه أن يهنأ بنضرة أيامه . فليس له أن ينتظر كي يمسي في الأربعين . ساعدنني على اصطفاء من هي جديرة به . فمن تصلح له من ذوات الملاحة ، والصيت الحميد ؟

فأخذن في تقليب الأسماء . جمعنها مئة مرة ، ونثرنها في مهبّ كل ريح .فما حاز اسم واحدة إعجابهنّ . وشعرن بصعوبة

الاختيار . هذه طويلة . وتلك قصيرة . هـذه كبيرة . وتلك صغيرة . فما خلت فتاة من شين ، كأن الكمال وقفٌ عليهن . بل كأنهن ينتخبن هذه الزوجة لأنفسهن ، ويأبين إلا أن تكون فريدة حسن وطبع . فما درجت في بيروت من تليق بان تكون لأحمد المسكوبي امرأة . هذا في زعم شقيقاته . فالعنت الممسك بهن ، أقصاهن عن الاهتداء الى من تستحق ان تدخل بيت أخيهن ، زين الفتيان ، ووحيد العصور !

ولكن الصغيرة عائشة ، وهي على فطانة بالغة ، تلفظت باسم لم يجد ممانعة في ذلك الجو العنيد . وبذلت الأدمغة مجهودها في الفلّ من حده ، وتلطيخه بالعيب ، فما وفقت للمشتهى . ومن هي هذه البريئة من المقابح ، الرفيعة عن المغامز ، الظافرة بها عائشة ؟... هي شادية المخزومي ، ابنة رشاد المخزومي ، تاجر الحديد في حي الصيفي . غادة في العشرين ، في عمر عائشة . تعارفتا في المدرسة ، وكانتا تجلسان جنباً الى جنب ، وتلعبان معاً ، وتضحكان من المعلمة ، وتخدعانها في تلاوة الأمثولة ، وكتابة الفرض . ولكن أترضى شادية بمعلم خضرة ؟

هذه هي العقبة . فالفتاة ابنة قوم كرام . نقية الثوب ، وافية الرونق ، راقية التفكير . على انها قد تعرض عن فتى ليس من مستواها . قالت عائشة : وما يمنع أحمد أن يكون

من التجار ، فينصرف عن حرفته، ويتولى التجارة، فيسقط على أكرم غانية !

وقرّ الرأي على مخاطبة أحمد في الاشتغال بالتجارة، المتعالية عن الخضار . فيظهر في المجتمع بمظهر خطير . الا ان أحمد كان بمعزل عن هذه المباحث جمعاء. فما درى بما تتخاطب أمه وشقيقاته، وأي حديث يدور عليه . وذات ليلة ، وقد جلس الجميع للعشاء بمباذلهم ، وتحلقوا على مائدة سخية باللحوم ، نثلت الأم كلمة تفتحت لها الأسماع باهتمام ، ورقبت عنها جواباً . قالت أم أحمد تسوق الى ابنها الكلام : ألا تشعر ، يا ابني ، بانك أصبحت في مقام يفرض عليك التقدم في عملك ؟

فأدهشته المفاجأة واستقصى : وماذا تعنين بالتقدم، يا امي ؟

فأعلنت فاطمة المسكوبي تجلو الخفيّ : أنت مدعو الى غد نضير ، يا أحمد . وهذا الغد أرجو ألا يضيع في حرفة بيع الخضرة، يا ولدي . فإن قرارك في سوق النورية بات دون مقامك. ولقد ربحت منها ، والحمد لله ، المال الجزيل . وبقي عليك ان تستغني عنها لتقوم بتجارة أرفع . فنحن نميل الى تزويجك احدى ذوات الرواء والمكانة ، يا روح امك . ولا يسهل الأمر علينا الا وأنت من عيون التجار . أفلا تجدني على صواب في ما أبدي ؟

ولاح الجدّ في قولها . وسطعت في عينيها الرغبة العزوم . فضحك أحمد بملء فيه ، وقال : وأي عمل ترين أن أتولى ، وأنا أميل عن الحضرة ، يا أمي ؟

– عندي أن تكون تاجر خشب على المرفأ ، أو تاجر بضاعة في سوق الطويلة ، أو ...

فصاحت شقيقاته بأجمعهن : لكن تاجر بضاعة في سوق الطويلة !

فابتسم وهن يطلبن أن يبصرنه حيث يشفين نهمتهن . قالت الام : لا بأس أن تكون تاجر بضاعة في تلك السوق ، والغد يفتح لك ذراعيه !

فقال مازحاً : ولكن لماذا لا أكون تاجر خشب في المرفأ ؟

ونظر الى شقيقاته في مداعبة خبيثة . فصحن نافرات : لا ، لا ، تاجر البضاعة أفضل . فتقبل اليك النساء بالعشرات والمئات !

– وإذا كنت أجهل أذواقهن ؟

– هن يرشدنك اليها !

وعلت القهقهة من كل جانب . فأضحى المنزل نادي مسرة . واستلذ أحمد السكون الى هذه الحياة الفرحة ، الخالية من اللؤم والحسد والرثاء . وود ان يعلم ما يدعو أمه وشقيقاته الى اخراجه عن بيئته . أفلا ترضى به من يختونها له الا وهو في سوق الطويلة

يتاجر بالنسيج ، وبالعطر ، وبأحمر الشفـاه ؟. . . واستوضح : ولكني أربح وافر المكاسب في سوق النوريـة . ألا تجدن لي زوجة تميل إليّ وأنا في مكاني ؟

فأجابت الأم بغبطة: في نيتنا، يا ابني، ان نختار لك عروسة ترضيك . ولن نجد فتاة خليقة بك وأنت معلم خضرة. فرأينا ان نحثك علـى الانصراف عن حرفة لا تسمو بك الى حيث تخالق أكابر القوم . ولسنا نبتغي سوى تعظيـم شأنك ، وتخضيب أيامك بالجاه اليافع ، الغرير !

فلمس في مقالها المدى. عليه أن يبحث عن مستقبله في ناحية أسمى . طال ثواؤه بـين صناديق الليمون ، وأكوام القثاء ، وأقراط الموز . فالانسلاخ من هـذه الدنيـا المحدودة الافق أولى . ونظر في ما تملك يده . فاذا يمينه تقبض على مبلغ من المال يكفيه في تجارة مرموقة . قال مازحاً : وأية فتـاة تختزن لأحمد المسكوبي ، تاجر الحرير في سوق الطويلة ؟

فصحن بنبرة طروب : شادية المخزومي !

فاتسعت عيناه اغتباطاً. أيرقى الى هذه القمة؟...قالت عائشة أخته الصغرى : هذه صديقتي، يا أحمد . وأنت تعرفها . فقـد ترددت منذ زمن الينا . وانها لترفـل بحسن عزّ فيه النظير ، وبأدب مستوفي الحد . وأبوها من تجار الحديد في حيّ الصيفي.

فهو ذو مال ومكانة . فاذا تم لك أن تتزوجها ، وثبت الى غد سعيد !

فاستولى عليه التفكير . انما تعرض عليه امه وشقيقاته ليشوقه . أجل ، ما عليه اذا هجر مبيع الخضرة، وكان من تجار النسيج؟... فالمجال أرحب . والمكان أرفع . وهناك شادية المخزومي ترقبه. وانه ليذكر كيف رآها ، وبما خاطبها ، وأي أثر طبعت في نفسه . فلا يزال يتمثلها كأنها تقف الساعة تجاهه . وضحك من طماحه لما علل بها قلبه . فأين هو منها ؟. . . أما الآن ، فقد يتحقق الأمل ، على وعورته. فاذا أنشأ له محلاً في سوق الطويلة، وراجت أعماله ، فلن يبخل عليه السيد رشاد المخزومي بابنته المحتشمة ، الروعاء.

وبسمت الامنية لاحمد وفيها طماحه . ونام ليلته على هدهدة المعالي. سيكون ذا شأن في بني قومه . وما طلع عليه الصباح، حتى تباطأ في الغدوة الى عمله . لن يكون معلم خضرة . فقد كره الميزان ومحادثة الفلاحين والحمالين . وبات يتوق الى الذراع، ومخاطبة الأوانس . وبدا فيه الملال، وقد ارتاد سوق النورية، يوفق بين البائع والمشتري . وردد على مسمع اخوانه انه ضاق بحياة الخضرة ، وأخذ يحس بأنه فيها على ضجر ، ناهداً الى ما هو أسمى. فضحكوا منه. أيرجو أن يكون من تجار الذهب؟...

فالمهم أن يكسب المرء قوته ، وقوت عياله . وأحمد يربح هذا القوت على طمأنينة . بل أرباحه جاوزت نفقاته ، فأصبح من ذوي اليسر . أفلا تكفيه النعمة ؟... قالوا : لا تبطر . فالبطر وبال عليك !

ولكنهم لم يقووا على اقناعه بالبقاء في صفوفهم . فان طيف شادية المخزومي ليحول بينه وبين الرسوب في الأعماق . وقطع كل صلة بسوق الملفوف ، والعنب ، والتين ، والزيتون ، والفول الأخضر ، واللوبياء . فهو غريب عنها . وساقته همته الى سوق الطويلة يستأجر فيها محلاً لبيع الحرير والطيوب . ولمع في أعلى باب المحل اسم « أحمد المسكوبي » ، بحروف نوافر ، ضخام . وتأنق أحمد في ملبوسه . وأضحى فوراً ، لفرط اقدامه ، واشراق حظه ، من المرموقين في التجارة . وخاطب أمه وشقيقاته بقوله : وماذا عليكن الآن وقد خطبتن لي شادية ؟

فهي مطلبه . وشعرن بأنه سما الى مقام وزين . وأسرعت اخته عائشة ، الى صديقتها شادية المخزومي ، تحدثها عما بلغ احمد من مكانة . أصبح من تجار سوق الطويلة المغبوطين . فاستفهمت شادية متعجبة : أصحيح ؟

فقالت عائشة : هلمي اليه . أليس في نيتك شراء ثوب جديد ؟ ... تعالي وانظري أي بضاعة يزدان بها محله !

وسارت بها الى المحل الزاخر بالنفائس ، الحافل بشواهد السعد. فراق شادية الاتقان الموفور باستفاضة ، وحدثت عنه أباها . فأبدى السيد المخزومي الاعجاب بالهمة الموفقة . وأثنى على الشاب الواعد. بيد انه ، ما خوطب في عقد الخطبة ، حتى جرض بريقه . أيزف شادية الى معلم خضرة ؟... ولكن معلم الخضرة اضحى تاجراً في سوق الطويلة . والناس ينظرون اليه في مقامه الجديد ، وقد محا بيده المجدولة عنوان الأمس الهزيل . فما تمالك والد شادية ، ازاء الحقيقة الساطعة ، ان اعلن موافقته . قال : احمد بلغ باجتهاده الحظوة الرضيّة . وما ارتقى اليه من مكارم يحملني على تحقيق امنيته . فله ابنتي . ولست اخشى عليها في عصمة هذا العصاميّ!

وعُقدت الخطبة والجميع في بهت . أتصير شادية المخزومي الى معلم خضرة؟... ولكن ما ادرك احمد المسكوبي من منزلة اخرس كل مهذار . فالمرء بما وصل اليه ، لا بما نشأ فيه . وبدا احمد على مساواة بخطيبته . فالجهد غالي الثمن ، مدرار المغنم ، وقد كتب للشاب التفوّق على حاسديه ، وشانئيه . وكم تكاثروا بعد طفرته غير المنتظرة الى عالم الخير والعز !

٢

تجارة احمد المسكوبي في سوق الطويلة على رواج وغاء. فلقد تحدثت عنها النساء. والنساء إذا رضين ملأن الآذان اطراءً وشكراناً

واحمد جاههن بالبضاعة الناطقة بالجودة، وبسلامة الذوق. وقنع بالربح اليسير. وفي القناعة غنى. فباتت ذات الاناقة تفاخر بكون ثوبها من محل المسكوبي

والشاب بمن يؤمنون بالحظوظ، وبالوجوه. فابى الا الاذاعة ان وجه خطيبته شادية حمل اليه اليمن والبركة. وتوالت عليها هداياه. بحر طمى فأفاض بالنفائس الدهاق. ونضا عن قلبه الستر، فتدفق في سرد لواعج حبه. فهو هائم منذ زمان. الا ان الجرأة فاتته. فما اقدم على المصارحة بالهوى، الا وقد اكتنزت الضلع

وامسك يد شادية معلناً: ما حسبتني ابلغ منك هــذا المستوى، فنتعادل، وكنت في يأس منك. الا ان القدرة ابت ان تقيم قلبين ولوعين على انفصال!

واتقدت فيهما ميول واحدة. فهما على هناءة. وكان الزواج. فساد الطرب منزل احمد المسكوبي. ورقصت امه وشقيقاته بهجة وأنساً. وبدت شادية في حلة العرس طيفاً من اطياف الجنة. وانتشى احمد بالنعمة الفضفاضة، المجرّرة اليه الاذيال. وما كان يرقب لها بزوغاً

واشترى سيارة . وجاب بها وعروسه اعالي لبنـان . فما عتبت عليهمـا عاليه ، ولا بحمدون ، ولا صوفر ، ولا زحلة ، ولا بكفيا، ولا ضهور الشوير . ووثبا الى بسكنتا ينعمان بمرأى صنين الجبّار . وعرفا السعادة الجميلة الملمس . وغـابا في فتنة اللذائذ ينهلانها من كؤوس طفاح

غير ان الام ، والشقيقات الثلاث ، ابدين القلق . ليس في شادية ما يبشر بالحبل . منذ سنة وهي في منزل احمد المسكوبي ، دون ان تتمخض احشاؤها بجنين . واحمد وحيد . فاذا لم يرزق ولداً ضاعت السلالة ، وانطفأ الاسم . ولمن هذا المال كله ؟... فهل جمعه احمد ليرثه اصهاره ، ازواج شقيقاته ؟... ما اكرم الاصهار ، وما يفرحون بسوى مصائب اهل الزوجة !

واستباحت الشقيقات نشر الظلامة ، بعدما ضجّت بها الام. ونقلتها الى الجيران باديات الكمدة . والجيران لهجوا بها ، وهم يرصدون علة تنتاب الاسرة الهانئة كي يغمزوا بها، وينغصوا عليها خفضها وطمأنينتها

وفي إحدى الليالي ، وقد احتشد الأهل والأصدقاء، في دار أحمد المسكوبي، تحدث صديق، خشن البيان،عن انتعاش البيت بالأولاد . فهم فرحة القلب وزينة الدنيا . فدمعت عينا أم أحمد وقد هالها عقم شادية . وقالت عـلى مسمع من الجميع : ليقبر

أمه أحمد . ليس في نفسي منه غير هذه الحسرة !

وبكت كأنها في مأتم . فقال كل من ضمهم المنزل : ولماذا البكاء ، يا أم أحمد ؟... ما يزال الأمل يبشر بالعطاء !

وقام اليها ابنها يلومها. وامتعضت شادية المخزومي، وشعرت بالذلة. لا، لم ترزق ولداً. وهو ما خشيت سوء مغبته، وقد سقط اليها ان روعة الحياة المال والبنون . والمال جمعه زوجها . أما البنون فما اشرقت لهم طلعة . قال أحمد : لنقنع بما يهب الله . فلا يقتل الانسان غير الطمع !

وأفاض بآيات الكتاب . انّ الله لجوّاد كريم . ومنع أمه من العودة الى المظهر الكئيب . وردّ على من نكأ الجرح بقوله : أنا وامرأتي على رضى ووئام . وهو حسبنا !

وفرض على جلسائه الانقطاع عن الحديث، وفيه ما يدمي. غير ان الجرح لم يكن ليندمل في نفس شادية ، فنزف على فوران. ولما خلا احمد المسكوبي بامرأته، قالت تجلو الموقف: أنا لا أحاول ادانة أمك ، وهي على حق في ما تتألم منه . فعلينا أن نسير الى الطبيب لينظر في أمرنا. فمن الصعب أن نبقى كما نحن ، بلا أولاد يضيئون أيامنا !

وجدّت في المطلب. فهي كأمه على قلق وارتباك ، والأمومة شهيّة الى كل أنثى . وما أشرق الصباح حتى كان أحمد وزوجته

في عيادة طبيب متخصص بالتوليد. وتعجب الطبيب منهما كيف لا يلدان وكل ما فيهما مستكمل الجهاز. قال أحمد المسكوبي : أما من دواء ؟

فأجاب النطاسي : لستما بحاجـــة اليه . اتركا للقدر يده فيكما !

فعادا مستبشرين خيراً . وحبا أحمد الى أمه يقول : نفى الطبيب كل عقم عنا . أنا وشادية على خصب . ولكن علينا أن ننتظر سخاء الزمن !

فاطمأنت أم أحمد بعض الاطمئنان. وهي مع حبها لشادية ، واعجابها بها ، لم تكن تغفر لها عقرها . فمن الظلم ان يبقى احمد بلا نسل . وانقضت الأيام والألسن محبوسة ، إلا ان عقالها غير محكم العقدة. وتوالى شهران، وثلاثة، والحالة لم تتبدل . فتململت ام أحمد ، وخانها الصبر ، ففارت فيها شهوة الطعن ، والقرص ، ونفث السم . وإذا هي خافت من ايلام ابنها ، ولم تطلق في مسمعه فحيحها ، فما تورعت عن حشو آذان بناتها بالتفجّع العضوض ، بالصخّاب : أحمد سيبقى بلا وارث ، واويلاه !

وتفرك يديها وتخلج شعرها . وتتأوه . ابنها لن يبتهج بالأولاد . ولا تتمالك أن تعلن في ساعات نقمتها ، والدمع يغزو عينيها : الحمد لله على كوننا ندين بالاسلام ، وهو يجيز الطلاق .

وإلا لكنا في داهية دهياء. أيعدو علينا الانقراض؟... اذن لمن جميع هذا المال؟

وتحدثت عن الطلاق بلا ونية ولا احتراس. على أحمد أن يعيد شادية الى أهلها ما دامت غير ولود. وشاطرتها بناتها الرأي. الطلاق وحده ينقذ من البلوى. ولم يكن من أم أحمد، في صباح ذات يوم، الا ان وثبت الى ابنها تقول: أترضى بأن نمحى؟... عقم امرأتك سيودي بنا ويطمسنا!

ولم تكن شادية في المنزل. فقد برحته الى بيت أبيها تشكو هناك مصيبتها. قال أحمد متأففاً: يدهشني من أمي سعيها للافساد بيني وبين امرأتي. ألا فلتعلم ان شادية مستقرة مني بمهجتي. فاذا نأت عني لفظتُ روحي!

فصاحت الأم وهي ترتعد: أتعيش بلا نسل؟... انك لتحبها اليوم، ودفء الحنين يتوهج فيك، ولكن هذا الحب سيفتر غداً، وتشعر بالبرودة، فتكره شادية وتندم على استبقائها. فالأولاد وحدهم يشدّون بعضكما الى بعض، وأنتما منهم على نفاد. فابعدها عنك. طلّقها. وإن تكن شغفت بها حتى الحرص عليها، مع كل نقص يعروها، فلا تتردد عن ضرّة تجيئها بها. هذه للحب، وتلك للأولاد!

فضرب الأرض برجله صارخاً: أنتِ تسعين لقتل روح.

للقضاء على حياة . فلا تكوني مجرمة . لا تكوني حماة تذبح بيدها امرأة بريئة لا تطيق ظلّها.هذا الصراع بين الحماة والكنة أعرفه، وأربأ بداري عن نكده. فما بكِ لا تصوني مسكني من البلبلة ، وراحتي من القلق ؟

فهتفت بامتعاض ، بمضض : وحقك ، ستندم . أراك منذ الساعة تعضّ أصابعك تحسراً . اعمل بما تريدك عليه أمك ، وأنت الرابح . فلا تعرض ذريتك للهلكة !

فسدّ أذنيه بيديه وهو لا يزال على صياحه الحانق : ابتعدي عني . لا أريد الاصغاء الى الحديث الدنيء . ليس من قوة تزحزحني عن شادية المخزومي. أما اخترتها لي بنفسك؟...قولي. ليس الذنب ذنبها ان تكن لا تحبل ولا تلد . عدا ان الطبيب لم يقطع منها الأمل . فلا يزال في الغد رجاء !

قالت بشدة تتنصل بها من التفريق بين قلبين:لست أزحزحك عنها . ولكني أطلب منك أن تتزوج امرأة اخرى . فالدين يبيح لك الازدواج !

فما كان منه الا ان أمسك بذراعها، وقادها الى خارج الحجرة، وأقفل دونها الباب . حديثها لن يلقى عنده سمعاً . وارتدى ثيابه ووجهته محله . وما صفا خاطره . فهو مضطرب الروح . امه تنطق عن شهوة في نفع ، لا عن كره لشادية ، الا انها

تبالغ في اظهار الاخلاص . فالموقف لا يفرض هذا العداء . وكيف يبعد عنه شادية وقد علقها، وأما يحتمل ان تقع عليها عين شزراء؟...لا، لن يطلقها ، ولن يتزوج عليها، وضميره يمسك به عن إيلام من وهبت له نفسها ، وحفظت عهده . وان تكن عاقراً فالتبعة ليست عليها ، بل على القدر

وصمم على البقاء لسيدة جنانه . ولا بأس أن يرحلا عن دنياهما بلا أولاد . ولماذا الأولاد ؟... أيلدانهم للشقاء ، وما من مخلوق الا ويشقى ، مهما بلغ من السؤدد والثراء ؟

وضحك أحمد وأقصى عنه الكربة . لتطلق امه زعقاتها ، فلن يعيرها أذنيه . وفي المساء شخص الى امرأته ، في دار ابيها ، وطاف واياها حول بيروت . فاتكأت شادية على كتفه وما استطاعت الا أن تبكي فتذيع أساها . فانتفض أحمد كالملسوع ، وهتف بألم : شادية ، ما يدعو الى صبّ الدموع ؟

فأعلنت بظلامة الجريح : ألا تدري ، يا أحمد ؟... أحس بأني جانية عليك . أمك ليست على ضلال في مخاوفها . انقضت ستة أشهر على رؤية الطبيب إيانا ، وما نزال من أمرنا حيث كنا . فالحبل يبعد عني ، مع سعيي اليه . ومن الجور أن أبقى في كنفك وأنا المرأة العقيم . فطلقني . افسح لي في النأي عنك . اني لمجرمة اذا رسخت في عصمتك على ما بي من نقصان !

وأذلها دمعها . وتكلمت بحرقة وزفير . فقال أحمد يستهين بعبراتها: أهذا ما يحملك على البكاء؟...ولكنك تذيبين نفسك بلا جدوى . ستبقين في منزلي . ستظلين عقيلة أحمد المسكوبي . فلست أرغب في أن أرى تحت سقف بيتي وجه سواك. سأقصي الجميع عني ، وأستبقيك ، وأنت عندي خير من يصفو به عيشي!

فقالت وهي تغصّ بريقها : لن ابقى . سارحل عنك في ساعة من ساعات الغفلة ، اذا ابيت ان تفرج عني برضاك. فتبحث عني، ولا تجدني. اصبحت في جانبك كأني في سجن، وانا تلك العاقر . فاقصني عنك ، وكن لسواي. فانه ليروقني ان تنعم بالاولاد، فيزدان بهم بيتك ، ويحلو زمنك . وستراني اقبل اليهم بنفسي للاعتناء بهم، ورعايتهم. لا تحمل لاجلي المضض وقلق البال. شادية ممسكة بهواك . ولكن المصلحة ترجح الهيام !

فاصرّ على القول : أنت وحدك امرأتي . واني لمؤمن بانك وجه خير . فاذا صرفتك عني قتلت نفسي بيدي !

فاكبرت فيه الاخلاص . على انها لن تكون دونه في شوط السماح . فما دام يضحي في سبيلها باعز ما عنده ، وهو النسل، فلماذا لا تجود لأجله باكرم ما عندها ، وهو الاستقرار بعصمته ؟

ستنأى عنه العقيم ، وليتزوج ولوداً . شادية المخزومي لن تسخو عليه بالذراري . قالت : فكر ملياً في غدك ، يا احمد . فأنا

اضن بهذا الغد ان يذوي . لأجل من تصارع الحياة ، وتحشد الذخر ؟ ... أليس لمن يحفظ اسمك ، ويترحم عليك ، ويقي سلالتك الاندثار ؟... شادية المخزومي لن تحقق املك ، فدعها واطلب لنفسك من تنفحك بالشهوة الخيّرة ! .

فما وني يستخف بملتمسها . قال يميل بها عن المبتغى الوعر : انسخي من ذهنك مخاوفك . احمد المسكوبي سيبقى لمن احب . ولماذا الاولاد ؟... هل لك ان تحدثيني عمن سعد ببنيه ؟... انهم ليرقبون موت من افنى العمر في خدمتهم ليرثوه ، بل هم يحاولون ان يرثوه قبل ان يفيض بأنفاسه. وماذا يلقى منهم وقد نفحهم بماله ؟... انهم ليرذلونه ، ويتناسونه ، فيقضي في مهانة . وربما في جوع . وكم يلقى من اهوال كي يبصرهم كباراً . وكم يعاني من صدمات وقد كبروا . ألا انتزعي من صدرك الميل الى الاولاد ، وليعش بعضنا لبعض . فكما عرفنا الحياة شهية ، فلنمض في الاستمتاع بنواضرها حتى يذيبنا الفناء . لنكفر بالاولاد، وليس منهم نفع . ولنعرف كيف نتلذذ بحبنا ، وهو الابقى ، والأجدى !

فودت ان تعلم هل يخاطبها بعاطفة صادقة ؟... ألا يحاول اخفاء رغبته في الاولاد لارضائها ، هي اليائسة ، الملتاعة ؟... قالت : احمد ، الحب لا يدوم . سوف يقبل زمن يعترينا فيه

الجفاف ، فينطوي بعضنا عن بعض . فتزوج سواي ، واهنأ بعمرك. فتبصر اولادك يدرجون بين يديك نجوماً نيّرة ، فتغتبط بهم نفسك ، وتوقن انك ما أضعت ايامك . ارجو لك زواجاً سعيداً !

فتذكر كلمات أمه وشادية تسخو بهذا المنطق الملق، الحلوب. ومـا كان منه الا ان اطبق بيده فمها ، وقبلها في خدها قبلة اودعها لهبة حنينه.وقال: هذا حديث انتهينا منه . كلانا للآخر حتى الموت . انت عندي السعادة المثلى ، فلماذا الالتفات الى التوافه ، وكل مـا عداك هزيلٌ بخس ؟

ومـال بها الى حديث بريء من الكدر ، قائلاً : انظري الى البحر واستنشقي هواءه . تأملي الامواج المتلاطمة فيه ، الا تروقك الامواج ، وهي ابداً في جهاد ؟... لا أكاد ابصرها حتى ألتهب عزيمة ، واقبل على عملي بصدق في الكفاح . فالامواج تنهزم على الشاطىء ، الا انها لا تيأس . فيتبدد مجهودها هباء منثوراً ، ولا تكلّ ، بـل تجمع شملها وتعود فتناطح اليابسة بعزيمة امضى . هي هي منذ الازل ، وستبقى كذلك حتى المنتهى . بل حتى تفوز بمأمولها فتغمر اليابسة . فاطيلي النظر اليها . انها لعنوان الصلابة ، حتى في مقاومة المحال !

فارضاها منه هذا الرفق بها . فهو لا يتظلم منها ، ولا ينحي

باللائمة عليها، وفي صدره من الكلف بها ما يحمله على الرضى بكل ما يعروها من خسف . وابتسمت له ابتسامة الشكر . فما ضاع عندها الجميل . وما انفكت تلقي رأسها الى كتفه لتستريح من عناء الغواشي، والسيارة تهدهدها كأنها على مهد وثير. أمنت الغائلة. بيد انها لن تعتصم بالاطمئنان الا وقد سخت رحمها بثمار أحشائها

وعادت وزوجها الى مثواهما والفرحة في سويدائها . ودخلت حجرتها مستندة الى ذراعه . وابصرتهما أم أحمد في موقفهما الرخيّ، فانتفضت فيها الدمدمة: عاقر ويستميت في هواها . ستهدم غده وما ينفك يهيم بها. انه لمجنون. يتداعى، ويصبر على المحنة. سبحان من وزع العقول . لا إله إلا أنت ، يا ألله !

وثارت أم احمد. وبلغت دمدمتها آذان ابنها و كنتها. فقالت شادية وهي ترتجف هولاً : أتسمع أمك ؟

فصاح مغتاظاً : امي لا يعنيها أمري . انا لك في قلبي وروحي، ولامي في مالي وعطفي. فاعيلها وأردّ عنها الدواهي. وهو فرضٌ عليّ ، لا ارتضي دفعه عني !

وخرج الى امه يقول بوجه اربد ، ونبرة قاطعة : كفى . انا تزوجت ، لا انت . فانقطعي عن الازباد والارعاد ، وليس لك ان تنعي حيث اهنأ . اذا كنت ترأفين بابنك ، فلا تفسدي عليه اطمئنان الضمير !

فسكتت أم احمد ضناً بوجدها ان يشقى . لم تكن تستجيز لنفسها ايلامه . الا انها بدت في سكوتها على فوهة بركان، ينذر بالانفجار الذريع

٣

اقامت شادية المخزومي على خوف من ام احمد المسكوبي. فالكنة تخشى الحماة . صراع الابد لن تنجو منه الاسرة الناعمة بالفلاح. فان لم تكن ثمة علة ، فالتنافس في السيطرة على شؤون المنزل يخلقها . وللقديم والجديد ان يتصادما حتى الاضمحلال . ذاك يضنّ بخطره ان يهون . وهذا يأبى الا الظهور في معركة التؤدد والاستعلاء . ورأت شادية ، للنجاة من نظرات أم أحمد اللاذعة ، ان تعتصم بحجرتها . فلا تبدو لعين حماتها ، ولا تكابد خشونتها الجارحة

ولكن الحماة ابت ان تخفي حرقتها ، مع احتجاب كنّتها عنها. فيتواثب الكلام عفواً الى شفتيها جمرات متوهجات، فتعيده على رغمها الى ما بين اضلاعها ، صابرة على المضض. بيد ان الصبر وهى ، ولم يبقَ من سبيل الى الاحتمال . فشعرت بنفسها تدخل على كنّتها بوجه عابس، يقطر منه الكره، ويتوهج بالرغبة في الخصام . وارتجفت شادية وهي تبصرها. وودت لو يتم لها ان تغور في الارض. ولكن اين تختفي ، وقد وقفت منها حماتها وجهاً لوجه ؟

وألقت ام احمد يديها الى خصرها. وبدت كمن يروم القتال. فهدرت بصوت أبح، ينضح بالضغينة: أيروقك ما نحن فيه، يا ابنتي؟

فقالت شادية وهي تحاول اتقاء البلية : ماذا يا خالتي ، أم أحمد ، أي أمر نحن فيه ؟

فأجابت والقهر يخضخضها ، فتهتز كأنها في زلزال : ألا تدرين ؟... أتكونين بعيدة عما نقاسي ؟

– نقاسي ماذا ؟

فضحكت ضحكة يرعد فيها الويل ، وزعقت من كيل طافح : أتتجاهلين، يا ابنتي ، وانت مصدر المحنة ؟... لم نكن نعرف الكدر في بيتنا قبل ان تدخليه. عقمك حطم فينا الصفاء!

فثقل على شادية المخزومي ما تسمع، وكادت تشتبك وحماتها في شجار عنيف . الا انها تماسكت مع هول الصدمة . وقالت ببعض التؤدة : اراك تجاوزين الحد ، يا ام احمد . فاذا لم انعم بالبنين ، فاين خطيئتي ؟ ... ثم ان الامر من شأن زوجي ، لا من شأنك !

– ولكن زوجك ابني . وانا لا اريد ان يعيش محروم النسل !

فما سلمت شادية من الحدة تجاه الوخز غير الرفيق ، ونبرت : ومن ابلغك انه سيعيش محروم النسل، والطبيب نفى

عنا العقم ؟ ... ارغب الى السيدة أم احمد ان تتجنب التدخل في ما لا يعنيها !

ففارت ام احمد و كنتها تصرفها عنها بهذا الجفاء . واخذت في الصياح : ما هذه القحة الصارخة فيك ؟ ... هل لمن لا تحبل ولا تلد ان تتيه علينا ؟ ... نحن نأبى ان نرهن مصيرنا بعاقر . فما يتعب ابني ليتبدد جهده كالدخان ، ويغير على ذخره كل ذي مخلب وناب !

وما كانت شادية ترقب هذا الغليان في أم احمد المتجعدة الاسارير ، المتساقطة الاضراس ، العاوية في صراخها كأنها ذئب عتيق . فدنت منها تسترحمها بقولها : لا ترفعي الصوت ، وحق احمد، ابنك. ان الجيران ليضحكون منا اذا سمعونا . خاطبيني بصوت وئيد . فان لي اذنين سامعتين . ماذا ترومين مني ؟

واقنعتها بان تخمد من سورة نقمتها . فقالت ام احمد : اسمعي ، يا شادية . بقاؤك بجانب ابني بات محالاً . ابني وحيد . ولا بأس ان ينجب وحيداً مثله . على ان ينجب . وانت لم تلدي له البنين . فادعوك الى الشفقة علينا، وعليه، ببراح هذه الدار!

– ولكن الطبيب ...

– دعيني من الطبيب. فالشهر يُعرف من مستهله. لو كنت ذات خير لظهر الخير فيك . الا انك عاقر . فارحمينا وانصرفي

عنا ، يا ابنتي !

فانتفضت شادية في مخبئها ، وقالت بصوت بائس ملتاع : أتطردينني ؟ ... اين جريمتي اذا بقيت بلا اولاد ؟ ... لا اعتقد ان ابنك يرضى عن هـذه الاساءة الى امرأته . سارحل عنكم . اجل . فالرحيل بات اشهى من الثواء بدار يكتنفني فيها الضيم . سامحيني في قبولي احمد زوجاً . لقد اخطأت . عفواً عن البلهاء !

وتساقط الدمع غزيراً على خديها ، وعنقها ، وصدرها ، ويديها . ونهضت الى ثيابها ترتديها وتنهد الى الهجران . لن تقيم في منزل تدهمها فيه البغضاء . غير ان أم احمد ، وقد رأتها في غلواء الهياج واللوعة ، ادركت مبلغ جورها عليها . وخشيت مضض التبعة . فمالت عليها تقول باستعطاف : ابنتي ، ابنتي شادية ، ضللت عن قصدي . لست اطالب منك براح المنزل ، بل اريد ان تبيحي لاحمد الزواج بضرّة لك !

فكان العذر اقبح من الذنب . قالت شادية وقد باتت كتلة من ألم تميع رهبة وحنقاً : ليتزوج من يشاء . انا دعوته الى طلاقي منه ، فأبى . سأبرح هذا المنزل ، واحملي الى ابنك من تملأ بيته اولاداً . لو كنت ادري اني سألقى فيكم الشدة ، لما ارتضيت هذه الدار مأوى !

فارتاعت أم احمد وهي ترى شادية ترتدي ثيابها ، وتهمّ

بالرحيل . فماذا يقول احمـــد اذا جاء يسأل عن امرأته ولم يجدها ؟... والام تعرف شحّ ابنها بشادية ، فهالها سوء العقبى. وقبضت على ابنة رشاد المخزومي تسألها الحدب عليها وعلى ابنها معاً ، صائحة بلهفة : اخطأتُ ، يا ابنتي ، اخطأت . فأغفري لي جرأتي عليك . احمد يحبك ، ولا يرضى ان تبرحي مقرك . انت ربة المكان . فاننا لننصرف عنـه جميعاً وتبقين فيه . كلنا في طاعتك !

واخذت في الاسترحام بعد العرام . فقالت شادية متفجعة : بل هو لك . اني انفض منه يدي . وداعاً . اذا سأل عني ابنك ، فابلغيه ان ليس بوسعي الاختلاط بقوم يهينونني صباح مساء !

فشدّت بها ام احمد تمنعهـا من الرحيل ، وهي تقول بوهلة طروح : سيغضب احمد اذا انصرفت . فهل يروقك أن يغضب؟

قالت بمزيد الحنق : لا يغضب منكم احد . فما دمت العقبة الوحيدة دون هنائكم ، فاني اغادركم بسلام !

فصاحت الام تنادي اليها بناتها ليساعدنها على شادية. ولكن ابنة رشاد المخزومي وثبت الى الطريق ، ومشت بخطوات حازمة الى دار ابيها . وكادت تختنق في اساها . فمـا هذه المشاكـة الناخعة في مثوى زوجهـا ؟ ... جميع الغيارى على احمد المسكوبي لا يتوجعـون على حرمانه الاولاد ، كما تتوجع هي ،

امرأته . فالاولاد لها قبل ان يكونوا له . غير ان القدر ابى عليها الا ان تشقى بالحرمان

وحثت المسير الى اهلها . وهناك ارتمت في الارض تئن وتنتحب . وادركت امها سرها ، فانحنت عليها تضمها الى صدرها ، وتخاطبها بحنان كبير : ابنتي ، لا تتوجعي . ان بيتاً ربيت فيه لن ينساك . سامح الله ام احمد في طبعها القاسي . كان عليها ان تبدي حيالك نزراً من حنو ولين . فهي أم ، وعندها ثلاث بنات للزواج !

وبكت شادية وامها وغلب عليهما الصمت الاسيان . فهما تتوجعان للمصير الفاحم . وبعد لأي عسير ، قالت شادية : لا اعتقد ان احمد يرضى من امه ان تشن عليّ هذه الحملات الناهكة . فكلما ابصرتني رشقتني بالقوارص ، كأني هدمت بيت الله ، وهتكت مصون الستر . الحياة اضحت لا تطاق في المنزل الناعب . مع ان احمد يحبني ، ويدرك ان لا يد لي في ما انتابني من علة . ولكن من لنا يقنع ام احمد بانها في نقمتها على ضلال ؟

وأحمد المسكوبي ما بدا في المنزل ، وسأل عن امرأته ولم يجدها ، حتى أيقن ان كارثة تساوره . فهجم على أمه يصيح بها : ألا ماذا جرى في اثناء غيابي ؟... اي اصطدام وقع بينك وبين

شادية؟... أخبريني. أراكما أبداً على خصام. بل أراك تتدخلين في ما لا شأن لك فيه. فما يحدوك على مدّ أصابعك الى ما لا يعنيك ؟... اني لأمنعك من الافتئات بسلطة ليست لك. أنا وحدي سيد المنزل. فالزمي حدك !

فبكت أم أحمد وجمجمت بصوت حزين يتشفع فيها: ما خاطبتها بما يؤذيها. غضبت وسكنت الى الفرار. وبذلنا الجهد للوقوف بها عن الهرب، فأبت إلا الرحيل !

فغاظه ما تبدي. وجلجل: هـذا البيت مقرها. فأنى تجلو عنه؟... ولكنك أحرجتها فلم تطق البقاء في منقع الضيم. أنا زوجها، لا أنت. واني لراضٍ عن عقمها، فلا تتذرعي بالاخلاص حيث لا حاجة بنا اليه. أيطيب لك تكدير عيشي، وقطع مسرتي؟

وهاجه الغضب. فهو في دمدمة وزفير. أي نكبة ترميه بها أمه، وقد باتت لا تجيد غير التنديد بكنّتها؟... هلا التفتت الى وجه آخر تنفث فيه سمّها ؟... ما يشوقه ان يمسي مبيته ساحة لمعارك الحماة والكنّة، المنغّصة الرخاء. وهفا الى زوجته، في دار أبيها، يطوّقها بساعديه، ويقول: لا كان من يحاول ايلامك. منذ الساعة سنعيش على انفراد. لا تغضبي. أمي في غلواء الشجن. حبها لي يدفعها الى الحسرة والنزق. فاغفري لها ما نالتك به من احراج !

ومسح بمنديله دمعها . وتألم للوعتها . فهي حمراء العينين ، كابية الهمة . قال رشاد المخزومي ، أبوها : لسنا نؤيدك في الانفصال عن أمك وشقيقاتك ، يا أحمد . فمن الخيبة الصافعة ان تعاني أمك في آخر أيامها مرارة القطيعة . ولكن لترفق بابنتنا . اننا لنمنع شادية من محاشنتها ، فلتخفف من فورتها ، ولتخاطب زوجتك بلهجة الأم . أترضى بأن تكون دارك جحيماً ؟

فحرد أحمد على أمه . ولقي في تدخلها في شؤونه ما تدلهم بها روحه ، ويظلم شبابه . قال : سنقيم بمعزل عن الجميع ، ولن نختلط بأمي وشقيقاتي . لهن المنزل برياشه ، ولنا مأوى آخر نستأثر به ، ونحشد فيه الأنيق الطريف !

وكل ممانعة من والد شادية وامها لم تثنه عن عزمه . بقاء امرأته بجانب امه وشقيقاته مجلبة سوء للجميع . والشر يفرض الوقاية . واحمد المسكوبي سيتقيه . ورجع الى امه واخواته الثلاث يفاجئهن بقوله : هذا البيت لكنّ ، لا لي . فعشن فيه بسلام . وعليّ نفقاتكن باجمعها . فاقضي حاجاتكن بلا تسويف . على ان تنقطعن عن إزعاجي . شادية امرأتي ، لا امرأتكن . وسأعيش واياها بعيدين عنكن . ويعلم الله اني ما اشتهيت هذا البعاد ، الا انكن قضيتن به عليّ !

فولولن نائحات : أتنصرف عنا ؟

–لا غنية عن الانصراف. والا دهمتنا كوارث لا قبل لنا بها!

وصاحت الام: أتهجر امك، يا احمد؟... أتنكر فضلها عليك انتصاراً لامرأة غريبة؟... ألا اين اكرام الوالدين؟

وجلجل فيها اليأس والخذلان. واحست بانها مطعونة في كرامتها، وفي امومتها. فاضاعت ايامها في الباطل، كأنها ذرارة في صحراء مجهولة. فلا وزن لها، ولا شأن. قال احمد المسكوبي يدافع عن امرأته: كانت غريبة، يا امي. اما الآن فقد باتت امرأتي. وهي اقرب الجميع اليّ. اما ان اقاطعك، وانكر فضلك، فهو مما لا يخطر لي. فكل ما يفرض علي الاجلال للام تشملني احكامه. لك راحتك، وصفو لياليك. ولكن دعيني اهنأ بزواجي!

فلطمت وجهها بيديها. وشهقت شهقة أغمي عليها بها. فهوت في الارض ضائعة الحس. وحامت عليها بناتها يسعفنها بالانعاش، وهن ينظرن الى اخيهن صارخات بحقد: إفرح، يا قاتل امك!

فاتهمنه بقتلها وهو البريء اليدين. وصبر على التهمة. وانحنى على امه باكياً، مروّحاً، يخاطبها بما يفور به صدره من شعور المودة والتعظيم، قائلاً: رفقاً بابنك. فهو يميل الى ضمان راحتك وراحته. أفلا تريدين لهذا الابن الراحة؟... أما دفعته

الى الحياة ليسعد ؟ ... كوني اذاً له عوناً على التمتع بالرغد . حملت اليه الشهد ، ولكنك نثرت على هذا الشهد الحنظل ، فانى يذوق الحلاوة ؟ ... شادية ليست بالمرأة العاقر . وانا احبها حتى مع كونها عاقراً . فدعيني انفق واياها شهيّ الليالي . لست اجهل ان عطفك عليّ يدفعك الى المنافحة عني في رفاهة غدي ، ولكنه عطف يسيء حيث يلوح لك انه ينفع . فخففي، يرحمك الله ، عني وعنك !

فاستطاعت ان تجمجم ، وقد استعادت صوابها واولادها يبذلون المجهود في درء الغشيان عنها : أتتركني ، وتريد ان اهنأ ، وفي هنائك بددت عمري ؟

وغارت عليه من امرأته ، وقد استأثرت به شادية كله . فاجاب بعديد اللين : أأتركك ؟... محال . في كل صباح ومساء ستجدينني بين يديك. احمد تعوّد تقبيل هاتين اليدين المباركتين، ولن يستطيع الاشاحة عما يألف . الله لن يكتب لي التوفيق وانا اصدف عنك !

وقبل يديها الذابلتين ، وقد انتبرت عروقهما تحت وقع الشيخوخة ، وقال : باركيني . عالنيني برضاك عني . انا ابنك المطيع . وهذا الابن ، وقد احتاج الى معونتك منذ نشأته ، لا يبرح بحاجة الى المعونة ،وقد شبّ عن الطوق . مصلحتنا جميعاً

في ان اقيم في منزل آخر !

وتناول من جيبه حفنة من الذهب وألقاها بين يدي امه . فبكت أم احمد بكاء شاعت فيه المرارة والخيبة. الا ان المال ، جابر العظم الكسير ، ازال من حدتها ، وحفزها الى الرضى المبلل بالدمع الحسير. فعليها ، وهي الام ، ان تظاهر ابنها ، وتوفر له الدعة. وألوت عليه تشدّه اليها ، ولم تشبع من تقبيله ، وهي تقول : لا كانت امك. اعمل بما تجد فيه راحتك ، واشفق علينا !

وبكوا جميعاً. فان دخول شادية، الغريبة عنهم، الى منزلهم، قضى عليهم بالحرقة والشتات

٤

استأجر أحمد منزله في محلة الناصرة ، في الحي المختلط، وقد امتزج فيه المسلمون بالنصارى. والمنزل على خط القطار الكهربائي، في الطباق العالي من بناية ذات طبقتين ، ثوى بالمقر الاسفل منها جماعة من المسيحيين

وهنئت شادية في مسكنها الجديد . فهي فيه على طمأنينة . فلا تفاجئها أم احمد بوجهها الدميم ، ولا تسمعها القول الواخز الدامي . وما انقطع احمد عن أمه ، وقد وفى . فهو في كل

يوم عندها ، يجيئها كما يجيء شقيقاته بما يهب لهن الامن والرخاء
وشادية آلمها عقمها. فتنقلت في معالبته من طبيب الى طبيب. ومن قابلة الى قابلة. والأطباء نفحوها بالأمل. ومثلهم القوابل. بيد ان المرتجى لم تظهر طلائعه ، وما يبرح حلماً في مطاوي الضمير . ووثب الدمع من ناظري ابنة رشاد المخزومي يتظلم . الا أنها ظلامة لم تجد لها منصفاً . واغارت شادية على المراهم والعقاقير تسألها فيها ، فما جادت عليها بالمنى

واعتلت ذات الحرمان . فهي صفراء اللون ، ذليلة الروح. تقضّ مضجعها الشماتة . ويفتّ في هنائها احساسها بالنقص . فكأنها وجه غريب عن دنياها. وشعرت بالحاجة الى الترفيه عن نفسها، كي تنسى لبضع هنيهات اشجانها. ولم تجد سوى جيرانها النصارى تتردد اليهم ، وتخلع عنها في جوهم الصافي اوجاعها . والجيران من فئة تنهد الى الوجاهة . فما هم بالاغنياء ، ولا الفقراء . غير ان ماضيهم يشير الى النعمة ، وهي بادية الاثر في ملابسهم، وحركاتهم ، واقوالهم . فالهدوء والنظام يسودان مأواهم . فلا صيحة ، ولا قهقهة فاضحة ، ولا فخفخة يقودها الطيش ، وكل ما ثمة معتدل ، موزون

واستطاعت شادية ان تلاحظ عليهم انهم يجتهدون في المساواة بين دخلهم وانفاقهم. وادركت ان ربحهم محدود ، وان الشابين

المتوفرين على اعالة الاسرة من ذوي المراتب الضئيلة ، وما هما من ارباب العمل المستقل . قد يكونان مستخدمين في تجارة ، او في مصرف ، أو في ديوان

وما خفي عليها انهم اربعة . الام واولاد ثلاثة . شابان وشابة. ولا خادمة لديهم. فالام وابنتها تقومان بتدبير المنزل، بلا مساعد. ولم تسمع منهم جميعاً كلمة يشوبها التذمر. ولم تلمح فيهم الجهامة . فهم راضون ، قانعون

والابنة جميلة المحيا . تكاد تكون صورة امها . شقراء ، بيضاء . الا انها في قامة لا تشدّ صُعُداً . ولو ملكت القوام الطويل ، لاستوفت حد الجمال . ولمست شادية في أسارير الام والابنة البشاشة ، فليستا بعيدتين عن معاشرة الناس

وادركت من لهجتهما انهما ليستا من بيروت. فهما لبنانيتان. وربما كانتا من زحلة . ففي نبرة الصوت نفرة زحلية عذبة ، مع كل عنف فيها . وتآلفت الارواح . فالقوم من آل الزنانيري ، من زحلة . ولم تستر شادية وجهها من الشابين، وزوجها اباح لها السفور ، لايمانه بأن المرأة يزينها خلقها ، لا حجابها

وتوثقت المودات . وترددت سعاد الزنانيري ، الابنة ، الى شادية تخفف عنها في غياب زوجها اثقال الوحدة . فتبينت فيها خفة الروح، ولين الجانب . وتناسى الجميع ان ثمة ديناً فاصلاً .

بل هم لم يجدوا في الدين غير دعوة الى السماح والتصافي . وباحت شادية بسرها . فهي بشوق الى الاولاد ، والحرمان يكويها

واشفقت عليها سعاد الزنانيري وامها ، وهما تبصرانها تتحرق فيما تتحدث عن عقمها . ووقفتا منها آسفتين، ملتاعتين . فليس من العدل ان يصاب احمد المسكوبي بهذه الشدة ، فلا يرزق اولاداً. واكبرتا فيه صبره ، وحكمته . فما يتبرم ، ولا يلوم ، وما تتبدل كلمته : « لتكن مشيئة الله ! » . فالظلامة استأثرت بها شادية . فتململت ، وتصاعدت من شفتيها اللوعة تسيل دمعاً ، بل دماً

قالت سعاد الزنانيري تستفهم : أيجزم الاطباء انك سليمة من العلة ، ايتها السيدة شادية ؟

– ليس بينهم من يواني دون الشهوة !

– اذن ماذا ؟

فافاضت بالناحع الدامغ: لا ادري. انا من امري في بحران!

وجاشت فيها حسراتها . فنظرت اليها سعاد متألمة ، وودت ان تملك القوة على النجدة ، وهي مقدورة مبرورة . قالت : أتجيبينني الى مطلبي في سعي لانالتك حاجتك ؟

فصاحت شادية بلهفة المستجير : خذي نصف مالي ، وانقذيني من محنتي !

فقالت سعاد بانفة تساورها الشفقة المخضبة بيانع الابتسام : ليس في الامر مـــا يدعو الى الانفاق ، إن هناك الا الايمان الصدوق !

فاستدارت في شادية عيناهـا ، واستوضحت بدهش : لست افهم !

فاي علاج هو هـذا الفارض عليها الايمان ؟ ... هل من اعجوبة تختلج وراء ستار ؟... قالت سعاد الزنانيري: ما رأيك في النصرانية ، وانت تدينين بالاسلام ؟

فنطقت بالآية الرؤوم : « ولتجدن اقربهم الى الذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ! » . واذاعت متحمسة : الله للجميـع . والانبياء ألسنة الله. ينطقون بآياته ويهدون الناس سبل الرشاد !

فاغتبطت سعاد بما تسمع ، واستجلت : وهل تلبينني الى الكنائس اذا دعوتك الى المثول فيها؟

ـ الكنائس ، كالمساجد ، بيوت الله . ونحـــن المسلمين نرتاد كل مكان يُعبد فيه الرحمن القهّار ، رب الارض والسماء !

فابدت سعاد مستفيض البشاشة : اذن هان العسير . غداً عيد الميلاد عندنا ، نحن المسيحيين ، وفيـه ينبثق يسوع ابن مريم . وهو في كتـابكم عيسى ابن مريم بنت عمران . فهل لك ان نرتاد الكنائس معاً ، وان نجثو امام المذود ، وان ترتفع شفاهنا

بالصلاة للطفل يسوع ، كي يجود عليك بولد يحيي فبك الطلاقة ، ويبعث في منزلك الغبطة ؟

فابتهجت شادية بما تعرض عليها صديقتها . وقالت باستبشار من يبسم له الامل ، ويضنّ به ان يتوارى فيسعى لادراكه انى بدا له : ولماذا لا ، يا سعـاد ؟ ... انا على أهبة للطواف في الكنائس ، وهي معابد الخلاّق . تبارك العليّ المنّان !

وما تباطأت في الاجابة بعزم ويقين . فانطلقت الى الكنائس تجثو امام مذود البقر ، وقد غرق فيه الطفل يسوع يتوسد التبن والقشّ ، وتبثه العجماوات الدفء فتقيه الزمهرير . وانحنت شادية امام ابن مريم تلتمس منه الحدب عليها ، وانصافها من زمنها . وشاقها ان تجد حولها افواج المصلين يقرعون صدورهم ، طالبين الرحمة . فاقتدت بهم في قرع الصدر ، وفي الترجي . حتى انها كانت تخلع حذاءها عند عتبة الكنيسة وتدخل حافية ، مستعطفة خيراً . وتجلى فيها الخشوع . والتهبت بحرارة الايمان ، كأن ثمة ما ينبئها بان دعوتها مستجابة . وعادت من جولتها فرحة القلب ، مطمئنة البال . ولمس فيها زوجها المسرة ، على غير ما كان يرى منها ، والكمدة لا تنفك تعروها . فقال مستطلعاً : ماذا ، يا شادية ؟

فارتمت بين يديه بشغف وهي تقول : احمـد ، لا شيء ،

لا شيء . انا في حبور !

فارتاح الى رضاها عن ايامها . فمنذ زمن بعيد لم يقف فيها على هذا الجذل الفضفاض . وراقه هناؤها فقال : هل لك بنزهة في السيارة ؟

فهتفت : نعم، نعم. على ان تكون سعاد الزنانيري رفيقتنا!

ولم يكد الشهر يزمّ ايامه حتى احست شادية بان فيها شيئاً تبدل . غير انها ما تجرأت على اذاعة البشرى . فكتمتها حتى عن نفسها ، تضنّ بها ان تذيع مخافة الاخفاق . وما انطوى الشهران حتى اصبح الامر يقيناً . فمالت ابنة رشاد المخزومي على اذن زوجها تودعها همسة تترنح غنجاً وطرباً : بشراك !

فاستنبأ بغبطة : ماذا ؟ ... هل من خبر ؟

واهتز قلبه برعشة الامل النديّ . فكأنه ادرك ما تميل امرأته الى معالنته به . قالت : لي شهران . وان صدري ليجيش . فلا اراني الا مكرهة على القيء !

فضمها الى قلبه وصاح في سورة الجذل : لنفرح . اشرقت الآمال !

واسرع الى امه وشقيقاته يبلغهن ما يبشر به الغد . فوثبت اليه امه تعانقه ، وتعلن بصوت جهير ، مريء ، جلا كربتها : ولدي ، ولدي ، لك الهناء !

وسكبت دمعـــة الابتهاج . تحققت الامنية . وابت الا الانطلاق الى كنتها تطريها وتستغفرها . قالت بمستطيل المرح : هذا كل ما اشتهي . فعفواً عما فرط مني ، يا ابنتي !

وأم احمد طيبة القلب . ولقد ارتمت على شادية توسعها ضماً وتقبيلاً ، وهي تقول والبشر يزدحم في كل عرق يختلج فيها ، وفي كل كلمة ترسلها : ما ابتغيت ما يرجح هذه الرغبة . فالاولاد زينة الحياة . الشكر لله وقد ذكرنا بنعمته . فالسماء راحمة ، رؤوف !

واقامت في خدمة كنتها . وتوافدت بناتها الثلاث يكبرن سمين العطية . وما نسيت شادية صديقتها سعاد الزنانيري . فباتت منها كأنها شقيقتها . وحان موعد الولادة ، فاذا الباكورة ابنة . غير ان الفرحة جاوزت كل امـد . ومن تلد الاناث تلد الذكور . وسئلت سعاد عن اسم تطلقه على الطفلة ، فقالت : رجاء . انه لاسم واعد ، نغوم ، يمهد الى غد اشهى !

فصاح الجميع : رجاء ، رجاء !

وانطبعت الصغيرة بالاسم العذب ، السبوح . واحتفظت شادية من عيد الميلاد باكرم ذكرى . وما اطلّ وجهه حتى كانت توزع على اولاد الفقراء اكياس الملبس ، وثياب المخمل . وما توانت في ارتياد المعابد شاكرة ، جاثية ازاء مغارة الطفل الصبيح . ونعمت بمضاعف السخاء ، فوضعت بعد سنة مولوداً ذكراً ، كان هتفة حنان ،

واهزوجة ثمل . الا ان احمد المسكوبي لم ينس رجاء ، وهي ولده البكر . فخلع عليها خالص عطفه وحبه . فالدمى الجميلة لها . والافاويه لها . والثياب الانيقة لها . فيرفعها احمد الى كتفيه، والى ظهره، ويطوف بها البيت ضاحكا، مداعباً، مستطيباً كلماتها المبهمة ، الحلوة ، المثيرة القهقهة . وجعل من يوم عيد الميلاد عيداً لها . هذا عيد رجاء !

على ان ما أوجع احمد المسكوبي، وأمرأته شادية، اضطرار سعاد الى براح لبنان . فجاءها من يخطبها . وهو مهاجر زحلي ذو ثروة ، وجاه ، وشباب . فساء الامر شادية وزوجها ، غير ان طالب الزواج ممن لا يقبلون في كل يوم . انه لفلتة يضنّ بمثلها الزمن . قالت شادية متلهفة : أترحلين عنا ، يا سعاد ؟

فابتسمت سعاد الزنانيري ، وقالت بارتجاف في صوتها : هذا مما لا غنية عنه ، يا شادية . فلن اقيم ابد الدهر في مسكن اهلي. فالانصراف مقدور !

– وهل تطيقين الابتعاد عن صديقتك شادية ؟

– ساكتب اليك حيث اكون . وكيف استطيع ان انسى، وقد قضيت بجانبك فسحة من غوالي العمر ؟

وحبت شادية الى زوجها تنثر في مسمعه : لا تنس ما علينا حيال سعاد يوم عرسها . فاظهر ما أنت عليه من نبل وجود !

فقال أحمد : لا عليك . ستكونين على رضى !

ويوم العرس غالى في الفخامة والمسرة . فارتدت سعاد الحلل البيض . وتأبط زوجها ذراعها يرفل بثوبه الأسود ، الأنيق . وضاق المنزل بنات الزحليين . وسالت الخمور كأن مياه البردوني تتدفق في ذلك العش المنمنم . وعلت الاناشيد الزحلية والبقاعية من « أبي الذلف » ، و « الميجنة » ، و « الموالّيا » . ورقص الجميع « الدبكة » ، حتى العروسان . وشاطر آل المسكوبي القوم فرحهم . وكانت هدية احمد وشادية لسعاد الزنانيري سواراً من الماس غالي البدل ، دقيق الصنعة . وقد نقش فيه : « من رجاء المسكوبي الى سعاد الزنانيري ، ذات المعروف والوداد » . فشاقت الهدية سعاد ، وضمت رجاء الى صدرها تقبلها بحنو شجّي

وكانت الهجرة . فالزوج ذو تجارة واسعة في البرازيل . وسادت الوحشة منزل آل الزنانيري . فالعصفور طار من القفص . وتبعه الشمل . فماتت الام . وانتثر الشقيقان . وانقطعت كل صلة لهما بآل المسكوبي . والزمن يمحو بيد لا ترتعش ما كتب . كأنه يخطّ آياته على الرمل . فلا إحكام ، ولا رسوخ ، ومواليده للزوال . فما من يوم يبدو الا وهو معول في ركن امسه ، والبقاء محال

٥

احمد المسكوبي ابو اربعة ، انثى وثلاثة ذكور . والانثى رجاء . بلغت العاشرة وما برح ابوها يؤثرها على اشقائها الثلاثة، وهي الباكورة . وطاب لشادية ان يتلقى اولادها العلم في معهد الراهبات ، بجانب ساحة الشهداء . وكانت تجد فيه وفور تهذيب، ونضج معرفة . وفي كل سنة تشاطر الاسرة بكاملها اخوانها النصارى عيد ميلاد يسوع . فتضيق سيارة احمد المسكوبي باكياس الملبس ، وبثياب المخمل . وتتولى رجاء وأمها توزيعها على اولاد الفقراء

وما تمالكت رجاء، في سنتها الرابعة عشرة، أن الحت على أمها في أن توزع، بنفسها ، على عيلة فقيرة، ثياب المخمل ، واكياس الملبس . قالت الام : ولماذا انت وحدك ، يا رجاء ، فلا أكون شريكتك في المهمة ؟

فاعلنت الابنة باحتراس : هي عيلة مستورة ، يا أمي ، فلا يجوز ان يشيع امرها !

— ومن هي ؟ ... أترين من الكياسة ان تخفي عن أمك اسرارك ؟

فامعنت ابنة احمد المسكوبي في ابداء الاحتراس والاستحياء،

كأنها تخجل من أولئك المستباحين للفاقة تهصرهم ، فتوردت وجنتاها وقالت : امي ، ألا تتسامحين حيال ابنتك في خنق هذا السر ؟

ـ ولكني اريد ان أعـــلم . فلا تكتمي عني وجهاً من وجوهك !

فاضطرت رجاء الى البيان بعذوبة الابرياء ، وارتباك الغيارى. قالت : أمي ، لي رفيقة في المدرسة ترتجف من البرد . ولما سألتها عن معطفها بكت وأطرقت . وألحفت في السؤال ، فلم تجب . وعلمت من اترابها أنها فقيرة ، وان أمها مريضة ، فتبيع مما تملك لتلقن ابنتها العلم . وعرضت عليها ان تشاطرني ما تزودينني من فاكهة ، فرفضت بإباء . ونظرت اليهـا ونحن نبرح المعهد ، في فرصة عيد الميلاد ، فاذا حذاؤها مثقوب ، ورجلاها تعبّان الماء . وتعالى سعالها فادمت قلبي . فناديتها ، فتوارت خجلاً مني . ولحقت بها فلم اقف لها على اثر . فبحثت عن منزلها وعرفت اين تقيم . وعزمت ، يوم نوزع هدايا عيد الميلاد ، على ان احمل اليها بنفسي أكياس الملبس ، والثياب . وحرصاً مني على انفتها لا اريد ان يطلع احد على محاولتي . فمن الراهن انها سترفض العطية اذا درت ان هناك من وقف على امرها !

فاعجبت الام بهـذه الحصافة في ابنتها . فهي دليل ذكاء ورفق . قالت : وما اسم تلك الصغيرة المسكينة ، يا ابنتي ؟

– اسمها ندى، يا امي. وهي جميلة كالدمية، الا انها صفراء، هزيلة ، كأنها تطوي ايامها على جوع !

– ندى ماذا ؟ ... ما اسم عيلتها ، يا رجاء ؟

– يعرفها المعهد باسم ندى الحوراني. وتدل ثيابها، وملامحها، على انها ابنة اسرة ادركها الفقر ، بعد غنى ويسر !

– ندى الحوراني ؟

وارتعشت الام وهي تستوضح ، دون ان تدري ما يثير فيها الارتعاش . فاجابت ابنتها : نعم ، يا امي !

فقالت جازمة بطاغي الميل الى المعرفة : اذن سيري بي اليها!

واحست رجاء بكونها مجبرة على الوثبة . بيد انها تريثت تحاذر الايلام. فاعلنت : أخاف أن اروّعها بكشف سترها. فقد ترفض المدية اذا رأتني وحدي . فكيف اذا رأتنا معاً ؟

فشددت الام في القول :ارى ان اسير اليها ويدي بيدك ، يا رجاء . فان عيلة هذه حالها تحتاج الى رفد وسيع . ولست تقوين وحدك على جبر عظمها الكسير !

فترددت الابنـة في اجابة مطلب الام . قالت شادية : لنذهب معاً . هذه هي السيارة . فتحملنا الى رفيقتك الرازحة بالعسر !

فاضطرت رجاء الى الامتثال حيال لجاجة امها . وقادتهما

السيارة الى مأوى حقير في الخندق العميق ، بجانب معهد الراهبات العازاريات ، اشارت اليه رجاء قائلة : هنا تقيم ندى، يا امي !

وامام المبيت الزري طريقٌ مملوء بالاقذار والاوحال . ودل مظهر المساكن القائمة عن جانبيه على البؤس والرثاثة . فدنت رجاء من الباب تقرعه . فارتفع من المثوى المظلم صوت نحيل يقول : من ؟

وفتح الباب وبدت منه ندى . وما ابصرت رجاء حتى اعترتها الرعدة . وانكفأت الى الظلمة تحتجب بها . فارتبكت رجاء . ولكن امها شددت من عزيمتها قائلة لها : ادخلي !

ودخلتا معاً . وابصرتهما ندى فسطا عليها الاضطراب الذليل . شاهدتها احدى رفيقاتها في مسكنتها وغمزت من كرامتها . وتكلمت شادية فقالت تخاطب ابنة الكوخ بلطف ، وأنس : لا تخافي ، يا ابنتي . رجاء حدثتني عنك . فاقبلنا معاً لنشاطرك بهجة العيد . اليك بما حباك الطفل يسوع !

ونادت السائق فجاءها باكياس من الملبس ، وبرزمة من الثياب . فصاحت ندى ، والسعال يقطع عليها مجال الكلام : لا ، لا ، شكراً . نحن بغنى ، والحمد لله ، عن هذه الهدية . فلتكن من نصيب من يحتاج اليها من المعوزين !

فتعجبت شادية من الحمية البادية في ابنة لا تبلغ العاشرة ، واستوضحت : أتكونين وحدك في هذا المكان ، يا ابنتي ؟

فغصت بريقها وهي تجيب : لا ، فاني اقيم فيه بجانب امي !

واومأت الى فراش مهلهل،مبسوط في الزاوية ، وقد ارتمت فيه امرأة اشبه بالاموات ، لا تكاد تبدو لاشتداد الظلمة في المقر الكئيب . فدنت منها شادية تتبين ملامحها . فاخفت المرأة وجهها كالمرعوب . غير ان شادية صاحت بهول : عرفتك . عرفتك . انت سعاد الزنانيري ، صديقتي المخلصة . يا للبلية !... ولكن تزوجك نديم الحوراني الوافر الثروة ، ونأيتما عنا الى اميركا بامان ورغد ، فأي غاشية ألمّت بك ؟

فتصاعد من تحت الغطاء اعوال رهيف ، هالع : لا ، لا ، لست سعاد الزنانيري . انت على ضلال !

فرفعت شادية بعنف اللحاف عن الجسد الهزيل،وأكبّت على هذه المطروحة في الفراش الرثّ تطوّقها بملء يديها،وهي تصيح : لا تنكري . انت سعاد الزنانيري . عرفتك من اسم ابنتك ندى الحوراني . فهي تحمل اسم عيلة ابيها . عدا ان صوتك ينمّ عليك . ألست صديقتي سعاد ؟ ... ألست صديقتي ؟

وانهالت الدموع . بلى ، هي صديقتها . صحبت زوجها نديماً الحوراني الى البرازيل . وقام نديم برحلة الى الغابات فقتله

اللصوص ، وسلبوه امواله . وراعت الوحدة سعاد في بلد ليس لها فيه من تعرفه ، فجمعت ما بقي من ثروة ، وعادت الى لبنان . واذا بها تعلم ان امها ماتت ، وان شقيقيها هاجرا الى الولايات المتحدة الاميركية ولم يتركا عنواناً . ومصيبتها الكبرى ، لدى بلوغها بيروت ، ان دهمها المحتالون ونشلوا حقيبتها ، وقد اودعتها اموالها وحلاها . فتولاها وابنتها البؤس والشقاء لا يهاودان ، وما يزالان يمعنان فيهما رضاً وتهشيماً

وسالت مدامع سعاد حتى كادت تذوب فيها انفاس تلك المسكينة . فقالت شادية ببليغ الالم ، ونبيل المكرمة : انهضي ، انهضي . السيارة بالباب . احمد المسكوبي لا يعجز عن اعالتك واعالة ابنتك . انتما منا . اقفلي باب هذا المأوى ، ولننطلق الى المنزل الرحيب ، المفتوح الذراعين للترحيب بكما !

ولكن لا ثياب لسعاد كي ترتديها . فخلعت شادية عنها بعض لبوسها وهي تقول : خذيها والتفّي بها . أتنزل بك الكوارث دون ان تستنجدي بنا منها ؟

وكادت تحملها الى المركبة . وطارت ذات الدواليب بالمرأتين ، والابنتين ، الى دار احمد المسكوبي في محلة الناصرة . وصاحت شادية وهي بالباب : احمد ، احمد ، جئتك بهدية عيد الميلاد !

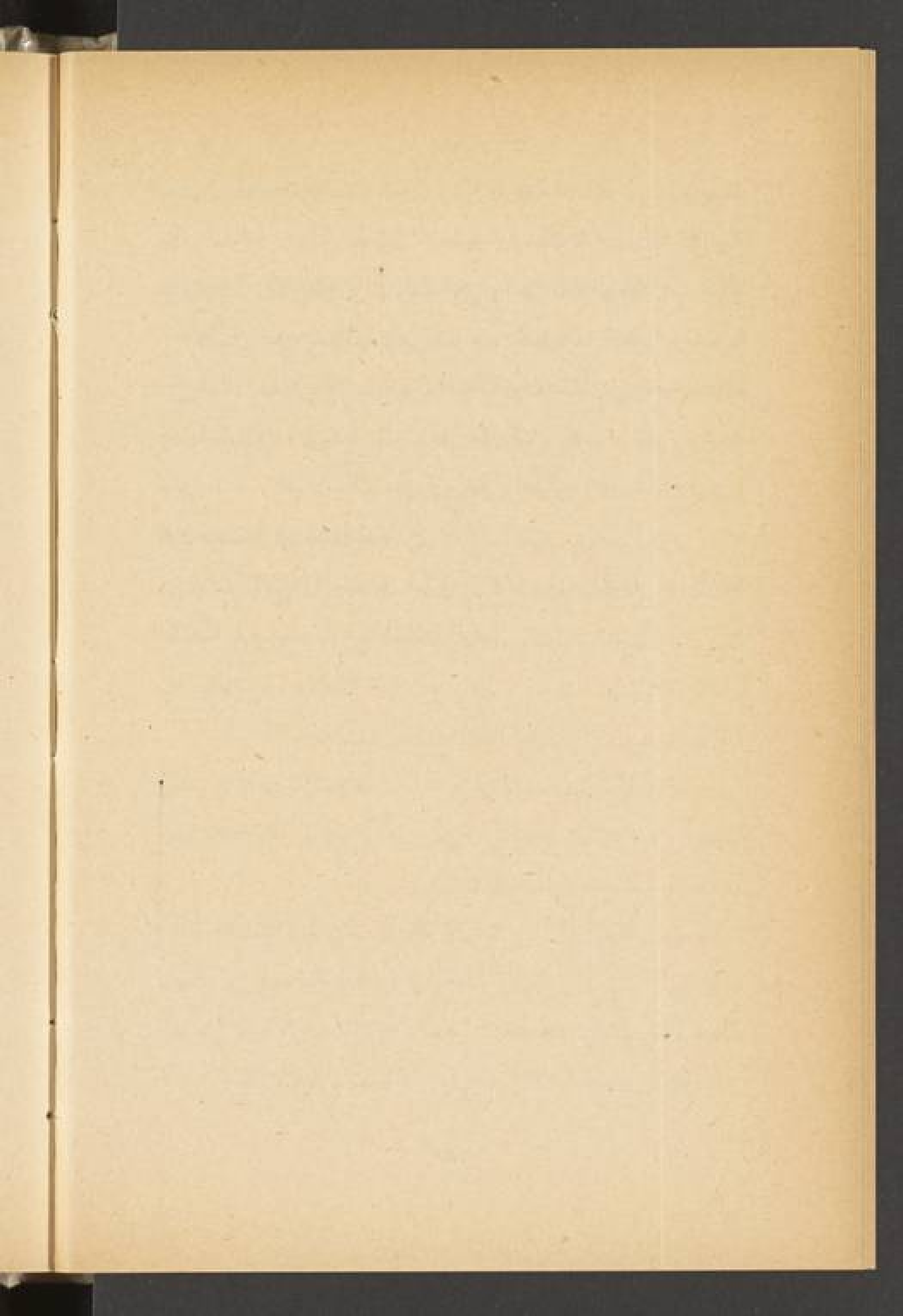
وكانت الهدية سعاد الزنانيري . فانتاب الذعر احمد ، وقد

عرفها . أهذه هي سعاد ؟... ولكنها جثة منطلقة من ضريح .
فقال جازعاً : واي خطب ضعضع روحك ، ايتهـــا الطاهرة الروح ؟... ألا تدرين اننا لك اهل واخوان ، فما قعد بك عنا ؟

فقصت عليه حكايتها وهي تنوح . خجلها من نفسها وقف بها عن العياذ بنداه . فليست تريد ان تكون عبثاً على احد . فقال بعطفه الشافي : مرحباً بك . هذا مقامك . السماء تضرب بيـد وتجبر بيد . اني لاحلك مني ، واحلّ ابنتك ، صـدر منزلي . نحن باجمعنا في خدمة سعاد !

وضمّ الام وابنتها الى اسرته . فان داره لتتسع لهذه الهدية الماتعـة ، ينفحه بها عيد الميلاد الرفيق

•



عرس في قرية

١

تثاءب جميل الباغي وفرك عينيه، والنعاس لا يبرح يمّ به. وتلفت الى ما حوله واذا الفجر يوشك ان يزحزح لثامه. فنهض الى مداسه الثاوي بجانبه، فانتعله. وتأبط عصاه الغليظة، كأنها جذع سنديانة هرمة. وشكّ في وسطه خنجره المسنون، ومزماره الرقيق النغم. واندفع الى الحظيرة الساهدة، على خطوات منه، يلكز برأس عصاه ظهور خرفانه الجاثمة في مباركها، تجتاز رحبة الليل على هدهدة النهار

ووثبت الخرفان كجيش رُوّع في هدنته. واطلق جميل قطيعه في معابر الكروم والليل يلملم اذياله. ومعابر الكروم وعرة المسلك بصخورها، واخاديدها، نهّاشة باشواكها. تعلو كالسلالم من السفح حتى القمة. ولكنها سلالم معوجّة، خانها الانسجام، دون ان يذهب بروعة الفطرة المتألقة في اضطرابها، وكأنه دبيب طفل في باكورة الزحوف

وفيما يتوقل الراعي، في المشارف، حامت عيناه على بيت اقتعد صدر تلة نهداء. بيت متواضع أغبر، طوّقت هالة من الكلس الابيض هامته، فبدا كشيخ معمم، زاهد في دنياه. وكلما رقي جميل مصاعد الجبل، صرفه عن غنمه الحومان بمقلتيه على ذلك البيت الاعزل، كالناسك في صومعة جرداء. وما اضحت

الحرفان بجانب المثوى الهادىء، الهانىء بوحدته، حتى انتهرها جميل.
ولم تكن بحاجة الى النهرة، وهي المتزنة الصعدة، غير ان الراعي شاء
ان تعلو صيحته انذاراً لمن يستقرون بالمأوى الساجي، الغفلان

وتنفس الميت بالجواب. ففتحت منه نافذة شفت عن رأس
اشقر الشعر، كعناقيد الخريف، ابيض الجبين، كبلجة الصباح.
فارتعش جميل الباغي، ووقف كالمفتون حيال رؤيا تموج بالاغراء.
ونغشت الابتسامة الولهى في شفتيه، فتمتم بلبان الخجول، المتقي
العثار، تحية البكور النبيل الفوح. فردّ له التحية صوت نديّ،
كالطلّ: اسعد الله صباح جميل!

تحيةٌ بتحية. وابتسامةٌ بابتسامة. واجتهد الراعي في ان
يطيل الوقوف امساكاً على النشوة الطارئة. وغالب ذهنه في
كلمات تستثني له مرجاه، فقال: أيكون ابريقكم بارد الماء؟

فاجاب الصوت النديّ: الابريق مكانه على المصطبة، ينضح
بذوب الثلج!

ومشى الى المصطبة قدٌّ اهيف، يمتشق ساقين بضّتين، تناهى
فيهما جمال الصياغة. ففارت نزوة الاكبار في راعي القطيع،
ودفعته الى المصطبة يسبق الى الابريق القدّ الاهيف، المشوق
الساقين. قال: خلي عنكِ. انا اعرف طريقي الى ابريق الماء!
على ان اليدين قبضتا معاً على عنق الابريق. يد جميل ويدها.

وحاولت ذات القسامة ان تتراجع ، فلم تسعفها قواها ويد جميل تضغط يدها ، كالكلاّبة العصيّة . قالت وهي تجاهد في الافلات : أوجعتني . أتظل مازحاً ؟ ... متى تعرف الجدّ ؟

فاتسعت عيناه ينكر ما ترميه به . وقال بإيمان العابد ذي التقى : ناهدة ، مواقفي منك لا تستروح غير الجدّ الناصح . واني لاربأ بنفسي ان أكون في مودتك على بليد مزاح ، وفي سناك وقدة المنى !

فشددت في الخلاص من مناعة راحته الفتيّة الاعصاب ، الخشنة ، وهي تقول : دعني ، والحقّ بقطيعك . قطيعك أولى بك مني !

ففاض صدره بالقول الصفيّ : القطيع ، وصاحب القطيع ، فداك !

ورشح بالصدق قلبه ، ومقوله ، وناظراه . وادركت انه جادّ لا هازل ، فعضت شفتيها ان اسكت لئلا يسمعوك . ابوها وامها وعمتها في المنزل . فقال بجفوة : لست أبالي احداً . انا اشتهي في حبك الفضيحة !

فاعلنت بصيحة تترجح بين الغضب والرضى ، ويغلب عليها الخفوت : اسكت ، اسكت !

— لن اسكت الا وقد سمعت منك المعاهدة على الولاء . أيستطيع جميل ان يعقد عليك غده ؟

وغرز عينيه في عينيها ، مستطلعاً ملحاً . عراضت له النهزة ولن يشبح عنها . هـذا اوان الجلاء . فاعلنت ناهدة بقوة تروم الانفجار وتخشاه : اسكت ، اسكت . اخاف ان يسمعوك وان يبصروك . دعني . أفلت يدي !

فجبهها بألم وحدة : سارفع صوتي حتى لا يبقى في القرية من لا يسمع. وسأظلّ قابضاً على يدك حتى تواني كل عين. أتكونين لجميل ؟ ... أجيبي . أتريدينني زوجاً لك ؟

وعلا في المنزل وقع اقدام . فاستعطفت ناهدة جميلاً ان افلت يدي . فتلظت شفتاه بفحيح كاوٍ : أجيبي !

فهالها ان يفتضح أمرها . ورفّت عيناها بالميثاق الغليظ . فاطمأن جميل وافرج عن راحتها . وأطلّ ابوها من الباب ، فأمال الراعي بالابريق على فمه ، يتصنع الظمأ . فضحك الاب وقال مازحاً: أمصاب انت منذ الغدوة بهذا العطش كله ،يا جميل؟.. هل تعشيت خروفاً ؟

فكفّ الراعي الفتى عن الشرب ، وقال باسماً : ما حيلتي في ابريقكم ، وهو يغريني ابداً بمائكم العذب ؟

والتفت الى خرفانه ، فاذا هي تتابع المرتقى . فقال وقد ثمل بفرحة بكر ومضت بها عيناه ، وترنح عطفاه : عليّ ان الحق بخرفاني ، فعفواً عني !

ووثب الى خرفانه السوارح في طريق القمة ، وقد ودع ناهدة بنظرة ، وأباها بومضة من نظرة . وما لبث ان تعالى نغم مزماره ، يلقي في اذن الصباح الوليد الشجو الناغي . وانساب القطيع في القمة يقرض الكلأ الطريّ ، ويميل حيناً بعد حين على دوالي الكرمة فيستبيحها، وراعيه لاهٍ عنه بهواه المجنّح، ومزماره الغرّيد

ونظر اليه فارس مقصود ، والد ناهدة ، في وثبته الى القطيع ، فقال : جميل الباغي فتى عامر القلب . فالدنيا لديه ضحكة ، وأغرودة ، وكأس . حفظه الله ، ومتّعه بايامه !

وفارس، في عهد شبابه، انتفض فيه هذا المرح الخصيب. على ان السنين قلّت من غليانه ، وان تكن ابقت على عزيمته . فلا يبرح ذلك اللبناني القحّ، العابد ربه وجبله وحريته، الحريص على السمت المطروق، والعنوان المكتوب . عاش اجداده وأبوه في هذا البيت الاعزل، المعصوب الجبين بالعمامة البيضاء، ويأبى الا ان يعيش فيه مثلهم ، دون ان يفكر في بناء جدار . فما ورث عن أبيه ، سيورّثه لمن يليه . والوزنات الخمس ، تظل لديه خمس وزنات، لا تنقص ولا تزيد

والعيش لم يكن يضيق بفارس مقصود.حقوله تجود عليه بالمؤونة . والمال، وان لم تزخر به يداه ، لم ينضب لديه معينه.

حبوبـــه من ارضه . وزيته مـن دوّارة الزيتون في المرج الاخضر . والحلوى من كروم العنب والتـين . وفي كل عام يشتري خروفاً ، ويعلقه ليذبحه في مطلع الخريف ذخيرة للشتاء الجهم . فالقرية ، حين يدهمهـا الثلج ، تتنكر للذبائح ، وتنعم بالدهن المصفّى في القوارير . ومع يقين فارس مقصـود ان القناعة كنز لا يفنى، تشهّى امتلاك الثروة الدفاق، ليسلو لبعض الزمن حياته الواحدة الوزن والقافيـة . وعرف الغيرة ، وهو يبصر بفئة من ابناء قريته تعود من المهجر، وفي راحاتها حفنات النضار . وفكر في الاقتداء بها ، ولكن بعد الاوان . فلم يبق في الاجل ما يرجع ما نفد منه

غير ان ما أصيب به فارس مقصود، سيمنع عن ابنته اذاه . ناهدة خميرة البيت ، ومعقد الرجاء . فهي وحيـدة ، وقد بخل على والديها الزمن بسواها من الجنى. الا انها في القرية وجه الكومة . زهرةٌ لم تحفل بمثلها الضمّة

وفي سبيل ناهدة ، لم تنقطع الخرفان عن الالتفاف ، صباح مساء ، حـول البيت الاعزل ، الجاثم بمفرق الربوة . ولم يبرح جميل يسأل عن الابريق الغـافي على المصطبة ، ويُسكر بشدو مزماره ، المخمور النغم ، الاشجـار ، والتلال ، والاودية ، والقطيع

وكلما عرّج في المساء، على ناهدة، حباها بما قطفت، في جولة نهاره، يده. فيحمل اليها اقراط الحصرم، ولها يسيل اللعاب تشهياً. فعناقيد العنب،المنظومة كالقصائد الغيد. فالتين الملوّن، وفمه ينزو بحبة قلبه. فالزعرور الاحمر، كالاظفار المخضوبة. فكروز الصنوبر الخضر، العجر، اللدان

وبحث الراعي الفتى عن المال، بعد ذهوله عنه. فتمثل يومه الانور، وقد عُقد له على ناهدة مقصود، وأعدّ له العـدّة. سيبيع خرفانه بثمن ربيح، ويشتري سواها بمبلغ سمح، ويجزّ صوفها، ويعرضه على الغزّالين، وربات المنازل، لحشو الوسائد والفرش. ويتقاضى البدل ويحشده في جرة تتبطن الارض. فالجرة، في القرية، ملجأ القرش والسحتوت

وحدث الفتاة عن مناه. سيشتري منزلاً في الضيعة، وينقطع عن رعي الغنم. حسبه الاتجار بالخرفان واللحوم، حتى اذا ما تزوج، فلا تخجل به ناهدة في معرض الفخار

وشعر بأن الحب على هناءته قيدٌ صليب. ولكنه رضي به على قسوته. الا ان ثمة من لم يرض، وفي القرية من طاب له تعكير الصفاء. والناس كتلة من حسـد، وغيرة. فكانت وشوشات على خلوة. تلتها مجاهرات ملء الاسماع. اين جميل من ناهدة، وهو راعي غنم حقير، وهي ثروة من حسن ومحمدة؟

وانسابت القواصم الى اذن فارس مقصود. وفارس متشامخ، غضوب . فرقص شارباه . وبرقت عيناه . وصاح بنفرة : لا، وابيكم ، ليس لجميل عندنا لقمة !

وتسلق الصومعة والحقد في صدره ، والجهامة في وجهه . وتناول الابريق، الحالم على المصطبة، وحطمه في عربدة منكرة. فاسرعت ناهدة تتبين اثر الصرخة والقضقضة. وما بصرت بابيها، حتى تولاها جمود راعب . هل جنّ ؟

وشاءت الكلام استيضاحاً. فخنق ابوها في صدرها كل نأمة، وقد علا صوته ناخعاً ، دفاق الزبد : فضحتني، يا ملعونة الطلعة، بمسايرتك جميلاً الباغي الوضيع النشأة. ولكن اباك ليس بمن ينامون على المضيمة . والله، لاقطعنّ رقبتك اذا عدت الى مخاطبة جميل بكلمة ، بإيماءة !

وكشر عن نواجذه الكوالح . وهدد بقبضة يده . فوقف الدم في عروق ناهدة . اي انقلاب طرأ على ابيها ، فأمال، من جانب الى جانب، الكفة الراجحة ؟... قال الاب ، وهو لا يبرح في فورة الغضب : جميل لا يليق بك . ان هو الا راعي غنم زريّ . والقرية كلها تلومني في رضاي عن مساقطتكما الاحاديث . فامنعي عني الانياب العضّاضة ، وقاطعيه . انت خلقت لمن هو أعلى شأناً !

فعزّ عليها ان يموت حبها الطرير، دون ان يقوم من ينعاه. واحست من نفسها بكونها في معرض الدفاع عنه ، فقالت متجاوزة تهديد ابيها : ما بك تبدلت ؟... أعرفك محباً لجميل ، راغباً في مكالمته !

فانفجر كالاطلاقة : انا ؟...لاقصفنّ عمرك . ادخلي المنزل. لقيتِ الجيبة . لا تقفي ثانية واحدة امامي . فليس يخفى عليك ما يكون مني في نزوة الغضب !

وغضبته تخيف . وعند ناهدة منها جليّ الخبر . فما تزال تذكر كيف قبض ذات يوم على غدائر امها ، ورمى بالمسكينة من السطح الى حقل التوت . ولو لم تقع على اكداس الشيح ، لتحطمت اضالعها. ولكن حظها شفع فيها، فهوت على موطىء رفيق

ولن تنسى كيف حطم هذا الاب مرآتها ، وقد اطالت اليها الوقوف . فغاظه ان تهيم ابنته بالجديد ، وان تخرج عن زهد السلف ، فاهوى بمدقّة الجرن على المرآة، ونثرها شظايا برّاقة، شائكة وناهدة لا تملك الجرأة حتى على البكاء

والآن، وقد فار فائره ، فانها لتخشى مصادمته ، لئلا ينالها منه ما يؤذيها . فدخلت المنزل وهي ترجف ، كورقة الخريف الساقطة الهمة، حيال الريح الرعناء . وشكت امرها الى امها . فاكتفت الام بان تنوح . ووسعها لا يعدو هذا الأمد !

٢

قضت ناهدة ليلة موصولة الاطراف بالنشيج . فأرمد عينها حكم ابيها عليها. ودبّت الى النافذة ترقب جميلاً يزفّها اياه مبسم الصباح . وظهر الفتى ، في المنحـدر ، يسوق قطيعه الى القمة ، وعيناه على كوّة عوّدتـه ابنة فارس مقصود ان تطلّ منها . وانبسط في معارفه البشر. سيرى من يجد في هواها نعمة ، وفي رضاها رحمة . فتألمت ناهدة للنكبة المنقضّة ، وساءلت نفسها : أتبدو لعينيه؟

واوجعها ان تقلقه ، وما درج الى مأثم . ولكن ألا يرصدها ابوها ؟... وتنهدت جزعاً ، وهي تفكر في هذا الاب الغشوم، محطم المنى الابكار. وكان جميل قد اندفع الى المصطبة ، ينادي ناهدة . فكادت تجيب . غير ان اباها طفر الى الباب يشقّـه ، وجرجر بصوت نفور ، خادش كصرير المنشار : ماذا تريد ؟

فجرحت النبرة الخشنة اذن جميل . ووثب فوراً الى ذهن الفتى ان الاب حانق، وهو البرطام . وألمّت به الظنة ، فنفضها منه وقال ، ولكن برعشة من ارتباك : اريد شربة ماء !

فجبهه فارس مقصود بسخرية ذات انياب : الابريق المعهود اعطاك عمره . حياتك الباقية !

فحزّت في قلبه اللهجة الممضة. وتعجب من هذا اللقاء البغيض. فأي انقلاب طرأ ؟ ... وناءت كتفاه بالخيبة ، فكاد ينصرف وليس في اعصابه قوة تسعفه في السؤال عن ذات السنى. ولوى وجهه على استخذاء ، وتولته هنيهة من وجوم. الا ان حبه القلق اكرهه على الاستيضاح : واين ناهدة ؟

وافلتت سؤاله شفتان يحشرج فيهما الاداء الخشيان. فاجاب فارس مقصود بحدة النقمة : ناهدة تنعم بغفوتها . فما شأنك فيها ؟ ... حذار ان تزعجها بعد اليوم بنظرة !

ونضت لهجة فارس مقصود عنها كل رفق واحتراس. فارتاع جميل. واحس بالدوار يرن عليه. وتراجع على اكفهرار. ولكن اين ناهدة ؟ ... فما يزال يرجو رؤيتها لاستطلاعها امر النازلة

وناهدة امسكت على احتجابها الصفيق ، وليست تجرؤ على الظهور . فخفق لبّ جميل الباغي بارتقاض ، كأن به نهشاً من حمّى. وحبا الراعي المكلوم المهجة الى الخرفان حزيناً ، ساهماً، لا يكاد يبصرها. فالوسواس اختبطت في ذهنه الاملَ البشوش. بيد ان جميلاً لا يبرح على رجاء ، ولكنه رجاء غشته رقاقة من فاحم الرماد

وانقضى عليه نهاره وهو يسائل نفسه عما طرأ من رزيئة بددت معالم الانس . ورقب المساء ، بحرقة الظمآن ، ليدفع قطيعه في

اطريق الصومعة . بل هو استعجل الموعد . فما لاحت ناهدة ناظريه . هناك فارس مقصود وحده يتحفز للعضّ ، كالمصيبة المهددة . فارتعد جميل ، وشعر بقلبه ينعصر . وخشي ان تزلّ به قدمه لفرط الارتباك . وأبى ان يلتفت الى فارس يحييه . ولكنها عادات القرية . فغمغم وصوته يحرق شفتيه المنتفختين حرداً : مساء الخير !

وهوى في المنحدر لا يرقب جواباً . فردّ فارس مقصود التحية بزمجرة تنضح بالوعيد . وسمعها الراعي فانتفض غاضباً للكرامة . فالصدمة سلخت من اساريره كل زهو ومرح . فغام على جبينه العبوس ، واستيقظت فيه القسوة . واخذ ينقضّ عفواً على خرفانه بالعصا يهيجها بها من يد لا تلين . وساوره خجل من اخوانه . أينبذه فارس مقصود ، وتعفّ عنه ناهدة ؟ ... يا للغضاضة الصافعة في القرية الفضوح !

ومالت الخرفان عن طريق الصومعة في نهدتها الى مفرق القمة . فشقّ لها راعيها الانوف صعيداً لا يطلّ على بيت فارس مقصود ، وقد كره الفتى مرأى وجار الثعالب المقيت . بيد انه ، لا يكاد يبلغ الروائس ، حتى يحتال على نفسه ، ويجلس القرفصى وراء صخرة تشرف على مثوى ناهدة . وما ان تبدو ابنة فارس مقصود ، على المصطبة ، او في حكرة التوت ، او على السطح ،

حتى يتأوه جميل وتندلع أشجانه. فالحب في صدره لا يبرح على سعير

وماجت القرية بالنبأ . فارس مقصود أزاح جميلاً ، واضحت ناهدة طليقة اليدين . من حق كل طالب ان يلتفت ملياً الى جلوة الطلالة فيها، وان يتشهّى، ويتمنى. فقد لان باب المحراب العصيّ. وفي ساحة القرية، اذاع فارس مقصود ، بنفسه ، النبأ الصارخ . منزله اضحى على جميل الباغي الحرم المنيع . فليس للراعي أن يدوس منه بعد اليوم العتبة . فانتعشت، والكلام يُلقى، آمالٌ مكبوتة . وحامت على فارس مقصود ابتسامات لم يكن له بها سالف عهد. بيد ان فارساً، يريد لابنته سعادة وارفة ، في عش خميل ، ولا يضمن الطلبة سوى ذي مال ثريّ

وفي القرية ابن خمس وخمسين ، ما يبرح اخضر الصبابة على جفاف عود . هذا سعيد غانم ، الملقب بالاميركاني، مضرب المثل في الوفر. أشاح عن خيرات المكسيك بعد ما ملأ منها وطابه. ورجع يتفيأ، في اعالي لبنان ، ظل السنديانة الشموخ . على أن حفنات النضار ، الثاوية بجرابه السمين، لم تنزع من جسده طابع مشقات الهجرة، الكاوية يديه، و كتفيه، وظهره ، والبارية قدميه، دون ان تهذّب فيه خشونة الفطرة ، وجفاء السجية . فاقبل في نزقه وسمله كما ادبر . وهذا هو بمنطقه، وشحّه ، وجهله ، كأنه لم يبرح القرية الى بلد جلته الحضارة ، وصقله العلم

كان يرتدي الثوب الغليظ ، رقعة على رقعة، وما يزال يرتديه على رقـــاع في رقاع ، كالملق الزريّ . رحل وكوخه متصدع الجدران ، رثّ الاخشاب ، وعاد الى الكوخ نفسه، يرقد تحت السقف الاسود الاديم، النفّاث التّراب، وينزوي في شبه حفرة، أضحت اعشاشاً للعناكب والفئران

واكتفى من الرياش بطنفسـة حمراء نصل لونها ، وتطاير زغبها ، وبصندوق ضخم حمله من اميركا ، وشحن فيـه ثيابه وثروته . وما ثيـابه ؟ ... رداء اسود اللون ، عرف الكيّ يوم خياطته ، مرة واحدة في العمر . وقبعة دكناء ، متراميـة الاطراف ، جرباء ، انتشرت فيها بقع الزيت ، كأنها من بقايا السلع الكاسدة . وحذاء يحتاج الى نظر حادّ ليبدو منه انه كان لمّاعاً ، وما عرف ، منذ شرائه ، ماسح احذية

وشاق سعيد غانم الزواج بناهدة ، وقد رسخ في ضميره ان هذه اللؤلؤة لهذا الخاتم . ومن يصدّه عنها وهو يزن ثقلها ذهباً باهر اللمع ، عذب الطنين ؟ ... كفـة بكفة . وقد تكون قبضات الذهب أرجح مثقالاً . وربما كان فارس مقصود يفكر في ذلك الرثّ البردة ، الوارم الكيس، وهو يعدّ ابنته لغدها. فما جاءه سعيد ، يحدثه عنها ، حتى وهبها له طفاح اليدين

ودعيت ناهدة الى ابداء الخضوع والانحناء . أمة في حضرة

المولى . قارورة بيعت لعطّار . وابتسم سعيد غانم ابتسامة التيه . « السنيوريتا » ناهدة باتت ملك يمينه . وكان يستطيب ان يخلع على ناهدة لقب « سنيوريتا » . فأين اضاع ايامه ؟... ألم يكن في بلاد المكسيك ؟

وجنح الى العجلة في عقد القران . ولماذا التأني والامر قد أبرم ؟... ثم هو خاف ، بعد طول قعود عن الهوى، ان تفوته النهزة ، فجدّ في التشمير لها . ليسرع في نهش قرص الحلوى بملء طواحنه ، وليتمتع باللذاذة على مدة ذراعه . بعد اسبوع سيتزوج . وهذه امواله . فلينحدر فارس مقصود الى بيروت ، وليأت منها بكل ما تطيب نفسه من مأكل، ومشرب ، واثاث. فالصندوق المقفل بألف مفتاح ، المسدود الثقوب بالف خرقة ، وقد حامت عليه الخشاشة ، تحجبه حتى عن اهداب النور ، ستفتح ابوابه لفارس مقصود رحبة طليقة ، فليكشط عنها العفن ، وليغرف ما يشاء

وانحدرا معاً الى بيروت ، وقد ضربا موعداً للزواج . فلا يعود « الاميركاني » ، من جولة الاستبضاع ، حتى تزفّ اليه ناهدة . ولينحطم قلبها. وليمت املها . صندوق سعيد غانم خير ضمان لهناءتها ودفئها . فلترقد بجانبه وهو المشتعل بالنضار الوهّاج . غير ان ناهدة كانت ترى ، في هذا الوهج ، برودة

دونها الزمهرير . وودت الفرار من بليتها . والى اين الفرار ، وفأس فارس مقصود ، ونقمته ، بالمرصاد ؟

ووقع النبأ في مسمع جميل الباغي ، فكاد يجن . وثار فيه حبه الموتور ، فاستجار بخنجره . لن يتزوج « الاميركاني » ناهدة ، ولن تشهد القرية عرساً ، بل مأتماً ، تتساقط فيه جثث اربع . فيقتل جميل ناهدة ، واباها ، وسعيداً ، ثم يقتل نفسه . وحقده على فارس مقصود أشد منه على الجميع . فاعتزم ان يخنق بيديه فارساً ، ويستل لسانه الخبيث ، ويفقأ عينيه اللاذعتين

الا ان الثورة الجامحة، عقبها فتور رشيد . لماذا الجنون؟... أيخضب القرية بالدم لاجل فتاة لا ترتضيه ؟... وجمع بعضه على بعض ، وارتأى براح منبته بكبده النخرة ، وامنيته المفلولة . بلاد الله واسعة، ولا بد ان يجد فيها حفرة يودعها هواه الطليل . وتحامى ان يودع اخوانه . فالخجل يكسفه . والشماتة تروعه . وليس يقوى ان يجبه سخرية العيون

اجل ، سيرحل الى حيث ينسى . وداعاً ايتها القرية الملأى بالذكريات النواضر . ناهدة ليست عقدة الامل ، ومبعث الحياة !

٣

الخبز في التنّور تلة على تلة . ودقّ الكبّـة كالاهازيج ، كلاهما يتوالى . ورقص « الدبكة » حلقـات تلو حلقات . ومزامير القصب تطلع بشجيّ انغامها، فيثور لحنانها القلب الخليّ. والعرق يملأ الكؤوس. وشرب الانخاب، كسَبْلٍ جحاف: حباً !
– صحتين !

وناهدة على دكة عرسها مثلها على مرتبة نعشها . وورقة خريف صفراء في متناوح الريح . تفكر في ساعة زفافهـا برعب يطغى على وجهها ، فيخزيه

وشكت جوارحها الظلم . انها لضحية مقهورة . وانتفض في ضميرها سعي جميل لانقاذها . تراءى لها انه سيشقّ اليها الجموع، وينتشلها من انياب الذئب . ولكن جميلاً ناقم حاقد . أيدري انها مغلوبة عـلى أمرها ، وأنها ليست ذات رأي في الانفصال عنه ؟... الانفصال عنه ؟... الموت اسبق منه الى خاطرها !

ودار بها غشيان اليأس . فهي في ذهول عن نفسها . وقـد تكون تملك فضلة من معـاندة ، نفاضة من ثورة ، الا أن فأس ابيها ترهبها . وهي ، مع خشيتها الفأس ، تحاذر ان تستفزّ اباها الى ما يفضحه في قومها

والعرس، في القرية، هو العرس. ففي الفرح نشوة للجميع. وعلى مقعد، تجلله الطنافس، حُملت ناهدة الى بيت سعيد غانم، البعيد عن القرية بعد الصومعة عنها. فالصومعة في التلة، وبيت «الاميركاني» في السفح. كأن العرس الجامع عقد بين القصبتين

وصبّت قماقم ماء الزهر، وماء الورد، كرائمها على العروس الغارقة في رزيئتها. وادهش ناهدة أن تصاب بقلبها، وتظل من الحياة على رمق. فاشتهت الموت وأقامت منه على أهبة. فلن تعيش في كنف من اصطفاه لها ابوها، وما خُلقت لتعيش فيه. وأطاعت في كل ما دعيت اليه. ودخلت بيت سعيد غانم وهي في سهو حجب عنها كل ما يمثل حولها

ووقف سعيد بباب المربّع يرحب بالامنية الطالعة. والمربّع، لديه، اشبه بقاعة العمود في قصر الامير بشير. وله بجانب المربّع مسكن آخر، هو القبو. ولكنه على مسافة محتشمة. وفي القبو الطبخ والنفخ والخدمة. وان يكن المربّع الاسود الاديم، الرثّ الاخشاب، لا يليق بعرس مشرق الصفحة، فالقبو يكاد يكون في حقارته زريبة للخنازير

وانصرفت القرية عن العرس في مغرورق العتمة. وخلا المربّع لسعيد وناهدة. دبّ حيال مهاة. واقامت حفنة من النساء في

القبو ، حول والدة ناهدة ، عاكفات على طعام البكارة يعددنه بغبطة وعناية . ودنا سعيد من عروسه اشبه به من متعة اكتراها . هذا اوان الذوى . وامتدت يد « الاميركاني » الى معصم ابنة فارس مقصود . فاستيقظت ناهدة من ونيتها ، كأن حشرة لسبتها . ونفضت منها اللمسة وهي تقول برهبة : دعني ، لا تمدّ اليّ يداً !

فابتسم ابتسامة تنمّ على ازدراء ، وقال : خففي عنك . لماذا الممانعة ؟... أصبحتِ لي . والعناد بات لا يجدي !

وشاء ان يضمها اليه . فافلتت منه وهي تصيح به : مكانك . أسأت الاختيار في زواجك بي . شقيتَ وأشقيت !

فتعجب من منطقها الجافي . ووثب عليها يمسك بغدائر شعرها ، ويجذبها الى صدره بعنف ، وهو يقول بغيظ : أتماحكين؟... ولكني اشتريتك بمالي . اذا أبيت الطاعة على رضى ، امتثلت على كره . لا يغرّنك مني المشيب ، فلا ابرح بقوة الشباب . تعالي !

وجرّها الى السرير ، وقد اندلع من عينيه أشرُ السلطان . فهالها موقفه . وتولاها ذعر جائح . واجتهدت في الافلات منه واقصائه عنها . فرفعها بين يديه بقسوة . وضرب بها السرير قائلا بحنق : عنادك يكلفك حياتك . أطيعي والا جعلت من عرسك مأتمك . أول الطريق ولا كله . هل سمعت ؟

فهفت يدها الى صدرها . وتناولت منه منديلها وقد عقدت

طرفه على مسحوق أغبر . وحلت العقدة في ما دون اللحظة . ونفضت في فمها المسحوق بخفة . وابتلعته في غصة ناتئة ، «والاميركاني» واقف حيالها عابساً ، حائراً في ما تصنع . فصاحت به وقد ومض الظفر في عينيها : لن تنال مني منالاً . لست اريدك . هذا منقذي منك اعددته ليوم خلاصي !

وتعالت نبرتها . فادرك انها تناولت سماً . وانقضّ عليها يمسك بخناقها ويكرهها على القيء . فليس يريدها للموت بعد طول علالة . واذا الشباك السقيم ، النابي به وصاده ، المطلّ على دوّارة التوت ، يتطاير كأن عاصفة تقتلعه . فالتفت سعيد غانم وناهدة باعين جاحظة . وملكهما الرعب ، وقد ابصرا جميلا يثب عليهما شاهراً خنجره . غير ان ناهدة لم تلبث ان استطابت المفاجأة ، وبها يلتمع خلاصها . فلم يرمقها جميل الباغي بنظرة . كأن سعيداً هدفه الاوحد . فطفر اليه يصيح به بحقد ذميم ، ناتىء العين : يدك عنها ، ايها الجلف !

ففتح سعيد فمه رعباً ، وتراخت يده عن عنق ناهدة . ووقف مشدوهاً كالمصاب بالشلل ، وقد عدم النطق والحركة . وعبث به خنجر جميل الباغي . فشكّ في قلبه لا يفسح له في شهقة . فهوى في الارض ، وفمه على فتحة الذعر ، ووجهه على كمدة الخيبة

ولم يحفل جميل بالجثة الهامدة ، ولا كلف نفسه انتزاع الخنجر من مثواه ، بل مال على ناهدة يقول بحماسة المنتصر ، وعجلة المتقي: انهضي . انقذتك منه وانقذت نفسي . جئت لاقتلكما معاً قبل هجرتي ، الا اني ايقنت ، وقد سمعت من وراء النافذة بعض حديثكما ، ولاح لي موقفه منك ، انك مقهورة فيه . أنهضي ، ولنرحل معاً . غداً نركب البحر الى العالم الجديد !

والى اين ترحل ، وقد تناولت طعم الفأر ، سماً تخلع به عنها عبء الحياة ؟ ... فالموت على امد انملة منها . وباتت لا ترجو ، وهي على يقين من منيتها ، الا ان تنقذ من تهوى من شر العقاب . وشاقها الفداء ، فانغمست فيه . وتكلفت النقمة تجبه بها جميلاً ، وتكرهه على الفرار . فصاحت به ، وكل ما فيها على رجفان : أتقتل زوجي ، وتريدني على اللحاق بك ؟... ارحل . لا تقف لحظة واحدة على مرأى مني ، والا ملأت القرية صراخاً للقبض عليك !

ومشت الى الباب تتظاهر برغبتها في فتحه ، وطرح الصوت . فارتاع جميل ازاء ما يلوح له منها ، واعول : ماذا تفعلين ؟

– ماذا افعل ؟... أتلطخ يديك بدم زوجي ، وتفرض عليّ السكوت عنك ؟

فهاله تناقضها . كانت تكره سعيداً كتلة من حياة ، فاذا

بها تغار عليه جثة بلا روح . وارتعش جميل الباغي، تجاه عزمها على الاثئار لبعلها المضرج بدمه . وتراجع خائفاً ، مضطرباً ، والجثة المبسوطة حياله ، على مداها ، تزيد في رعبه . فاشارت ناهدة الى النافذة المحطمة ، وهي لا تبرح في صياح ناقم : ارحم نفسك واركن الى الفرار . الى الفرار . والا دعوت القرية الى ذبحك !

فامتثل كالعبد المهين . وتوارى ذليلاً كالجبان ، لا يجرؤ حتى على الالتفات الى الوراء، وقد انتزعت منه ناهدة، بانقلابها عليه، صلابته ، وهدمت بأسه . وتبطن الليل ، واشباح ابنـاء القرية ترفّ في عينيه ، وتهديد ناهدة ينتفض في عروقه . وكلما تقدم ، خيل اليه ان وقع الاقدام يقترب منه ، وان الجميع جادّون في اثره. وتمثل نفسه يعضّ ساعديه الحديد، والسجن يغلق عليه ابوابه ، والشماتة والسخط يهويان عليه دراكاً . فدهمه الروع . وحثّ على النجاة خطاه المرتجفة. وتولته كسفة الندم . فهو قاتل مجرم. ولكنه، وقد سفك الدم، فلماذا قتل سعيداً ولم يقتل فارساً؟... فارس هو الاثيم . ليته اودى به !

ووقفت ناهدة الى النافذة تنظر اليـه في فراره . وابهجها انقاذها اياه من هول ما يرقبه . فالجريمة ليست في دمه ، وقـد حُمل عليها . هواه المفلول اهاب به الى الانتقام ممن سحقوا لبه

وآثرت ابنة فارس مقصود وقوع خنجره في صدرها ، على اجتياحه قلب سعيد غانم . فما ذنب سعيد ؟... وتماسكت على فتكة السم ، تتجلد على الألم الناهش ، ولا تبيح لفمها أنة . فتلوى والسم يمزق احشاءها ، كأنه بأجمعه انياب قاضمة . وما اذنت في صيحاتها البواكي ، الا وقد تلاشى ، هناك ، في غابة البلوط ، وقع خطوات جميل في مسمعها . فايقنت انه بات بمأمن من عبث النائبات . وأعادت، بجهد يتفلت منها ، خشب النافذة الى وصاده، اخفاء لاثر الملمة . وهزت الميل ، في رقدته الهانئة ، يلطمه بليغ شجاها

واعولت في الصراخ المصيبة . وركضت النساء، المعتكفات في القبو على الطعام ، هالعات ، وقد تعالى فيهن الصياح والاستيضاح . فدبت ناهدة الى الباب تفتحه ، وليست تملك القوة على البيان . فاكتفت بأن تشير الى الجثة . وانطرحت في الارض تختلج ، وتتقصف كالحية على النار

ولاحت جثة « الاميركاني » للنسوة ، وقد غارت في كبدها نصلة الخنجر . فماد بهن الذعر . ولطمن بولولتهن وجه القرية الماجدة . وبين مزدحم المناكب ، ورعب العيون الجاحظة ، استطاعت ناهدة ان تغالب لسانها على القول : سعيد غانم اكرهني على ما لا تشتهي نفسي . هددني بخنجره يوم القضاء عليّ ،

فانتزعت من يده الخنجر واغمدته في قلبه . وتناولت السمّ ابتغي به الخلاص من حياة قَنوط !

ورشقت عيناها والدها فارس مقصود ، وقد اقبل على الصائحة في من اقبل من ابناء القرية ، ترميه بتبعة الفاجعة . واسلتّها الموت، بعد طول تعذيب، لا يبالي العقاقير . فوجمت القرية حيال ما ترى ، وما تسمع ، متنكرة للفاجعة الناخعة . وساورها جزع يطغى عليه الشك ، فلا يستقر على يقين

*

خمسة عشر عاماً تغفو في خاطر الزمن. واذا القرية تستيقظ على نواح شيخ في مقابرها. شيخ ، وليس مسنّاً . فالايام نسجت له من شعره الكفن ، الا ان اعصابه دحضت فيه مزاعم ايامه . هذا جميل الباغي ، بقده ، وجده . تماوج في اذنيه ، وهو في العالم الجديد ، ما بذلت ناهدة لاجله ، فادرك مبلغ الوفاء الركين . وهفا الى الضريح ، المضمّخ بعطر الحفاظ ، يبكي ، وهو ينوء بارزائه ، الاخلاص المصفّى ، ويجلو الغمامة عن السر المكنون. هو قاتل «الاميركاني» ، لا ناهدة، ذات الميثاق المنيع

سامح الله طوال الالسن ، كم عصروا من صبابة ريّا ، وعصروا من حشاشة طهور !

زلفاء، اخت الصقور !

مزرعة الشوف ، الغارقة في البداوة حتى ناصيتها ، الصلبة في صخرها وهوائها ومائها ، الواقفة في الشوفين وقفة التحدي إزاء قرى المختارة ، وعين قني ، وعين ماطور ، المنجبة الغيارى المندفعين في الشدة كالسيل الجراف ، صورة ناطقة للقرية اللبنانية الصرف ، ومثال حيّ لهذه الاوكار المشيدة في الصرود ، وكأنها احراز حراز ، صوادق المنعة ، لم تنحرف بها الحضارة عن الطابع الاثيل ، وما تفتأ تعيش بعفاشاتها واوبارها

وما مزرعة الشوف ؟... بلدةٌ لا نظام فيها ، وقد نبت عن كل نظام . فكأن منازلها تدحرجت من القمة الصلعاء ، الى روائس الوادي . صخورٌ هوت عن مرابضها ، فتبعثرت في كل صوب . فلا روعة في البناء ، ولا قاعدة في الرصف . بل فوضى تتنكر للرونق والديباجة . على ان الاقدام يطل منها عارماً ، فيّاحاً ، وللمزرعة من ساحتها ميدان لقوة الأعصاب . فمن أجران يرفعها ذوو القدرة الى ما فوق رؤوسهم ، إلى مقابضات تلتوي بها السواعد الحسيرة ، الى أهداف يثقبها الرصاص السديد

وفي ذاك النهار ، من سنة ١٨٤٢ ، وقد تحطم مقعد الامارة الشهابية في لبنان ، وهوى الأمير بشير الثالث في أثر الأمير بشير الثاني الكبير ، تصاول شبان المزرعة المغاوير في رفع جرن

ضخم ، مطروح في ساحة القرية باعتزاز . والمزرعة على شطرين . في فمتها الدروز ، وفي صدرها النصارى. غير أنها لم تكن ذات لونين في الدين . فالنصارى والدروز على مودة . ولم تشعر بأنها على انفصال في سوى طابعها السياسي . فهي في السياسة قيلان ، يزبكي وجنبلاطي

واحتشد على الجرن ، الراسخ في كبد الساحة، ذوو السواعد المفتولة . ينظرون اليه بخشية ، ويروزونه بعيونهم المحترسة ، اليقظى . وتنحى من أحس في نفسه بالضعف . فلن يقدم على ما يخجله . واستقر بالمضمار ثلاثة . جرجس خالد ، وقد صاحت فيه القوة الهازئة بالويل . وحسين نجم ، وقاسم أبو عين ، وهما ممن صلبت عضلاتهم ، واستطالت على الحديد تغمزه وتلويه

وقبض جرجس خالد على الجرن ، ورفعه بعزيمة قاهرة إلى ما فوق رأسه ، ثم أهوى به ، ليعود فيشيله، ويمسك به دقيقتين مرفوعاً على مدة ذراعه ، وعروقه تكاد تنفزر في جبينه ، ولونه يميل الى الزرقة ، وقد احتبس فيه الدم المكدود

وجمدت الأنفاس في الصدور إعجاباً ، فكأن الجميع يشاطرون الظافر العناء . وطرح جرجس ، عند قدميه ، الجرن بين هتاف الاكبار والتصفيق : عشت ، عشت . أنت لها في المواقف البيض !

وحسين نجم لم يعجز عن رفع الجرن ، وهو من الصلابة على مكنة ، إلا أنه قعد عن التثنية . فما ضارع جرجس خالد في الشوط . وأقبل قاسم أبو عين ينتخي . فشدّ بالجرن . وارتفعت به يمينه الى رأسه . وإذا به يرتجف ويسيل عرقاً . فسقط الجرن من يده وهو يلهث . على انه اعلن بثقة بالنفس : لقد رفعته !

فاعترض حسين نجم بقسوة : بل أنت قصّرت فيه !

— رفعته الى رأسي ، مثلك !

فسخر به حسين قائلاً : بلغ جبينك ، وقد كدتما تتدحرجان معاً . الحمد لله على بقائك على قدميك !

فاستشاط قاسم أبو عين غضباً . ورشق حسيناً بالمقال الدامي. فارتدّ اليه حسين والخنجر بيمينه . واحمرّت العيون . وكادت تقع الواقعة . فالحزبان اليزبكي والجنبلاطي يكادان يشتبكان . ووقفت النساء في العين على أهبة ، كالرجال . واذا بفتى وافر الجلال ، بادي الهمة ، ينسلّ من الحشد ، ويقف بين المتخاصمين قائلاً بلهجة آمرة : على رسلكما !

وأمسك باليد الشاهرة الخنجر ينتزعه منها ويقول : حسين ، لن تمس قاسماً بأذى !

فلم ترتفع نأمة بمعاندة . فالمتكلم شاهين أبو كرم ، عميد القرية ، الباذل درهمه لكل مسترفد ، وصاحب الكلمة الفاصلة

في إخوانه . وجمع بين حسين وقاسم وانحدر بهما الى منزله ، يحيي لهما أسخى وليمة . وانحنى الفريقان ازاء الحكمة البليغة التدبير. ولهجت القرية بالاطراء والمحمدة. فليس كشاهين أبي كرم يفضّ المشاكل على جسامتها ، والتوفيق بين مضطرب الميول

وذلفاء شاهدت وسمعت. ذلفاء امرأة قاسم أبي عين ، اجمل فتاة في القرية ، ذات المقلتين الدعجاوين ، والقسامة النسيقة . فكانت بين حاملات الجرار ، حول عين الماء الشحيحة المورد ، المتهادية الى الحوض بإمساك . ولقد راعتها من شاهين ابي كرم همته ، وصولته . هذا فتى الفتيان ، وصديق البيت . لا ينقضي عليه يوم إلا وقد جالس زوجها مراراً ، وآكله . فالألفة تربط بعضهما ببعض بمكين الوثاق . وذلفاء على اعجاب بهذا الصديق النصراني ، العالي المكانة ، المبسوط اليد . وتعاظم به اعجابها وقد انقذ زوجها من ورطة خطرة . فأسرعت في فم الصباح ، من اليوم التالي، تموج فيها روائعها، وفي عينيها بريق من الشكر وعرفان الجميل . قالت وفي لهجتها رعشة من حنين: أبا ملحم ، أجزلت لنا المعروف ، ولسنا ندري كيف نقرّ بالفضل . قاسم مدين لك بالحياة !

وشاهين أبو كرم من المكبرين في ذلفاء رواءها ، وسناها . فرماها بنظرة ما خلت مما توهجت به باصرتاها الناطقتان بالحنو،

المعقودتان بالكحل على سماح ، وقد ازدادتا به فتوناً . وتجلى له محياها فلكاً من أهلّة ، اضاءت في الحاجبين ، والاجفان ، والشفتين ، كأنه خدين السماء

وشاهين ابو كرم ، مع رؤيته اياها في كل يوم ، يشتهي ان يتملاّها ، وفي وسامتها ما يأسره. إلا أنها امرأة صديقه . وصديقه أثير عنده . فأطرق بنبل مطبوع فيه وهي تخاطبه ، وما يجوز لمثله ان يثير الشك في قلب امرأة ذات تقى

ونادى اليه امرأته لتجالس ذلفاء . ولم يكن العهد يجيز أن ينادي الرجل امرأته باسمها ، بل باسم ابنها البكر . فصاح : يا ملحم !

فأطلّت زوجته ترحب بالزائرة . ولم ترقب ذلفاء هذه المفاجأة ، وقد جاءت تعلن ما في ضميرها من لواعج الولوع . فقطع عليها شاهين أبو كرم المجال ، وانطلق الى ساحة القرية يلتمس فيها التمويه . غير ان التمويه نبا عنه ، وهو يحترق بما تحترق فيه ذلفاء من صبوة وجوى . فمنذ عهد بعيد وهما على ضرم ، والأنفة والامانة تمسكان بهما عن الجهر بمكنون الحشا . أما الآن ، وقد أنقذ شاهين صديقه قاسماً من الغائلة ، فضاق خاطر ذلفاء عن العاطفة المستعرة،وشعر بما يكرهه على الاعلان. وجاءت الولهى تفضي بما يجيش في بالها من وجد، فتنكب شاهين

أبو كرم عن الاصغاء الى نجوى يشتاق سماعها ، ويخشى أن يعيرها اذنيه

وبما راع ذلفاء ، في من يحفزها اليه الشوق ، إقدامه . فهو في الملمات فارس همام . وجوده ، فإن منزله لمفتوح الباب أبداً للضيف ، يستدين المال لاطعام الناس . ووسامته ، ففي قسامته جلالة وأبهة . فما ان يقبل الى القرية ، على متن فرسه ، حتى تتسابق ذوات الجهارة الى رؤيته في حسن هندامه ، ونضارة طلعته . ثم هو وجيه يخالق الوجهاء . فليس بين كرام اللبنانيين من يجهله . وله في النضال جولات . فلا يحجم عن مجاهدة العظماء لأجل مبدإ يراه صواباً ، ويجدم في مناوأته على ضلال

وذلفاء امرأة متحمسة للذكاء ، والمروءة . ولم تكن تخفي إكبارها لشاهين أبي كرم . فتحدثت ، عن سجاياه الغرّ ، في أذن القرية وعينها . فهو مثال يحتذى . وخاطبها ناظراه بحبه الصادق . ولكن بجانب هذا الحب صداقة زوج لا يزدرى . فما إن تقع باصرتا شاهين ، على ذات الطلالة ، حتى يضطرب الهائم الانوف ، ويشمّر في الفرار . ليس يسعى ، مع هيامه بذلفاء ، لخرق حرمة الاخاء الوثيق بينه وبين قاسم ، المقيم وإياه على هوى سياسي أيّد ، وعلى أثيل الولاء

ولدى جلوسه في ساحة القرية – وكان يجلس فيها لماماً – لا تحين منه التفاتة إلا لتقع على ذلفاء ترد العين بحلتها الزاهية، وحلاها البيض ، وهي من فضة . كأنها ابداً على خطوة منه . فيغضي على استحياء . وتخونه عينه ، في لفتة مرتجلة ، فتلوح له ذلفاء بعينها ، قابضة على عصام جرتها ، وناظرة اليه بومضة الهيام . وتمتلىء الجرّة ، فتنبه عنها ذلفاء ولا تحس بها ، وقد شخصت بكل ما فيها إلى سيد القرية المهيب ، الرزين

وتطول وقفة ذلفاء.ويطول إطراق شاهين وقلقه. فينصرف الى منزله حزيناً . وتتوقل ذلفاء إلى دارها على مسرة ووجوم. فهي واجمة لكونها أحبت من لا يجوز أن تحب . وناعمة بالمسرة ، لكون من أحبت مفخرة من مفاخر قومه . فالقدرة والمناعة تنتهيان اليه

والزيارات بين الاسرتين لا تنقطع ، وهي مما ليس منه بد . شاهين لا يقوى على النكوص عن دار قاسم . وقاسم لا ينقطع عن شاهين . وكلما اندفع شاهين ، إلى منزل صديقه ، دقّ الباب وصفق. ويتفق احياناً أن قاسماً ينأى عن مبيته ، فتبدو ذلفاء ، ومنديلها لا يستبقي من وجهها سوى إحدى عينيها ، وتقول بغبطة : تفضل ، يا أبا ملحم . قاسم في غيبة !

فيرتجف قلبه ، وقد لاحت له في صباحتها . وينكفىء وفي

صدره حسرات . حبه يشدّ به الى الدخول . وحفاظه يأبى عليه الاثم ، حتى في نظرة . فيتوارى وهو يعضّ شفته تألماً . إنه لصريع حبه الممنوع !

وتوالت الأيام على اضطراب وغليان . يسعى الحبيبان للقاء ، ويبتعدان عنه . يحاولان الافضاء بما يتأجج فيهما من لهيب ، وتخونهما الجرأة في البيان ، مع كونهما في ميولهما على نار . وانه لمجتاح هذا الهوى الصامت ، وكلما صادمه حاملاه ازداد اشتعالاً . ولو لقي منفذاً ، حتى الى المصارحة ، لعرف بعض الهدوء والاطمئنان

ولم يكن من سبيل الى الابتعاد، والصداقة تفرض التداني. وإذا هجر شاهين أبو كرم القرية ، لرحلة من الرحلات ، غادر المزرعة وفي احنائه تتواثب سورة الهوى ، طاغية ، جامحة

ومرض قاسم أبو عين فادركته الحاجة . موسم الحرير مضى، وموسم الزيت لم يطلّ . ومن للصديق غير الصديق يخفف من اعبائه ؟ ... وما أصاب قاسماً أقعده عن الكلام . فهو في شلل عصيّ . والأولاد صغار لا يدرون ما هم فيه . ولا يدركون ما يتعرض له أبوهم من علة . فالاتكال على الأم دون سواها . على ذلفاء ، ساحرة القرية . ومن لذلفاء في الضيق غير شاهين الحدِب الصفي ؟

وشاهين يعود ، صباح مساء ، صديقه العاني . فيؤانسه ، ويؤاسيه . وعرضت له ذلفاء ، في احدى العشايا ، وقد استحكم منها الضيق ، تقول بلهجتها الحلوة ، المرنان : لم يبق لنا غنى عن استدرار الفضل ، يا أبا ملحم ، وقد عوّدتنا النجدة !

فالتفت اليها مدهوشاً . ماذا تريد ؟... ولم يلبث أن فطن الى مرماها . قال يستوضح بلهفة : أتكونون بحاجة الى المال ؟

وكم كان يزدري المال ، والدينار عنده أحقر ما في دنياه . ولم يفسح للمستغيثة به إلى الجلاء . فقفز الى منزله وعاد منه بصرّة طفحى . وألقى الصرّة بين يدي ذلفاء وهو يقول : لا تعفيني من مطلب . سهوت عما عليّ ، فعفواً . إذا مرض قاسم فكلنا في خدمته . لن يعدو علينا الاملاق !

وغلت في مقاله الحمية . ففار الدمع في عيني ذلفاء . هذا دمع الشكر النديان ، والحب الريّان . أريحية شاهين أبي كرم نطقت بابلغ آية . وانصرف شاهين وقد أدى ما عليه . فلم تكن أنفته تجيز له البقاء ، مع شدة حنينه اليه . ولكن ذلفاء أضحت أشبه بإناء طفح ، وقد ناء الوسع بالاحتمال . فإنها لمدفوعة ، على كره منها ، إلى بسط خلجات نفسها . وارتفع صوتها بنبرة آمرة ، مستجيرة : أبا ملحم ، ارجع . لك عندي مقال !

فتكشف لذكائه الوارف ما تسعى للادلاء به ، وأحجم

عن العودة . لن يرجع لسماع المشتهى الحرام . فليتعذب وليحترق في هيامه . الشقاء في هواه ، ولا الغدر بنجيّه . ذلفاء، الناصعة الجبين والرواء، ستظل على نصاعة جبين ورواء . فلن يخدش شاهين أبو كرم نقاوتها . وسبقته وجلاه في قهر فؤاده . الا انه قد يكون في ظنه على وهم . ما يدريه أن ذلفاء لا تحتاج اليه في مبتغى آخر ؟ ... وارتدّ على مضض . قال وعيناه في الارض : ماذا ، يا حرمة ؟

وما ناداها باسمها ، بل بما يعلنها أنها عليه حرام . وكانت تمسح دمعها . قالت: إجلس. ماذا عليك إذا جلست قبالتي؟... أنت صديق هذا البيت وسنده . ولا اراك إلا ممعناً في التنائي . بمَ أسأنا اليك ، يا شاهين ؟

فلمس القصد من دعوتها إياه وتملّل . ما يجلجل في ندائها غير الشوق . وبات الفرار منها محالاً . فتناول غليونه ، وهو من خشب الورد ، وحشاه تبغاً وأخذ في التدخين . إن الموقف ليفرض عليه الاصغاء والايضاح . قال : لست أنأى تأففاً . كوني مما أجاهرك به على يقين . ولكني أنأى إجلالاً . فأحارب نزوعي اليك، لتظلي تلك المرأة الطاهرة العرض، البعيدة عن الظنة . ان ما في صدرينا ليتعادل في صراخه ، وفي وثوبه ، إلا ان الفضيحة لا أرتضيها لي ولك. كل منا يحب الآخر ، فلا مكابرة.

ولكن علينا ان نقف بهـــذا الحب حيث لا نخجل منه . أنا أضطرم في جحيمه . بيد اني أذكر أنك امرأة صديق حبيب ، وأن على مثلي أن يدخل منزلكم كشقيق . أدركت لماذا تذرفين الدمع . إن هوانا لمحرق . كلانا منـه في سعير . ولكن على كلينا أن يتمثل ، بجانبه ، قاسماً زوجك وهو يهمّ بأن يفاجىء الآخر ببادرة يقلق بها وضاءة الصيت !

ونطق فيه الاباء بضلاعة وشموخ . هذا أمير بيان وحفاظ . ولقيت فيه ذلفاء نجداً أروع . من هذا المستوى تريد الرجال . يحبها ولا يستجيز أن يشوّه فيها عهد الامانة . ولم تكن دونـه سمواً في الجوى . فهتفت متحمسة : أبا ملحم ، ما أرفعـك وأكملك . الصداقة عندك تنسخ الهوى الحرام . وهو ما تصبو اليه روحي . فالعار في التبذل . وحبنا أرفع من الاسفاف . إنه ليدندن فينا . وسيظل على دندنة لا يبلغ بها الافصاح . فتتكلم الأعين ونكتفي منها بما تنضّ من تباشير ناطقـة خرساء . ما كنت أرغب في أن أفضي اليك بما ألقى من هذا الحب المشتعل في جناني ، إلا أني ما استطعت خنق صوته ، وقد غلبني . إنهـا لفضيحة . بيد أنها تتقى . ففي إماطة اللثام عن سرنا بعض العزاء !

وحرصا ، مع حبهما ، على الرسوخ في عفافهما . ولم يطلق شاهين أبو كرم الى ذلفاء عيناً يجلو بها محاسنها . ولا هي أزاحت

منديلاً تتلألأ تحت مطاويه قسامتها على تمام . فالعين الواحدة ، السافرة ، ظلت عيناً واحدة . قال شاهين: إننا لنعاني المرهقات في حبنا . والفضل في ان نعانيها . فما أجمل الحياة وكل منا ينطوي للآخر على وجد صيّاح ، ويميل بهذا الوجد عن تدنيس الصداقة . لنبقَ كما نحن . يكفينا أن يرى بعضنا بعضاً ، وأن يخاطب أحدنا الآخر. فاللذة القصوى في الحب النقيّ من الارجاس!

ونهض يبتغي الرحيل ، وفي نفسه من ذلفاء وفور هيام . وفي نفس ذلفاء منه غليان وَله ، وفورة إجلال . فالحبيب الصدوق من اتقى المخازي ، وصان الأعراض . وسرّها أن تكون باحت له بجوابسها ، ووعت حديثه عن هواه . إنه ليبادلها العاطفة على مداها ، عاطفة لا تذلّ فيها جبهة ، ولا يحمرّ خدان

وانقضت عليهما سنوات رحاب قنعا فيها بحب مقصوص الجناح . يغرّد ، ولكن لا يطير . فيرشفان عصيره من بريق الاعين ، وغمغمة الشفاه . ويكتفيان بنشوة اللحظ واللفظ ، وفيها للمتحرّج من الاثم الجمّ غنية عن الارتواء

وإذا لبنان يعتكر جوه . فتبددت فيه الأيام السمان . وأطلّت الربد العجاف. هذه هي السنة الألف والثامنة والستون . فما تذوّق اللبنانيون من رغد ، وألفة ، أذابوه في هذه السنة

الحمراء . فالشقاق ثار فيهم . وعرفوا أنهم دروز ونصارى ، وكانوا يجهلون انطباعهم على فواصل الدين . ولم يكن من مصلحة الدول ان يسعد لبنان بوحدة بنيه ، فامتدت الايدي الى الصدور تهزّها . وغاصت الخناجر في الخناجر . فالشمس اعتلّت يوم ذاك ، وقد أثخن لبنان جراحاً . ولطمت عذارى الجبل وجوههن خيبة والتياعاً . وتجهم الأفق الموشى بالورود . فتنكر الأخ لأخيه ، وقد فتنهما الواشي بالمقال الكذوب . وخضبّهما الدم البريء ، فصارت الاخوّة الى الوأد ، والمودة طواها الديجور

وفي المزرعة ، لجأ المسيحيون الى موئلين ، الى الكنيسة ، والى دار عميدهم شاهين ابي كرم . فازدحموا في عليّة داره ، يناوئون المهاجمين . والمهاجمون أرادوا العميد . فاذا التوى الرأس ، تضعضع الجسم . وانقضوا على العليّة يهدمونها حجراً حجراً . ويصطادون فيها كل قصير العمر . وتلفّت شاهين ابو كرم الى ما حوله ، فاذا به يقاتل وحده ، وقد ذهبت المنايا بالرفاق الشئوس

واظلم الليل والوجل وراء متراسه ، يمضي بنفسه في الذود عن حوضه . على ان الليل ابو السكون . فما لفّ هاتيك الأنحاء بدثاره الاسحم ، حتى هدأت الفورة بعض الهدوء . وماجت عينا شاهين ابي كرم في الجثث ، تتبيّنانها على وهج اطلاقات تروّع

آناً ، بعد آن ، الصفـاء المذعور . فهاله ان يقيم في مقبرة بلا غطاء . وصبر على المحنة . سيموت بهمة المستبسل الأنوف ، كما ماتوا . وانى يجبن ، وهــو المقدام ؟... وعمد الى البندقيات والغدّارات ، المتراكمة امامه ، يحشوها ليطلقها عـلى دفعات . فلا يدري الخصوم انه فرد . واذا همسٌ حادّ يرتفع وراءه: ابا ملحم ، أبا ملحم !

من يناديه ؟... وعلا الهمس فأضحى جمجمة : أبا ملحم، أنا ذلفاء . إلحق بي . جماعتنا يبغونك ، وانت هدفهم الأوحد . إخوانك غلبوا على امرهم ، فجئت لانقـــاذك من الويل الداهم . تعال !

فارتعش ، وقد عرف ذلفاء . ارتعش وأكبر المسعى . هذا هـو الاخلاص الزكيّ العرف ، المأمون الفوح . ذلفاء تغامر في سبيله. واذا شعر بها بنو قومها سفكوا لا محالة دمها. فما هذه الجبهة الشماء ، النافخة فيـها ؟ ... وجمدت يمينه وهو يحشو إحدى الغدارات . قالت ذلفاء : إسرع ، إسرع . لا تعرّضني للغائلة !

فاجاب بعنجهية مطبوعة فيه: لن ابرح الساحة. سأموت كما ماتوا . هذه الضحايا النقية الجباه بحاجة اليّ، وعليّ أن أثأر لها . انصرفي. صنيعك يزيد في مضاءعزيمتي . شكراً لك وقد فكرتِ، في مثل هذه الساعة ، في صديق يعصف به الخطر !

فأبت الانصراف . ما جاءت لتعود خالية اليدين . انحدرت من القمة الى السفح لتستلّه من الجائحة ، ولن ترجع على اخفاق. قالت بالحاح : لا تطل الجدل . تعال . اذا شعروا بي قتلوني . تظاهرت باني أحمل اليهم الطعام ، وانت مطلبي . لا تنس أنك أنقذتنا مرتين . ونحن قوم نحفظ اليد البيضاء !

وأشارت الى يوم المصاولة على الجرن، وقد اوشكت الواقعة أن تقع بين حسين نجم وزوجها قاسم . فاصلح شاهين ابو كرم بين المتخاصمين . ولمحت الى انجاده إياهم في الضيق . فهز برأسه يمانع في الاجابة، وهو يقول : محال . هنا مثواي . لن تبعديني عن معقل الشرف . قمتِ اجمل قيام بما عليك حيالي . فالوفاء أدرك في مغامرتك النبيلة اسمى الذرى . وهذا يومه الأغرّ . فدعيني اضارعك في الوفاء لاخواني ، واذهبي على بركة الله . اذهبي . أخاف ان ينالوا منك . ولست ارضى ان يصيبك لأجلي مكروه !

فلم تشأ أن تسمع. لن تنصرف الا ويده بيدها . قالت بقوة لا تلين : سأبقى هنا ما دمت تأبى أن تكون رفيقي . ليقتلوني . لا بأس أن ألقى مصيرك ، وانت تريد لنفسك الموت !

فأحرجته . ولم يكن منه الا ان غمغم بشدة : انصرفي ، انصرفي !

وخشي ان يسمعوه ، فجاهد في دفعها عنه . ولكنها عاندت في الرحيل . لن تتحرك الا وهو بجانبها . وكلما دفعها عنه ارتدت اليه . قالت بصادق البذل : طاب لي الموت على مقربة منك ، فلا حرج عليّ اذا شاهتك في المصير ما دمت تشيح عن سعي لانقاذك . ها هم أولاء . ليقتلوني قبل ان يقتلوك !

وسمع وقع اقدام . وخشي على ذلفاء من حزّ المدية الرهيفة . بل خشي كل منهما على الآخر . ولم يجد شاهين ابو كرم بداً من صدّ المتبكة عمن جاءت تصدّ عنه الموت . فانه ليكابر في المقدور وهو يتنكب عن نداء الولوع الفادي . فيطرح ، في اشداق المهلكة ، امرأة ذات معروف اثيل . قال على مضض واكراه : أنا منطلق في أثرك . فسيري امامي !

فشدّدت عليه في أن يسير وإياها جنباً الى جنب ، مخافة أن يميل عنها ويعود إلى معتصمه . والتحفا بالليل إلى منزل قاسم أبي عين . وإذا اعترضهما معترض ، في الطريق ، رفعت ذلفاء صوتها ، تعلن نفسها بجرأة لا تميع . فكأنها الصقر في مسبح الغيوم ، يردّ عمن يحرسه العوادي . وفي منزلها فسحت لشاهين أبي كرم أرحب مكان . قالت : انت هنا في منجى مصون !

ولكن الصباح انجلى ، ولم يقصف البارود في عليّة شاهين أبي كرم . فأين المحاصرون فيها ؟... ودنا منها الدروز ، فإذا

بهم تجاه أكوام من القتلى ، وليس في العليّة ذو نَفَس يتردد. وبحثوا بين القتلى عن شاهين أبي كرم، عميد القوم، فلم يجدوه. هل انسلّ الى الضواحي يطلب النجدة ؟

وذكروا أن ذلفاء شقّت اليهم الليل ، فهل عرّجت على شاهين وأنقذته ؟ . . . كلهم مطلع على الصداقة المعقودة بين شاهين أبي كرم ، وقاسم أبي عين ، فما يمنع أن تكون ذلفاء انحدرت الى العليّة المحصورة ، لانقاذ الصديق الوفيّ ؟

وطفروا الى منزل قاسم . فابتسمت لهم ذلفاء . وقالت بمنطقها المرنّ : عافاكم الله ، ما تريدون ؟ ... أتكونون بحاجة الى الزاد ؟

فصاحوا معربدين : نريد شاهين أبا كرم . هو هنا . فأين يختبىء ؟... أبصرناك تجوبين اليه الليل . فأين أخفيته عنا ؟... هاتيه . جئنا لامتصاص دمه !

فلم تجمد فيها ابتسامتها ، بل انطلقت في قهقهة ساخرة ، وقالت : أيكون شاهين أبو كرم هنا ؟ ... إنكم لمجانين . فكيف يعرض لكم أني أجيء بعدوي الي ؟ ... هذا هو المنزل على سعته ، فابحثوا فيه عمن تبتغون !

فبحثوا وما اهتدوا . وانصرفوا على ارتباك. خلاص شاهين ابي كرم منهم شر مستطير ، والرجل لا يعدم الأنصار الأقوياء.

إلا أن شاهين أبا كرم لم يبرح المنزل . ذلفاء ، أخت الصقور ، ذات الدماغ الخصب ، والسلطان الطاغي ، أكرهته على الاختباء تحت أوراق التوت ، في رحبة القز ، والفصل فصل الربيع ، والقوم يتولون فيه تربية دود الحرير . قالت وهي تؤام مقبلين اليها : شاهين ، عليك بهذا المخبأ ، ففيه طمأنينتك !

فمانع : أأنا أختبىء عنهم؟...ولكني سأقاتلهم وجهاً لوجه !

فهاج فيها الذعر ، وصاحت باضطراب : وأين تقاتلهم ؟... عندي ؟ ... أراك تريد لي في القرية الافتضاح . أي ألسنة نهاشة تثير عليّ ؟

وفزعت الى سمعتها تشهرها ، عليه . هذا هو السلاح القاطع . وضنّ بها أن تصاب بالشين ، فأطاع وفزع إلى المخبأ الآمن. إن ذلفاء لناهية آمرة. وفي المساء، وقد تلاشت المقاومة، وسكت البارود ، وماج النعاس في العيون الثقيلة الاهداب ، دلفت ذلفاء إلى شاهين أبي كرم تقول : بقيتْ أمامنا مرحلة اخيرة ليبلغ الوفاء حده،يا أبا ملحم.عليّ أن اخرج بك من القرية دون أن يشعروا بك . بل سنظل مقصرّين ونحن ننقذ مرة من انقذنا مرتين !

واجتازت به مكامن الخطر ، وهي تقول : اذهب بسلام ! وأقامت تصغي إلى وقع قدميه ، فيما يلطم ، بخطوه الحثيث ،

وجنات الهضاب إلى أرض الامان . حتى اذا ما انقطع الصدى، التفتت الى السماء تغمغم باسترحام : ربّ ، أنقذه من المكاره . هذا عفيف عيوف . ان انداده لقليل !

وذرفت دمعة هتّانة . وعادت إلى منزلها بخطوات ثقال ، وهي تردد قولها: لعن الله من أثارها بيننا . كنا على شمل نظيم، فإذا بنا على ذريع شتات !

وسمع الليل نحيبها وقاسمها اللوعة . فهي تتفجع على نكد الالفة ، وقد أزرى ببهجتها شحوب الصفاء الجميل !

جهاز العروس

تفتّق الليل عن ولولة رياح ، ودمدمة رعود . فهو صاخبٌ ، حانق ، كأن به جنّة . وتكاثف الظلام ، كحواشي المكروه ، لا تبين به فرجة . فالكون في عتمة سادرة ، كأنه يلتحف بالحداد الغموس . ليلةٌ ثاكل ، مات وحيدها ، فاصطبغت بالفحمة ، ولطمت خديها ، وقعدت على القبر تعول وتنوح

وامتزج صخب السيول بهدير السواقي . وانزوى الناس في بيوتهم ، يحتالون بدفء النار ، على قرس الزمهرير ، ويصغون الى الانواء المتلاطمة ، يصرع بعضها بعضاً ، في غضبتها العمياء الجموح . على انهم بمأمن من ثورتها ، وقد اتقوا كيدها بما بنوا من منازل ، وادّرعوا من لبوس

واندلع ، في بلدة دير القمر ، من ثقوب بعض النوافذ ، بصيص نور . بصيصٌ كنفثة المصدور ، في البلدة المتكئة على السفح ، والمعتصمة بالقمة ، كأنها توشك ان تغور في بطن الوادي ، ويمسك بها الزمن الرفيق عن الانحدار

ولم ينقطع السيل . فهو جادّ كابس ، وما شفى كل ما في نفسه من حزازة . فما يبرح يطمع في التشفي ، واوتاره تمور في صدره الناقم ، الجيّاش بالبغضاء . فيلسع وجه الارض باسواط حانقة ، مزبدة ، كأنه في معرض زجر واقتصاص

وفي ناحية البيادر ، من اطراف البلدة ، نافذةٌ يُفتح احد شقّيها دفعة على دفعة . ويطلّ منه وجهٌ يستوضح الليل ، والسيل ، على كمدة ، ثم يغيب . هو محيا اشقر ، كما دلّ عليه المصباح المستقر بيمين كحبّ الآس ، بضّة ، غضّة . ومحيا جميل، مع كل ما عراه من جهامة. فما به على ارتباك وهلع؟... من يرقب في بهرة هذا الليل الكافر الحقود ؟

وتوالى الاستيضاح . وعلا في صدر المنزل أنينٌ جريح . غلام في العاشرة ، يريد أباه . ما باله قد أبطأ ؟... قال بنأمة بكيّة : اين يكون في هذه الليلة الرهيبة ؟... لنذهب للبحث عنه ، يا سلوى !

وشدّد في براح المنزل الى الاب الغافل عنه في الحانة ، المتشاغل بالكأس عن ولديه المصابين بامهما الطريئة الكفن . سلخها بلا حنان ولا رحمة ، ممن بسطت عليهما جناحيها ، داءٌ سليط اذابها في مرشفيه الغليظين ، كحبة ملح في غمر

وعانت ذات الشعر الاشقر المجهود البئيس في دعوة اخيها الصغير الى الرقاد ، فما كان ليرضى . قالت : سيأتي ابوك . لا خوف عليه من الزوبعة . فنم آمناً . السهر يضنيك ، وانت بحاجة الى الراحة !

فلم ينقطع عن بكائه. هو ينشد أباه ويلجّ في الطلبة. فبكت

سلوى ، سلوى الرائعة في الثامنة عشرة ، النديّة كجبين الصباح، الجنية كصادق المبرّة. ولقد ملكت من الفهم والرزانة، على لدونتها ، ما يغيب عن الشبعانة من الحكمة . وماتت امها على طمأنينة ، وقد ابقت في البيت سلوى ترفق بابيها ، وباخيها حايم الصغير ، وتتعهدهما بوفائها ودرايتها

والاب والابن لقيا في الفتاة الناشئة أماً ، وابنة ، واختاً . على ان الاب لم يكن يستطيع البقاء في منزله المغموس في اللوعة . كان له اربعة اولاد ، فانطفأ منهم اثنان ، كالفقاقيع . ماتا ينهشهما داء السل المكين في الاسرة . أملودان ، كالتسابيح ، قصفتهما ريح عاتية. فما تكاد الحفرة تلتهم جثماناً، حتى يسدّ جوعها جثمان. والبلية الحاطمة ذهبت بالام المرضوضة الحشاشة. فانتثرت كما انتثر ولداها. ازاهر حصدها ، في غضارتها ، منجلٌ غشوم . وابصرت الثكول فناءها ، بعينيها ، وقد لفظت رئتيها، كما تلفظ الشجرة اوراقها الصفر ، في مهب نسمات الخريف

*

ولم يتماسك سعيد جبور على النازلة . فهوى تحت عبئها ضائع النهية . كان يتجه في طريق قويم ، فزاغ . هذا ليس سعيداً ، وقد تنكر حتى لنفسه . فاليأس ، من دنياه ، مال به الى الحقد على عالم يتنفس في الالم، ويعيش في العدوان. ووثب على المسكر

يخدّر به حفائظه . فهو يبغي الضياع عن حياة راحتها شقاء ، ونعيمها هوان . جرّ ثلاثة الى القبر ، في رفّة عين ولفتة ، فاجفل . ولا يبرح من جفوله على رعدة . فتهدّل خدّاه ، وعبس . واحمرّت عيناه ، وغارتا ، كأن أرمدتهما دنيا من غبار ودخان . وكثف شعر لحيته ، وارتخت شفتاه . ورثّ في هندامه ، وقد غفل عن شأنه . فهو مبعثر ، محطم ، كأنه يخرج ابداً من جولة صراع ، ناء فيها بالخسران .

وتقفل الحانة ابوابها ، ويأبى سعيد براحها . هو فيها ، وسيبقى . وانه ليؤدي بدل الخمرة عن يد سخية ، لا تبالي الانفاق . ففي جيبه حفنات من نضار ، ما ان تجفّ حتى تفور ، كأنها الينبوع الرويّ . وسعيد جبور ليس بالرجل الفقير ، وله في حي البيادر منزل نسيق ، ازرى بما حوله من دور ومساكن . فتعمّم بالقرميد الاحمر . واشرقت فيه روعة الالوان ، على رياش حالي العود ، كمضاطب الجنّة . طنافس ، تلو طنافس ، يشيع فيها البذل ، وتسطع الاناقة . ومقاعد رجراجة سريعة النبضة ، كأنها اعصاب حسّاسة . ومرايا تخلع على الجدران حقائق كالوهم ، فتتدفق بالخيال فيما تعرض الراهن الملموس

ولسعيد جبور كروم في دير القمر ، ينبت فيها الزيتون ، بجانب الدالية والتينة . فله منها بسطة في القمة ، على تخوم

فسحة الصنوبر» ، العاقدة على البلدة لواءها الاخضر . وله في مشارف الوادي ، وقد تدحرجت في مسيله دفقات الماء ، كأنها تنتعل الدواليب، جنائن فساح، كخمائل الرحمة، تزينها النضرة، ويجلوها الخصب . وتضخمت ثروة سعيد بديون ناطقة الارقام والحروف. والادانة صنعة الاغنياء في لبنان، المقدود من الصخر الصلود . فتجود بالعطاء بلا مشقة . ويقبل على الارتواء من رفدها العطاش الى الدرهم. مَن نضبت ايديهم من المال واقاموا بانتظار الموسم ،بل المواسم.موسم الحرير ،وموسم الزيت،وموسم الزرع ،وموسم الكرمة.وهذهالديون استوفاها سعيد جبور كيفما استطاع . وانفقها بلا حساب في تخدير نفسه ، لسلوّ اشجانه . وطارت الديون ففزع الى الكروم يبيعها . ولماذا الابقاء عليها ، وغداً ، أو بعد غد ، يزجى عوداً جافاً الى الرمس البارد ، الموحش ، النهم؟... وسعيد يروم الانطلاق وشيكاً الى رمسه، ليتوسد التراب ، ويمزج رفاته برفات امرأته ، وولديه ، وما يزال منهم على لاعج الحنين.

واقبل اصدقاؤه لائمين، رادعين، بشفقة واكتئاب، فصدمتهم عماية عسرة . فما كان سعيد ليصغي، او يطيق ان يصغي . زمنه جار عليه ، فلن يصافي زمنه ، وليبلغ الكيل الطفاح !

وفي كل ليلة ، بل في كل صباح ، او حفزة من غبشة ، لا

بد ان يعود سعيد جبور محمولا الى منزله، لا يشعر، ولا يفيق.
وتقيم ابنته سلوى ساهرة ترقبه، لتنهض اليه وهو الفاقد الحس،
وتسجيه في فراشه ، وتعالج فيه سكره المزمن ،دامعة العين ،
مكمودة اللب. وطالت استغاثتها بهذا الاب كي يرفق بها وباخيها،
اذا ابى ان يرفق بحياته . فوقعت ضراعتها على خيبة . وادمى
قلبها العناد المستفحل، فاعولت وفي عينيها جمر ،وفي حنجرتها
شوك : ابي ، ابي ، الى اين تجرّنا ، الى اي مهواة ؟

وسعيد يحب هذه الابنة ، الناشئة على طهر ووسامة . الا
انه لا يكاد يراها حتى يذكر امها ، وولديه، المنحلّين في التراب
ضحايا بجسة ، فتثور فيه الحرقة ، ويغمض عينيه المعتكرتين ،
وعلى شفتيه كاوي الزفير . ويهجر البيت الى الحانة ، تأكل
ناظريه دمعة محرقة ، طاغية، ليس يقوى على ذرفها، وهي ممسكة
على رسوخ بالاهداب. فلا تسيل على الخد، كأنها بقية من نصلة،
استأسدت في اعماق جرح نغّار . ولا ترقأ ، كأنها عنوان
حسرة آبدة

*

ويستقر سعيد جبور بالحانة جالساً الى كأسه ، كالناسك في
صومعة . فلا يخاطب أحداً ، ولا يفتح أذنيه لخطاب. فحار فيه
بنو قومه ، ووقفوا منه جزعين . هذا انتحار صيّاح . ولكن

أين من يرعوي ، وسعيد يريد الاختناق بيأسه ، والذوبان في أساه ؟

ودير القمر متعبّدة لربها، تتطيّر من الضلة، وتخشى يوم الحساب. فشيّدت بين حوانيها المعابد، أكثر مما حشدت من رجال الدين. فالكنائس فيها على وفرة. وبجانب الكنائس جامع ، وكنيس، وخلوة . فالأديان تنبسط في ذاك المنحنى على قرة عين

وأمام دار سعيد جبور ، في البيادر ، يمر يوماً بعد يوم ، كاهن يتوشّح بياض الرأس ، ونقاوة الضمير . كاهن شيخ ، في الستين ، وربما جاوز الستين . على انه في صفاء جبينه،وعذوبة مشيبه ، قطرة ندى في مبسم الفجر اليقظان.يمشي والصلاة تهمهم في شفتيه ، وعيناه على اطراق . فلا تكاد الأرض تحسّ بوطئه، وهو فيها أشبه بفراشة على زهرة ، تزينها ولا تؤذيها. ويتخطّى دار سعيد جبور لينحدر الى الوادي ، وادي دير القمر ، طيفاً من أطياف الرحمة . فيجتذب القلوب الى الله، وقد خلا السفح من المرشدين الهداة

ودير القمر بشيبها ، وشبانها ، وأطفالها ، تعرف الكاهن ، وتجلّ فيه وضاءة المشورة . فما من نفس معذبة لجأت اليه ، إلا لقيت في كنفه البلسم. فهو الأب بشارة،أو « بونا » بشاره، كما ذاع في الأفواه.ينسلّ الى اداء فروض الدين كرجال الخفية،

بعيداً عن العيون ، كارهاً للضجة . لا يمد يـده لاستجداء ، ولا يشاغب في فتنة ، ولا يغمز من قناة . ان هو الا المثل الأعلى للكاهن المختار . وإعجاباً بشممه ، وبزهده في الدنيا، أهدى اليه المؤمنون بالمروءة والنخوة، صليباً ، وسلسلة ، وخاتمـــاً من الذهب اللباب

وسلوى، كلما بدا الكاهن لناظريها،حيّته بابتسامة وانحناءة . ودلفت اليه‌تقبّل يده وقد رست فيها ندوب السنين. وأنس بها ، فكان يسألها عن حالها ، ويجيئها حيناً بعد حين برسم لقديس ، أو بسبحة برّاقة الحبّات . ولما فجع سليم جبور بولديه ، وبامرأته ، كان «أبونا» بشارة في طليعة المعزّين ، المتاعين . فسكب الصلاة على الأرواح الراقدة في العالم الآخر. وأسبغ الصبر على القلوب المنتفضة بالكرب والأنين

والى هذا الكاهن ، النقيّ القميص والجيب، درجت سلوى، وقد أصيبت بشرود أبيها . فوقفت حياله ، وفي عينيها خيوط من دمع ، وفي صدرها مستوقد من لوعة . قالت ، وهي تكاد تغيب في نشيجها : أبتِ ، أبتِ الجليل ، أنقذنا مما بنا . انتشلنا من أشداق الخطر المهوم !

فكاد يشاطرها دمعها . على ان الموقف لم يبح له الوهن . قال يخاطبها ببيان المتّقين : اعتصمي برحمة الله ، يا ابنتي !

قالت تتظلم وتستجير: أبي يتطيّر من المنزل،فلا يقيم بيننا. لقد اختار الحانة مقاماً يجرع فيه الخمرة، حتى يضيع وتنوء به قدماه. فيعود الينا جثة على نعش، كأنه يستطيب الانسلاخ منا. فما عرفناه في هذا الكلوح الدميم، وليس يفيق من سهو، ولا يخرج عن غمّة!

فوجم. انه لمصير أسفع الوجه، رثّ الدخلة. وقال بصوت كرفّة جناح الرفق، في جائش الظلم: هل لي أن أرى أباكِ، يا ابنتي؟... أنا أعرف سعيداً رجل تقى وفضل، فما مال به عن مهيع الهدى؟

فأبانت بمائع اللهفة: المصائب هدّت حيله، يا سيدي، ولم تبق فيه انتفاضة من صواب!

وتناثرت أنيناً. ونظر اليها الكاهن وهي تتلاشى في عبراتها، فأمضّه أن يختنق العليق الزهرة العطرة. قال: ومتى يكون أبوك في المنزل، يا ابنتي؟... سأجيء اليه، وأنهاه عن الاستسلام للقنوط!

فأعلنت متفجعة: تلفظه الحانة، والفجر يكسف سراجها، ليرجع الينا، وهي تتثاءب في جلوة الصباح، كأن لا قرار له فينا!

فتقلت هامة «ابونا» بشارة، واطرق مغتمّاً. انها لكارثة مقوّضة تجتاح البيت الوديع. قال يجاهد نفسه في النطق، والالم

يكاد يفحمه : ابنتي ، ساكون غداً عندكم لمحادثة أبيكِ في نفسه. صلي لله كي يرحم الضالين المساكين !

وتوارى كالخيال. هناك أرواح متعددة تحتاج منه الى العطف والمؤاساة . وأقامت سلوى طول نهارها تصلي ، وتنذر النذور. اذا هدأ من أبيها جماحه ، فللفقراء منها كيس طحين ، ولسيدة التلة تاج من الفضة ، ولسيدة الدلغانة رطلٌ من الزيت ، وللنبي الياس أقة من الشمع ، وللسيدة الفقيرة حبال من القطن. فأبت أن يعتب عليها عاتب من هؤلاء الابرار . ونذرت نذراً شاقاً، عاهدت به نفسها على المسير حافية الى هذه المعابد، في وفاء ما انتوت انجازه

ولم يتخلف « أبونا » بشارة عن الموعد . فأقبل في غدوة باكرة، يدق باب المنزل. وأطلت سلوى تفتح له، وقد اعتلجت في محياها البسمة والجهامة . وهمست في اذن الكاهن بالتياع: جيء به منذ ساعة . غير أنه لن يلبث أن يفيق ، كأن النوم يعانده . ادخل ، يا « بونا » !

فدخل الكاهن ببياض شعره ولونه ، وبسواد جبته ، كقبس من النور في الظلمة . وترصد ، وهو يقرأ في كتاب صلواته ، يقظة سعيد جبور . ولم تطل رقدة سعيد . ففتح والد سلوى عينيه المثقلتين بعبء النشوة ، وصاح بابنتـــه بصوت أجشّ :

سلوى ، فنجان قهوة !

فقد اعتاد ان يحسو ، لدى افاقته ، القهوة المرّة لينضو عنه كابوس السكرة. ودنا منه الكاهن ، وفي وجهه فيضٌ من بشر. وحيّاه بصوت تترجح فيه العذوبة : صباح الخير ، يا سعيد !

فالتفت سعيد الى مخاطبه،بنقمة يودّ بها ان يعرف هذا المبكر اليه في غرّة النهار . وغلى الصلف في عينيه . بيد انه ما ابصر « بونا » بشارة ، حتى همدت فيه شراسته ، وابتسم على كره منه . فلم يكن يجهل حامل ضمادات الجراح . ونهض ، وقد نأت عنه ضعضعته الدائمة ، ومشى الى يد الرحمة باسطاً لها يمينه. فقال الكاهن : شئت ان أمرّ بك في انحداري الى الوادي . لم ابصرك منذ زمن . فكيف انت في حظك من دنياك ؟

فاعترت الضحكة الجافة سعيداً . وقال بحقد المغبون في الصفقة : أيحتاج الامر الى سؤال ، يا « بونا » ؟

فقال الكاهن مؤيداً وهادياً: من حقك ان تعتب على دهرك. فمن تدهمه المصائب النازلة بك فلن يقيم على طمأنينة . ولكن الاحزان رفيقة الابد ، ورحمة الله تفيض بالعزاء ، يا ابني . فلا تجحد مراحم الديّان !

فانتابت هزّة الشك سعيداً . وهتف بمرارة : « بونا » بشارة، لست اعاند ربي في حكمه . ولكني اهدم عمري بيدي ، وقد

طالت علي الحياة !

فمضت الرحمة في السخاء بعوارفها . قال الكاهن الرشيد : اذا جزعت على من ولّى ، أفلا تذكر من بقي ؟... قمت بما عليك حيال من نأى ، فقم بما عليك حيال من لا يبرح بحاجة الى حنانك . لا تقتل بريئين يرقبان معونتك ، ونصرتك . لا تكن مجرماً ، يا ولدي !

فزفر سعيد وجلجل : لا بأس عليهما ، اذا تساويا بمن تهدم . مثوانا ليس في هذه الدنيا ، يا سيدي الوقور . واني لاخشى ، اذا أبقيت على نفسي ، ان تتعاظم علتي . فيضنّ عليّ غدي حتى بثمالة كأسي !

وجاشت الذكريات الممضة في صدر سعيد جبور ، فانهلّت لوعته شآبيب . بكى كالاطفال . وغلبت على الكاهن عاطفته ، فابتلّ بماء محجريه خداه ، ولحيته الناصعة كطلعة الغمامة الطهور . جاء ليشفي ، فبات صريع الداء . قال سعيد جبور : نحن ضحايا علة لا ترحم ، يا « بونا » . نحن نعاجٌ خصبة لانياب السل الغدّار . بذلت جهدي في وقف البلية ، فوثب علينا الموت يسوقنا واحداً واحداً كالانعام . واني لاخاف على من ابقى . اخاف على الصغير حليم ، وكلما رنوت اليه قرأت في عينيه الموت ، وراعني منه الاصفرار والنحول . ايها الكاهن

الجليل ، دعني افرّ من جحيمي . لست اقوى على رؤية ضحية رابعة يخطفها الموت مني . هم ثلاثة هناك ، تحت الحجر البارد ، بانتظاري . وانا بشوق الى ضمهم اليّ ، باعثـــاً فيهم الدفء . وللباقين رحمة الله، وعطفك . اريد ان اؤمن برحمة الله !

فالتوى بيان الكاهن حيال بلاغة سعيد البؤوس . قال « ابونا » بشارة يحاول ان يعود بالنعجة الشاردة الى القطيع : ولكنك تكفر بالله في اعتصامك بقنوطك ، يا ابني . فاخلع عنك الاسترسال في الكربة، واذكر ما عليك حيال من صانت لك القدرة. هذا نصيبك من عطايا السماء، فلا تطمع في المزيد. والحكيم من سكن الى القناعة !

فاجاب بالآيات: ليكن اسم الرب مباركاً ، يا « بونا ». هو اعطى ، وهو اخذ ، وشقّ امامي الطريق !

فارتمت ابنته باكية عند قدميه، تتشفع اليه فيها وفي اخيها. فابعدها عنه ، وهي تزيد في حرقته . ولم تنجع فيه موعظة . وطار الى الحانة يداوي يأسه بالغيبوبة . ولحق به حليم يبكي ، ويهيب به الى العودة . فحمله بين يديه يشمّ فيه رائحة امه واخويه. بيد ان منظر الغلام سلخ نزرة الامل من صدر الاب، إن تكن هناك للامل بقية . فألقى سعيد ابنه جانباً ، وانطلق الى إحكام اخشاب تابوته . ومالت سلوى على اخيها المتطاير

نحيباً ، ترجع به الى المنزل، وتلقي رأسها الى رأسه. وضاعا معاً في نواح كسير. على ان الخوف من ان يلمّ الداء الهادم بالصغير حليم ، دعا الفتاة الى الامساك عن التمادي في اللهفة . قالت : حليم، قم بنا نلعب، يا روح اختك . « بونا » بشاره وعدني بان يعيد اباك الى الطريق القويم !

☆

في تلك الليلة الهائجة الكبد ، الفائرة سخطاً ، لم يبرح سعيد جبور مقره في الحانة . وانطفأ الشطر الاول من الليل وسعيد معتكف على الخمرة يطفىء بها نفسه . وقلقت سلوى على ابيها، فوقفت الى النافذة تسأل عنه الليل ، وبيمينها المصباح الكئيب يشقّ قلب الحلكة . اين ابوها ؟

واستيقظ حليم على ضوء المصباح ، فسأل عن ابيه . وهاله الليل الصاخب، فارتعش فيه الضمير كمن يوجس شراً . ابوه في الحانة ، فمن يرجع به ، في الليلة المتوعدة، الى المنزل ؟

وبكى الصغير . فتشاءمت اخته من نحيبه ، وسالت مقلتاها . غفر الله لابيها . انه ليموت ويميت . واعتزمت ان تسير اليه في الرياح الهوج ، والسيول الطوامي . ولكن ما تفعل باخيها ، وهو يروم اللحاق بها ، وما يثبت على الصدمة ؟ ... إنه لمن زجاج

رقيق السبك ، سريع التحطيم . أما هي ، فان لها ، من عافيتها السمحة ، بعض النصير

ودعت حليماً الى الرقاد وبالها عند ابيها . بل رقدت بجانب حليم تتظاهر بانها تنام واياه . فلا خشية على الاب الضلول . واذا النوم يعقد اهداب الصغير لفرط التحيب . فانسلّت اخته من الفراش ، وجاءت بمظلة ، وبمعطف ترتديه. وانتضت المصباح دليلها في الليلة السحماء . واغلقت الباب على مهل . فما علا له صريف . وانبتّت في احشاء الظلمة تصارع الليل ، والسيل ، والعاصفة ، والزمهرير

وللريح فحيحٌ وصفير ، كأنها تنفخ في حنجرة افعى. وهبّت على سلوى فكادت تخبط بها الارض ، وقد اطارت ثوبها ، فسترتها الفحمة عن وقاح العيون . غير ان الفتاة ابت ان تنثني. فهي منطلقة الى الحانة ، على كل رضّة ورُطمة . وغرقت في السيل والوحل. وعبثت العاصفة بالمظلة ، فاوشكت ان تنتزعها، لولا ان تمسك بها سلوى على عناق لصيق. ولسعت خيوط المطر وَجْنتَيْ ابنة سعيد جبور ، والفتاة سائرة في طريقها ، بعزم لا نكوص فيه

وخلت الطرق من المارة. فليس من شبح في الليل الكفور. والحانة في سوق الشالوط، الشاطرة البلدة الى فلقتين. فلقة تتسلق

القمة ، وفلقة تتدحرج الى الوادي . واعترى الخوف سلوى ، الا ان عزمها على انقاذ ابيها اهاب بها الى متابعة الطريق

ومشت حتى بلغت عطفة السيدة الفقيرة . فلم يبقَ عليها غير خطوات الى السوق . ولكن على مَ تقع اشعة مصباحها ؟ ... من هذا الراقد ، في الليلة الرعناء ، في الساقية المهذار رقدة الهانىء ، كأنه على فراش وثير ؟ ... وارتاعت . وخافت الدنو من الكتلة السوداء ، وقد ران عليها ذعر يشدّ بها الى الرجوع . الا ان فكرة نضّت في خاطرها اكرهتها على البقاء . بل جرّتها مكرهة الى الكتلة المضطجعة في الساقية المتفجرة بالهذيان . ربما كان ضجيع السيل اباها . ودنت منه تتبينه ، على ضوء مصباحها المغلّف بالزجاج ، المرتجف في يمينها ، وكل ما فيها على ارتعاش وهلع . نأمة تذهب بلبها . وصاحت صيحة كالعواء . هذا ابوها . ابوها سعيد جبور الباحث عن حتفه ، وقد بات منه حب الموت هوى ملحاً . ونادت باعلى صوتها ، بصوت يستطيل فيه الرعب: ابي ، ابي !

فاستفاق وهو يسمع الصيحة . وفتح عينيه ببطء ، كأن الاهداب تعاند في الانسلاخ . وانطلقت من شدقيه رطانة لم يفصح عنها لسانه المعقود . فامسكت سلوى بيمينه ، وهي تصرخ مولولة : من رماك في هذه المهلكة ؟ ... هل تخلى عنك

ذوو النجدة ، فما حملوك الى مأواك ؟

واشتدت عزيمتها وقد عرفت اباها . فانتشلتـه من الغمرة خرقة مبتلّة . لم يحفل به احد في تلك الليلة المجنونة، والحانة خلت من الناس . فدعاه الساقي ، قبل الموعد ، الى الانصراف لبلوغ منزله بامان . فاطاع مكرهاً . وكان الليل قـد جاوز الانتصاف . فمشى سعيد جبور الى مأواه يجرّ رجليه على عياء والتواء . وزلت به القدم ، وهو ينحدر في طريق متعـدد الدرجات كالسلالم ، كثير المزالق ، وقـد صقل حجارته وطء النعال . فهوى في الارض . وعجز عن النهوض ، فغفا . ومرّت به الساقية ، ودغدغته سياط المطر ، فما افاق. وانقطعت الرجل في الصخب الهادر ، فظل سعيد جبور في غفوة المطمئن . وخجل من نفسه وقد عرف ابنته . قال : ما حملك على براح المنزل ، في هذه الليلة الناقمة ، أمجنونة انت ؟

فاجابت بنزوة من غضب : ما انا بالمجنونة، بل من يعرفك وسقاك . ألا يرحم فيك هؤلاء الائمة ربهم ؟

وتأبطت ذراعه تسنده في مشيتـه . وتدهمهما الريح معاً فيتمايل بعضهما على بعض، كغصنين تجاورا في شجرة تموج. وتتمسك سلوى بالجدار لئلا تهوي بعبثها. وفي تلك الساعة،في تلك الساعة ليس غير ، ادرك سعيد جبور ظلمه لولديه المسكين على رمق .

وطغت على مسمعه موعظة « ابونا » بشارة ، ففكر في العدول عن شذوذه. ولكن، ليرحم الله سعيداً، ما انتوى الرفق بنفسه، لاجل ولديه الباقيين على البلية ، حتى مات . فاصيب بعد سقطته في الغمر بنزلة اطبقت صدره، واودت به. ونظر الى من حوله، وهو يجود بانفاسه ، ليوصي بولديه خيراً ، فلم يجد حوله احداً . بلى، كان هناك، في الزاوية ، « ابونا » بشارة يصلي، ويطلب الى خالقه الرأفة بمن ناء بالكوارث الملمّة به ، فضاق وسعه عن الحلم النديان

*

تطيّر ابناء دير القمر من المنزل الشائم ، الاسود العتبة ، الجاثم بالبيادر على فخامة ورواء . هذه دار مسكونة يعيث فيها الشيطان. فكانوا اذا مرّوا بها ازورّوا عنها ، كأنهم من الخطر على دنيّ رمية . والطيرة في الجبال كالنقد الوازن ، بضاعة رائجة مستفيضة . فهي عادات موروثة ، ولا سيما في انحاء يسكنها قومٌ على ضؤولة ، كبقايا الشعر في الجلحة الاكول

وليس على المتطيّرين لومة ، والعتبة اظلت في بضعة اعوام اربعة توابيت ، وخيّمت على داء عقام. وإنها لتوشك ان تقذف بالصغير حليم الى حضن امه وابيه، والسعال يشتد عليه، ويلحف

في ايلامه . والذبول يمشي فيه كأنه السقط، لم يبلغ التمام . ففي وجهه صفرة، وفي عينيه غؤور ، وتحت المحجرين هلال ازرق . اما الشفتان ففي بياض قاتم ، يشيع فيه الفناء

وبذلت سلوى، في انقاذ اخيها، ما أبقى أبوها . وحفزتها الشدة الى مبيع المنزل . ولكن من يشتري المأوى الوبيء؟... فالجميع نفضوا ايديهم من الصفقة، حتى من انطووا على الاحسان والرأفة ، كأن المنزل باب الجحيم

واستنجدت الفتاة بالصديق الوافي ، بحامل البلسم والطيب . فحبا « بونا » بشاره ، الى من يعرفهم من المحسنين ، يلجّ في ابتغاء الرفق . ولقي نداؤه مكمناً من مروّة ، فاقبل من يدفع بالمنزل الفخم ثمناً ، ولكنه سُقاطة من بَدرة. واضطرّت سلوى الى المبيع ، لمغالبة الصدمات المتهالكة على التبديد . فمن لها ولاخيها اذا امسكا على الدار ، وليس في اليد بُلغة ؟

وابى القدر ان يلقي سلاحه . فانشقّ الليل عن صيحة مثقلة بالولولة والاستغاثة . واسرع الجيران الى مأوى سلوى جبور واخيها حليم، وركابهم تصطك . فقد دروا منذ سمعوا . مات حليم . وهوت عليه سلوى تحلج شعرها، وتقبل اخاها الانكد، وتخاطبه بما يذيب الحجر : ولكنك منذ ساعة كنت تضحك ، وتعللني بشفائك . فما بك تحنّ الى امك وابيك واخويك ،

وتختصر اليهم الطريق ؟... أيكونون ارحم لك مني؟ ... ولمن ابقى بعدك ؟ ... هلا انتظرت ريثما نذهب اليهم معاً ، يداً بيد؟... ولكني بشوق اليهم يضارع شوقك الى مكنز الحنان!

وتقلبت على جحوظ عينين ، وهذيان . واذا بها تضحك . تضحك وترقص في مأتم اخيها . وهوت في الارض زنبقة قصفها النوء. فهالت الفاجعتان الناس، وعراهم منهما جمدة. وتضمخت سلوى بماء الزهر وقد نثرته القماقم ، تحاول ان تعيد به اليها رشدها . وجاء الطبيب فسلخها من الصراخ والشجو . فهي بحاجة الى السكوت الخاشع . وتهادى الصغير حليم الى القبر ، تضمه صدور فرشت له اضالعها مثوى ومرقداً . فالتراب اوفى مودة ، واحنى حشاشة ، من بنيه !

*

« ابونا » بشارة في غدو ورواح الى حي البيادر، وفي شفتيه كلمات كالرواسم ، واحدة اللون والطبعة : كيف سلوى؟... هل استفاقت ؟ ... ماذا قالت فيما تفتح عينيها لليقظة ؟

ويتكلم همساً . ويطأ الارض برفق ، مخافة ازعاج الفتاة ، حتى في غيبوبتها . ويجيبه صوت امرأة بدينة ، شمطاء ، داعسة في الخمسين ، يقول : كلما استيقظت تنظر الى ما حولها ببله ،

ثم تنام . فهي لا تشعر بما اصابها ، ولا تدري اين هي !

– والطبيب ؟... ماذا قال الطبيب ؟

– نصح بالرفق ، وبكتمان المصاب عنها اذا تناست ما حلّ بها !

– وهل من خطر عليها ؟

– لم يوضح النطاسيّ !

ويستقر الكاهن بالزاوية ويصلي . واتفق، ذات مرة، لسلوى ان فتحت عينيها وهو في صلاته، يدعو لابنة سعيد جبور بالشفاء . فجلست في فراشها تضحك كالمعتوهين ، وتقول : ما بكم انقطعتم عن الرقص والغناء ؟ ... كنت اسمع نغمات المزمار والعود ، فلماذا الوجوم ؟

ونهضت تريد الرقص في صدر الحجرة . فاندفعت اليها حارسة المنزل تقول : لا تتعبي نفسك . سيقبل المغنون والراقصون . يكفيك ان تقيمي في فراشك وتنتظري . سادعوهم اليك . فالتعب لمثلك لا يجوز !

واكرهتها، بعياء، على العود الى فراشها . ولاح للفتاة الكاهن فانتهرته بغيظ ، صارخة : ولماذا لا يغني لصيق الزاوية ؟...أيشهد العرس وفي سحنته شؤم الام الثكول ؟

فدمعت عينا « ابونا » بشارة .خشي على الفتاة من مطبق الجنون . قال : اني اغني ، يا ابنتي . اغني لله كي يشفي المقرّحين القلوب !

وهفا الى الطبيب في زفيف الجازع ، يستبحث عن النكبة . واذا الطبيب على ارتباك . قال بمضض وجهامة : صلِّ لاجلها، يا سيدي !

فاهتز الكاهن ، وقد احس بهول الكارثة . واستعطف بلوعة المكروب : انقذها ، يا ابني . ابذل في شفائها كل ما حباك العلم من معرفة . اهلها ملأوا القبور ، فضنّ بها على الفناء النهيم !

والطبيب من العمر في الرّيق الغضّ ، لين الجانب ، عفيف الضمير . فاقبل على مداواة سلوى بجهود المكافح الحصيف . سيضمن الخلاص لهذه النُضاضة المترقرقة من آثار سعيد جبور . وقضى الساعات الطويلة ، بجانب الفتاة ، يسخو باوفى ما يزخر به العلم من وسع . ويحمل إليها طاقات البنفسج واضاميم الورد . ويمازحها ويخاطبها بأرقّ كلام . وشاء الحظ ان يفوز الاستهواء بالعلة . فأخذت سلوى تستيقظ من خبلها ، وتحبو الى الرشد . والتفت الطبيب الى الكاهن يزف اليه البشرى . فاذا «بونا» بشارة قد غاب في شكر ربه ، كشرارة انطلقت صُعُداً للاتصال بواهب الرمق ، ومحيي الرميم

*

لم ينقطع الطبيب سُهَيْل نعمة عن عيادة سلوى جبور بعد امتلاكها الصواب . فلا تبرح بحاجة الى علاجه ورفقه . وشجته

فيها فطانتها . وراعه جمالها . فبـاتَ يحسّ بدافع إليها .
وتكلمت النظرات ، فاذا القلبـان على وهج من شغف وولوع

وضجت دير القمر بالخبر . ودير القمر تقرأ الغيب ، فكيف يفوتها حب أضاء ؟... ولكن هـل يتزوج سهيل بسلوى ، ولا غنى يشفع فيها ، ولا عافية تسعفها في البقاء ، ولا نهيـة سليمة تضمن لها الرشد ؟

وجال الحسد جولة طاغية شرهاً الى التبديد . فمانع سهيل وعاند . قلبه لا تسطو عليه الترّهات . فالفتاة منيعة في عافيتها وحجاها . وهو اعلم الناس. أما غناها، فلن يضير الحب الصادق ان يعيش بلا مال. وامام سهيل غده . فما عليه ، وهو الشاب ، إذا اختار رفيقة عمره على ثروة في الحسن والأدب ، واملاق في النضار ؟

بيد ان الالسن الواشية ، النمّامة ، لا تقوى على الامساك عن نفث الضغينة . فصاحت به : ولكن اين جهازهـا ؟... أعروس بلا جهاز ؟

فشغله هـذا الجهاز ، وما فطِن له . وردّد عفواً بينه وبين نفسه : « أعروس ولا جهاز ؟ » . ولو كان يملك ما يعينه على اداء بدل الجهاز ، لعاهد على بذل ماله . ولكنه حديث العهـد في الطبابة . فما امتلأت يده ، وهو لا يبرح في السعـة رخو

الجناح . وسار الى الفتاة على قلق . ألا تملك مـا يساعدها على اعداد جهاز العرس ؟

واطمته الحيبة ، وهو يعلم من سلوى أنها على قلة . وانقطع عنها اياماً. لا لجفوة، بل لامتعاض من نفسه ، وقد خلت يمينه ، وهو الشاب المرموق المكانة ، من قبضة من ذخر، ينقذ بها قلبه من البحران

وهالت القطيعة سلوى، فحسبتها عدولاً عن الهوى المسماح. وتولاها اكتئاب قعد بها عن نفسها . واندلع الخوف في « بونا » بشارة ، وهي تبدو له في غلواء الشجن . فاستوضح جازعاً : ما بك ، يا ابنتي ؟

فما ابطأت في الشكوى . قالت يرطّب كلماتها رشاشٌ من هاتن الدمع : سهيل وقف عني . فقد مال بـه عن العودة اليّ جهاز العرس . وانت تعلم أنّ ما أبقى ابي على وشك النفاد . وربما شاء سُهيل الخلاص مني، فاستعان عليّ بهذا الزعم. سامحه الله!

وبكت بكاء اليؤوس ، المحطم الغد . فهي تنوح على بُقيا الاماني المضمحلّة . لطيمةٌ تبكي يتيمة . ونظر اليهـا « بونا » بشارة لهفان، خشيان، وفي مستدار مقلتيه الذاويتين، المزمومتين، قطرتان كذوب الشمع ، تنهلاّن في اسفل الاهداب . واشفق على الزهرة من السموم ، فاطرق في تفكير رهيف . ولم تلبث

شفتاه ان تفتحتا، تسكبان الامل العذب، على القلب المغموس في الاسى . قال : مال ابيكِ لم ينفد ، يا ابنتي . فلا يزال لديّ منه حفنة استبقيها لآتيكِ !

وابتسم . فابتسمت لها الدنيا. لقد عاد اليها سُهيل نعمة على اجنحة . وبدا سُهيل ، وقد شفاه الكاهن الآسي من حيرته . طبيب الروح يبرىء طبيب الجسد . فاقبل يفحم ضحايا الحسد الاكول بقدرة سلوى على اعداد جهازها. وعقد « بونا » بشارة، بنفسه ، للشاب على الفتاة . هذه مشيئتهما . غير ان المحتشدين في العرس ، لاحظوا على الكاهن ، أنه عاطل من صليبه ، ومن سلسلة الصليب ، والخاتم ، هدية دير القمر اليه . وقد اعتاد ان يظهر بها في المجالس الموّاجة بالغبطة . فاين هي ، وليس من غبطة اوفى من انقاذ قلبين من غدر الزمان الحقود ؟

وتهامست الالسن . ونضحت بالاقاويل . غير ان صوت الكاهن علا كرنّة العود، صافياً ، طروباً . وارتفعت تسابيحه في العرس كانغام السماء . فادهش، وما تعوّد الفخفخة والفخامة . وغرق محيّاه في بشر نديّ . ضمّ القلب الهائم الى القلب الهائم ، بجهاده ... وبماله . فباع الصليب ، والسلسلة ، والخاتم ، ليحيي نفساً جفتها السعادة ، وخاشنتها البسمة ، وهي ما تزال برعماً رخصاً ، خميل الزغبر ، طريّ الاكمام !

من كتب المؤلف

صرخة الألم

أشباح القرية

أطياف من لبنان

صقر قريش

قهقهة الجزار

وامعتصماه

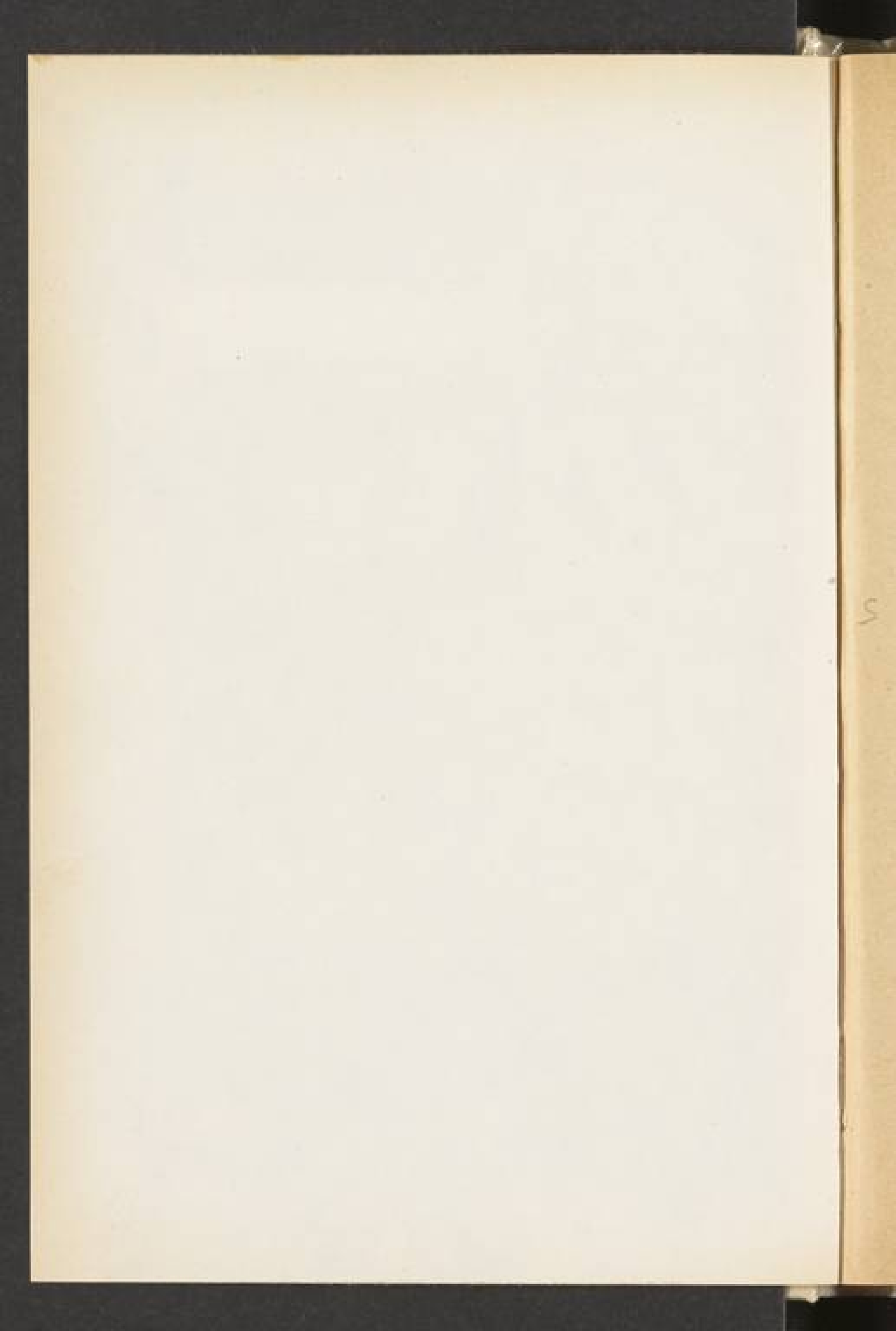
عفراء

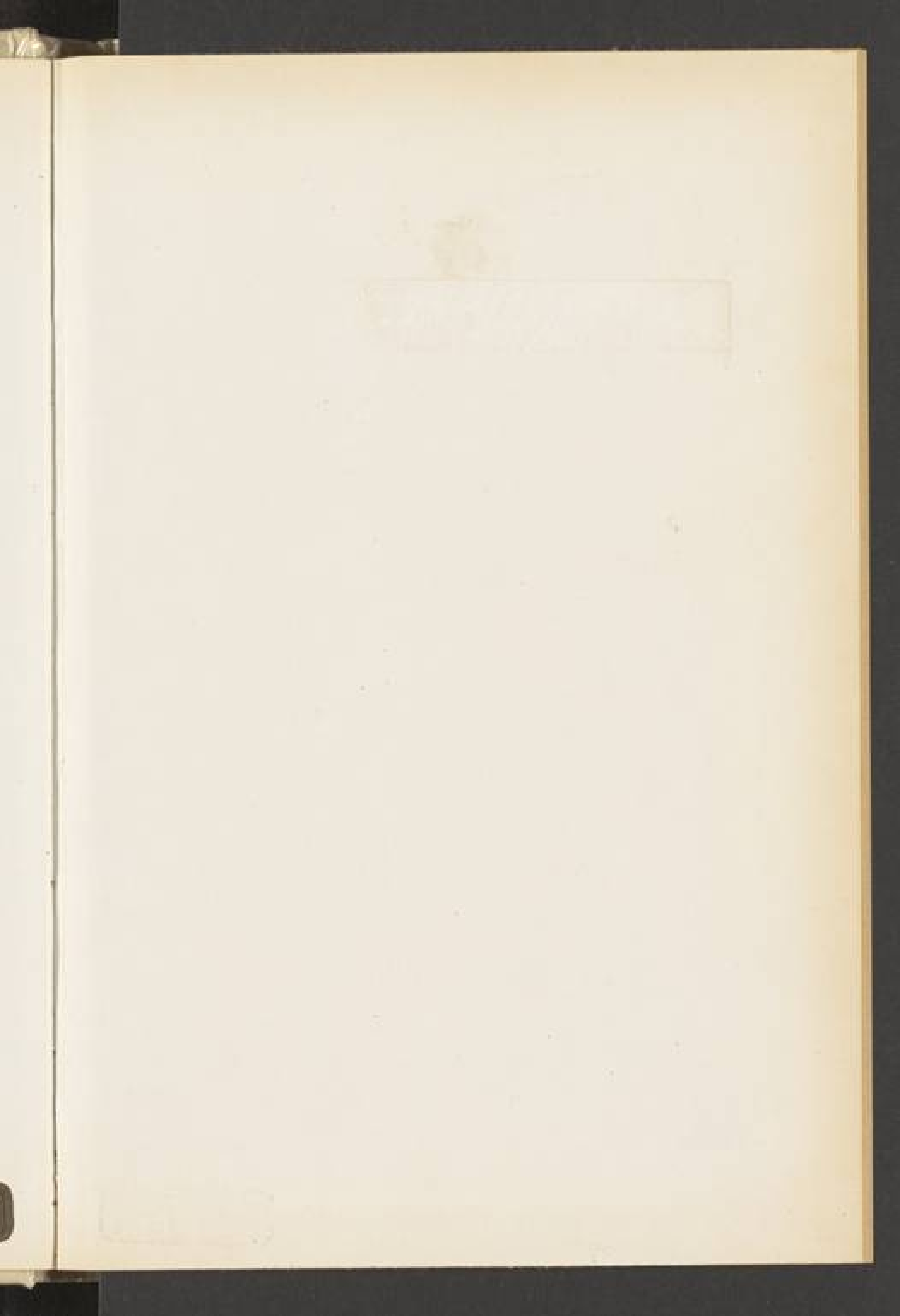
أم البنين

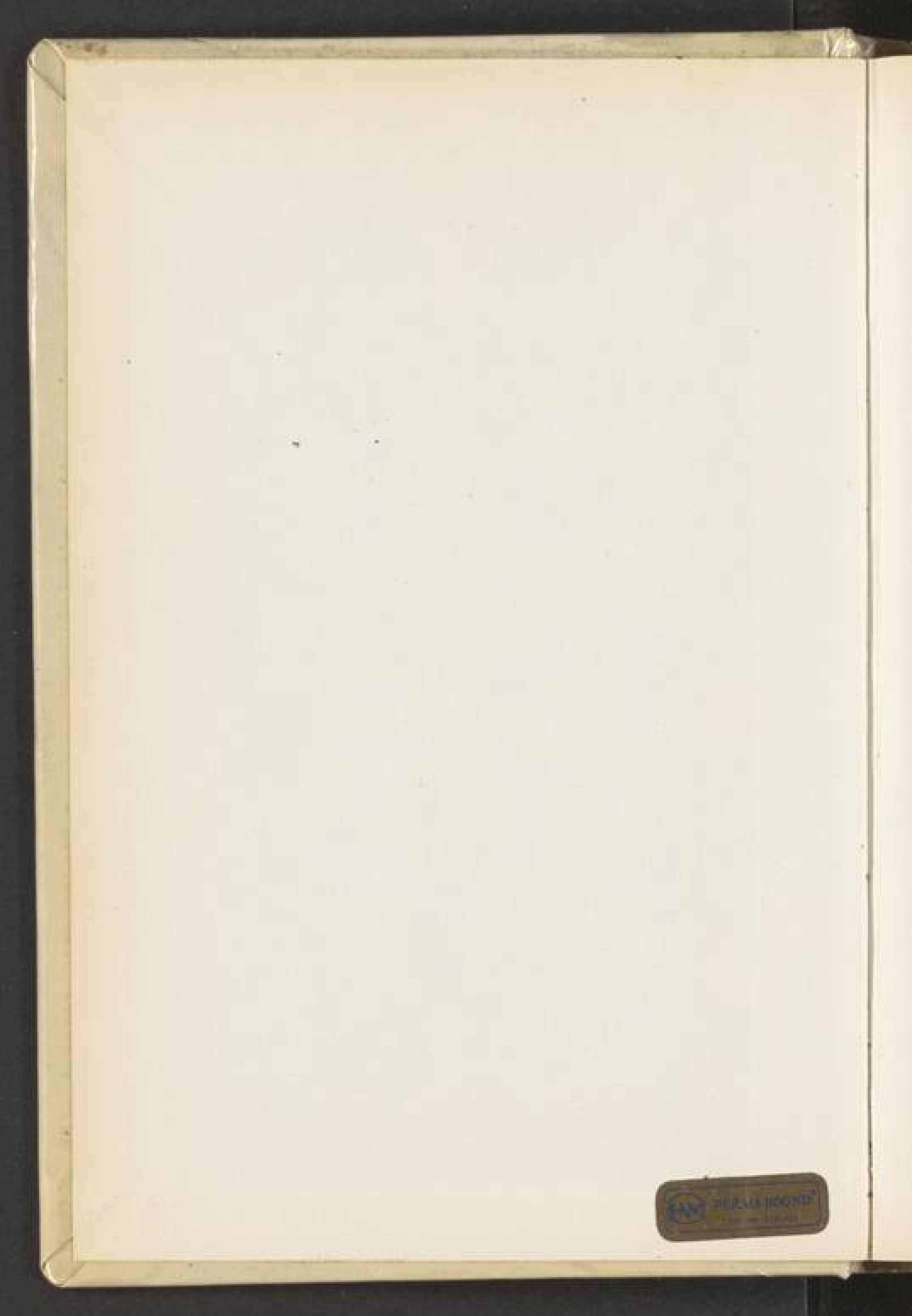
انتقام الخيزران

الضفاف الحمر

الشيخ قرير العين







٣٥٠ غ. ل.

٣